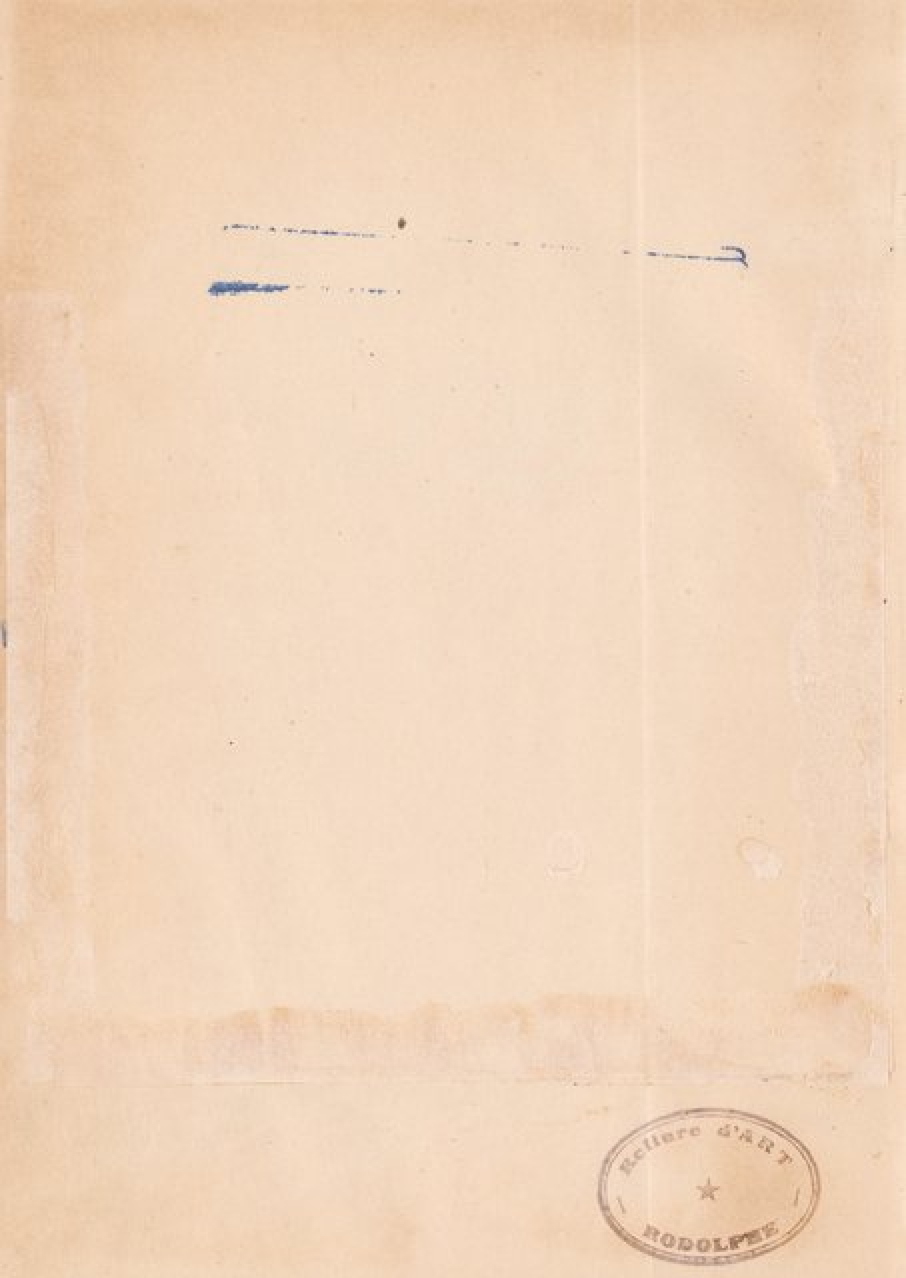
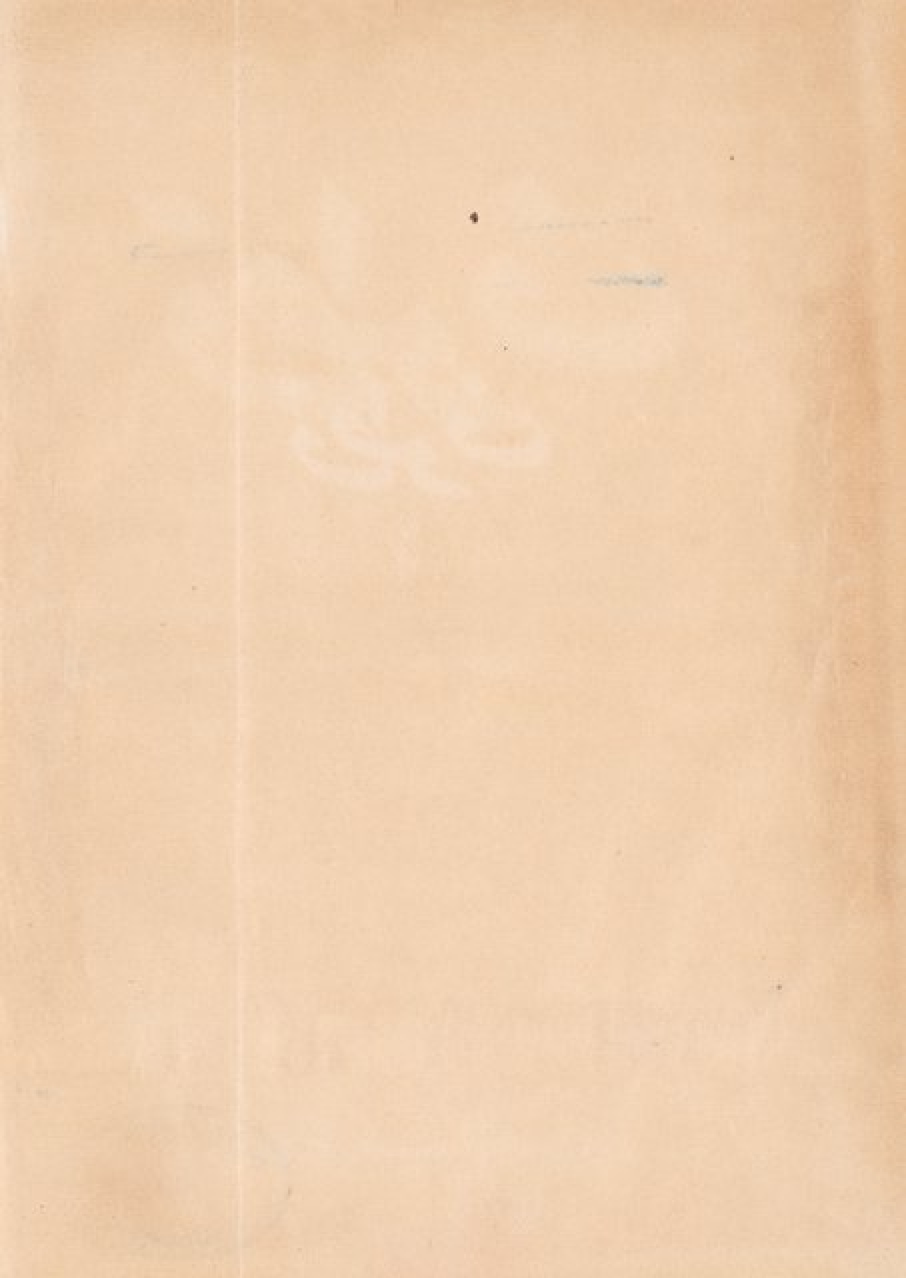




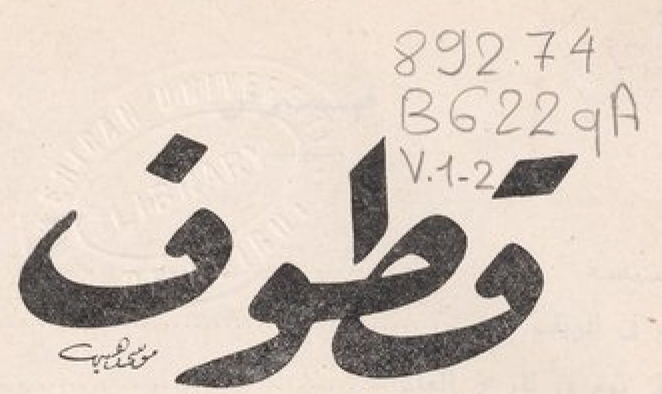


قطوف

١



عبد العزيز البشري



قطوف

١

مقدمة لطه حسين

دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

فهرس

صفحة

مقـــدمة

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخـلان ، فيذكرونه كما كانت الخنساء تذكر صخراً أخاها ، وتذوب أنفسهم حسرات كلما ذكروه ، حتى يكاد الحزن ينتهى بهم إلى اليأس ، كما كانت الخنساء تلقى وتشقى كلما ذكرت أخاها صخراً ، وكما صورت الخنساء ذلك أحسن تصوير وأبعده أثراً فى النفوس وأشده وقعاً فى القلوب حين قالت :

يذكرنى طلوع الشمس صخراً ... وأذكره لكل غروب شمس
ولولا كثرة الباكين حولى ... على إخوانهم لقتلت نفسى
وما يبكون مثل أخى ولكن ... أسلى النفس عنه بالتأسى

وصنع الله لأهله الذين يذكرونه حين تطلع الشمس وحين تزول وحين تهوى إلى مغربها ، ولأصدقائه الذين يذكرونه فى تلك الساعات التى كانوا يلقونه فيها ، فى ساعات العمل وجه النهار ، وفى ساعات الفراغ من آخر النهار ، وفى تلك الساعات الحلوة من أول الليل حين يتخفف الناس من أعمال النهار وأثقاله ، وحين يرسلون أنفسهم على سجيتها ، فتفرح وتمرح ، وتعبث وتمزح ،

وتخوض فى كل فن من فنون القول ، وتجول فى كل ميدان من ميادين التفكير .

فقد كان عبد العزيز رحمه الله أباً براً ، وأخا وفيا ، وصديقا حميما . وكان من أجل هذا كله محببا إلى النفوس ، أثيراً فى القلوب ، عزيزاً على الأهل والأصدقاء جميعا .

والشمس تشرق وتغرب فى كل يوم ، والليل يغمر الكون وينجلى عنه فى كل يوم أيضاً ، وفى اختلاف الليل والنهار وفى تتابع الأيام والأشهر والسنين ما يجلو عن النفوس غمراتها ، ويفرج عن القلوب حسراتها ، ويعزّى الأحياء عن الأموات ، وينسى الأحياء بعضهم بعضا . ولكنى أعتقد أن اختلاف الليل والنهار ، وتتابع الأيام والأشهر والسنين ، وتعاقب الأحداث الجسام والخطوب العظام ، واشتغال الناس بما يسرهم وما يسوءهم من شؤون الحياة — كل ذلك وأكثر من ذلك ليس من شأنه أن يعزى عن عبد العزيز أهله الأقربين وذوى مودته من الأصدقاء والأخلاء . فقد كان عبد العزيز رحمه الله من هذه القلة القليلة النادرة التى امتازت بخفة الروح وعذوبة النفس ورقة الشمائل ، والتى ظفرت من هذه الخصال بحظ غريب فى طبعه وفى جوهره ومادته ، إن صح هذا التعبير ، بحيث لا يبلو الانسان أقله إلا كلف به أشد الكلف وافتتن به أشد الافتتان ، وأصبح لايستطيع له نسيانا ، ولا يجد عنه سلوا مهما يلم به من الخطوب ، ومهما يختلف عليه من الظروف .

وقد عرفت أنا من هذا الطراز قلة قليلة استأثر الله ببعضها ،

وأرجو أن يطيل الله بقاء بعضها الآخر . ومن هذه القلة التى آثرها الله بجواره الكريم ثلاثة نفر كانوا أخلاء فيما بينهم ، وكانوا أصدقاء لكل من عرفهم أو اتصلت به أسبابهم من الناس . وهؤلاء الثلاثة هم : شاعر النيل حافظ إبراهيم ، وكاتب النيل عبد العزيز البشرى ، وطبيب النيل على إبراهيم . كلهم كان عذب النفس ، حلو الروح ، كريم السجية ، مهذب الطبع ، مترف الذوق ، مرهف الحس ، رقيق الشمائل . وهم من أجل ذلك كانوا متوادّين متحابين ، لا يفترقون إلا ليلتقوا . ولولا أن خطوب الحياة كانت تفرقهم على كره منهم لما آثروا على اجتماع شملهم شيئا . وكانوا على ذلك أصدقاء للناس جميعا ، لا يعرفون البغض ولا تطمئن نفوسهم إليه ؛ لأن نفوسهم خلقت من معدن الحب وفطرت على سجية الاخاء والوفاء وحسن المعاشرة . ولذلك لا أعرف أحداً من الذين عرفوا هؤلاء الثلاثة — وما أكثر من عرفهم ووصل أسبابه بأسبابهم — قد تعلّق على واحد منهم بكلمة مؤذية أو خطة مؤلمة أو عمل يحزن أو يسوء . وإنما نحن نذكرهم جميعا فيمزق الأسى قلوبنا ، وتفرق اللوعة نفوسنا . ولا نكاد نذكرهم مجتمعين أو متفرقين حتى يأخذنا الشجا لفقدهم ، وتبتسم نفوسنا الباكية لما تذكر من أعمالهم وأقوالهم ؛ فهم كانوا ابتساما على ثغر الحياة فى مصر مهما يكن حظ الحياة فى مصر من العبوس والحرج ومن النكر والضيق . وهم كانوا كغيرهم من الناس يحسنون ويسيئون ، ولكنهم لم يسيئوا عمدا للاساءة قط ، ولم يسيئوا إلا كانت إساءتهم مهما تقس فى أول

أمرها مصدر رضا وغبطة وفكاهة ودعابة بعد وقت يقصر أو يطول .

وكلهم نفع الناس فى حياته كأحسن ما يستطيع الانسان أن ينفع الانسان . وكلهم وجد فى نفع الناس لذة ومتاعا ، ولم يحفل بما جنى الناس عليه ولا بما جرعوه من فنون الألم وضروب الشقاء . كانوا لا يغضبون إلا ليرضوا ، ولا يبتئسون إلا ليبتهجوا ، ولا يعبسون إلا ليبسموا . فطرت نفوسهم على التفاؤل ، أو خلقت نفوسهم من التفاؤل ؛ فلم يعرف التشاؤم اليها سبيلا ، ولم يلق الناس منهم إلا خيرا .

كان حافظ يمتع الناس ويحيى نفوسهم بشعره الرائع . وكان على إبراهيم ينفع الناس ويحيى نفوسهم وأجسامهم بفنه البارع وعلمه الواسع وتفوقه الرفيع . وكان عبد العزيز يسحر قلوب الناس ويستهوى ألبابهم ، ويملك عليهم أمرهم ، وينسيهم صروف الحياة ، ويعزيهم عن آلامها بمحضره دون أن يتكلم . فاذا تكلم فقد كان يرق بهم من عالم إلى عالم وينقلهم من حياة الى حياة . فاذا كتب ونشر فقد كان يأخذ عليهم سبل الاعجاب ، ويضطرهم إلى أن يقرءوا ويقرءوا منفردين قد خلوا إليه دون غيره من الناس . فاذا لقى بعضهم بعضا تحدثوا عما قرءوا ثم أعادوا القراءة ، ثم أخذوا يذهبون من الاعجاب بما يقرءون كل مذهب ، يسلكون من هذا الاعجاب سبل الجد وسبل الفكاهة ، وربما شغلوا أنفسهم بذكر عبد العزيز فى مجلسهم كله حتى يتفرقوا ولم يقضوا منه العجب .

أما أهله الأقربون وذوو مودته من الأصدقاء والخلان، فيذكرونه

مصبحين ويذكرونه ممسين ، لا ينسونه ولا يتعزون عنه ، فليس إلى نسيانه أو إلى التعزى عنه سبيل . وأما هذه الكثرة الكثيرة من المثقفين الذين لم يلقوه ولم يستمتعوا بمحضره ، ولم يقولوا له ولم يسمعوا منه ، ولم ينعموا بفكاهته الحلوة ودعابته الرائقة ونادرته الحاضرة ، وإنما سمعوا عنه من بعيد أو قرءوا له بين حين وحين ، فان أمرهم معه كأمرهم مع غيره من الكتاب والشعراء والعلماء ، يستمتعون حين يتاح لهم المتاع ، ويرضون عما استمتعوا به عجلين ، ثم ينصرفون إلى غيره عجلين أيضا ، يطلبون اليهم كثيرا أكثر مما يطيقون ، ولا يعطونهم من أنفسهم إلا قليلا أقل مما يستطيعون .

إن المثقفين جميعا يؤمنون بأن حافظا كان شاعرا فحلا ، وبأن عبد العزيز كان كاتبا ممتازا ، وبأن على إبراهيم كان جراحا متفوقا . قد أقروا ذلك فى أنفسهم ، وسجلوه فى قلوبهم ، وآمنوا به عن علم أو عن غير علم ، ثم لم يزيدوا على ذلك . فكم عدد الذين يطيلون القراءة فيما نظم حافظ ، وما كتب عبد العزيز ، ويطيلون التفكير فيما امتاز به على إبراهيم !

لم يمض ربع قرن على وفاة حافظ ، والناس يعدونه الآن شاعرا من الشعراء البارعين كما يعدون الشعراء القدماء . ولم تمض إلا أعوام قليلة على وفاة عبد العزيز ، والناس يعدونه كاتبا مجيدا كما يعدون غيره من الكتاب القدماء . ولم يدر العام بعد على وفاة على إبراهم والناس يؤمنون له بالتفوق فى الجراحة والطب ثم لا يزيدون على ذلك شيئا .

وقد يكون هذا ملائما لطبيعة الأشياء ؛ فالموت يلغى الزمن بالقياس إلى الموتى . ومن مات مات . وأفهم من هذه الجملة ما تستطيع أن تفهم . مات بالقياس إلى نفسه ، ومات بالقياس إلى أكثر الناس ، وربما مات إلى أشد الناس اتصالا به وقربا منه . مات ولم تبق منه إلا هذه الذكرى التى تظل مضطرمة متأججة فى بعض القلوب حتى تخمد حين تكف هذه القلوب عن الخفقان ، وتظل فى سائر القلوب أشبه شىء بهذه الأسماء التى تكتب على اللافتات ، ينظر الناس إليها أحيانا ، ويمرون بها معرضين عنها فى أكثر الأحيان . لا يتعمدون النظر إليها إلا إن احتاجوا إليها ليستعينوا بها على التماس ما يبتغون من طريق . فالذين يؤرخون الأدب الحديث سيتعمدون تذكر حافظ وعبد العزيز وإطالة التفكير فيهما . والذين يؤرخون الجراحة الحديثة سيتعمدون تذكر على إبراهيم وإطالة الوقوف عنده . وأولئك وهؤلاء سيقفون عند هؤلاء الأشخاص كما يقف المتجول فى مدينة القاهرة عند هذه اللافتة أو تلك ليتبين طريقه إلى الغاية التى يريد أن يصل إليها .

ولست أدرى أخير هذا أم شر ، ولكنى أعلم أنه الحقيقة الواقعة من جهة ، وأكاد أعتقد أنه العقوق ، وأن هذا النوع من العقوق قد ركب فى طبائع الناس ، فهم يسرعون إلى نسيان من أحسن إليهم ، وهم يضيعون على أنفسهم بهذا النسيان منافع كثيرة ومتاعاً عظيما . وآية ذلك أنك تقرأ الأثر القديم الذى مضت عليه القرون الطوال من آثار الأدباء والعلماء ، فتجد اللذة كل اللذة

والنعيم كل النعيم ، وترثى للذين لم يقرءوا هذا الأثر من هذه الأجيال التى لا تحصى ؛ لأنهم لم يقرءوه ولم يستمتعوا به . فالذين لا يقرءون اليوم حافظا ولا عبد العزيز قد دفعوا إلى هذا العقوق الذى ركب فى طبيعة الناس ، فأضاعوا على أنفسهم شيئا كثيرا ، ما أجدرهم ، لو أحسنوا التفكير والتقدير ، أن يستدركوه ولا يفرطوا فيه .

وقد كنت من المفتونين بحديث عبد العزيز حين يتحدث ، ومن المفتونين بآثاره حين يكتب . وقد توسلت إليه حين أزمع نشر « المختار » أن يأذن لى بتقديمه إلى الناس . وشهد الله ما تكلفت ولا تزيّدت ، وشهد الله ما جاملت وما صانعت ، وإنما علمت فقلت بعض ما علمت ، ورضيت فقلت أيسر ما يوجبه الرضا .

وإنى لأرانى مع عبد العزيز فى تلك الغرفة التى كان صديقنا على عبد الرازق قد استأجرها فى ربع من ربوع خان الخليلى ، وكنا نلتقى فيها حين نتفرق عن دروس الفقه وحين يرتفع الضحى لنقرأ بعض كتب الأصول أو بعض كتب البلاغة . وكان عبد العزيز يلهينا بدعابته وفكاهته عن جد البلاغة والأصول . ثم لم يلبث أن ضاق بهذا الجد فانسل منه كما تنسل الشعرة من العجين ، ودون أن يلقى كيدا . وأقمنا نحن على هذا الجد ننفق فيه حياتنا ، ونزعم لأنفسنا أننا كنا نغذو به العقول والقلوب . وإنى لأرانى مع عبد العزيز وعلى عبد الرازق فى هذه الغرفة نفسها بعد أن تصلّى العصر ، نقرأ معا كتاب الكامل للمبرد ، نحصّل بهذه القراءة الأدب كما كنا نحصل البلاغة والأصول بقراءة الضحى . وكان مزاح عبد العزيز

وتنده يصرفاننا عن هذا التحصيل كما كانا يصرفاننا عن ذلك . ثم لم يلبث أن انسل من هذا التحصيل كما تنسل الشعرة من العجين ودون أن يلقى كيدا . ذلك لأنه ، رحمه الله ، كان أقل الناس حبا للاستقرار وميلا إلى الامعان فى طريق واحدة . فطر على حب التنقل ، على حب التنقل المادى والمعنوى جميعا . فكنت تراه مصبحا فى هذا الحى من أحياء القاهرة فى الأزهر أو قريبا منه ، فاذا صليت الظهر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة ملما بدار الكتب أو قريبا منها فى قهوة من قهوات باب الخلق . فاذا صليت العصر رأيته فى حى آخر من أحياء القاهرة فى قهوة من هذه القهوات التى كان الأدباء يختلفون إليها فى حى الأزبكية . فاذا صليت العشاء الآخرة رأيته فى غير حى من أحياء القاهرة ، تلقاه عند آل عبد الرازق فى عابدين ، وتلقاه عند غيرهم من ذوى المكانة والجاه ، وقد تلقاه فى قهوة من قهوات الناصرية مع جماعة من الأدباء صدرهم حافظ إبراهيم رحمه الله . كل ذلك حين كنا طلاباً قبل أن تشب الحرب العالمية الأولى ، وقبل أن تتغير الدنيا ويتحضر هذا الجيل من أجيال المصريين بعد انقضاء الحرب الأولى وشبوب الثورة الوطنية واشتجار الخلاف بين السعديين والعدليين ، وانتقال مركز النشاط لهذا الجيل إلى مكان آخر من مدينة القاهرة . فكنت ترى عبد العزيز فى ذلك الوقت فى « بار اللواء » أثناء الأصيل ، وفى « الكافيه ريش » حين يقبل الليل ، وفى الأهرام أو غير الأهرام من دور الصحف حين يتقدم الليل . وربما رأيته أثناء النهار

أو أثناء الليل عند هذا العظيم أو ذاك من عظماء العدليين .

ثم تتغير الدنيا مرة أخرى ويأتلف المختلفون ويتفق المختصمون ، فاذا عبد العزيز يغشى مجالس السعديين وأنديتهم كما كان يغشى مجالس العدليين وأنديتهم . ولكنه على كل هذا التنقل وعلى كل هذا الاضطراب بين أحياء القاهرة كان يثبت على مكان واحد يختلف إليه مهما تكن الظروف والأحداث ليلقى فيه على إبراهيم وأصحابه ساعة من ليل .

وفطرت نفسه على حب التنقل المعنوى ، فكان يشارك فى علوم الأزهر طائعاً أو كارهاً . وماذا يصنع وهو ابن شيخ الاسلام وقد سلكه أبوه رحمه الله مع الأزهريين فى نظام واحد وكان يشارك فى أدب القدماء وفى أدب المحدثين ، وكان يلم بالأدب الأجنبى إلماماً قصيراً من بعيد . وكان يحاول أن يتعلم اللغة الفرنسية ويعرف منها أطرافا ويتندر بها فى حديثه العذب . وكان قد أدمن قراءة « الأغانى » ، ففصح لسانه إلى أبعد غاية من غايات الفصاحة ، وآثر فى حديثه جزالة اللفظ ، وأعانه صوته المتين الملىء على التضخيم والتفخيم والترصين . وكان من أروع ما يروعك حين تسمع إليه متحدثا بلغة الجاحظ وأبى الفرج أن تستخفك اللفظة الفرنسية قد انزلقت بين هذا الكلام العربى الرصين المتين من حيث لا تدرى أنت ولا يدرى هو .

ثم يريد الله أن تعدو العوادى ، وأن تدلهم الخطوب ، وأن نفقد عبد العزيز على غير توقع لفقده ، وإذا نحن نحرم هذا المتاع الغريب النادر الذى كنا نجده حين نتحدث إليه ونستمع له ،

وإذا نحن مضطرون إلى أن نستحضر حديثه بقراءة ما ترك لنا من الآثار ، نقرأ ويخيل إلينا أننا نسمعه يتحدث ، فنجد فى ذلك مزاجا غريبا من اللذة الأليمة والسرور الحزين .

ثم يتحدث إلىّ أحد أصدقائى ذات يوم بأن لعبد العزيز آثاراً لم تجمع فى كتاب ، نشر بعضها فى المجلات وأذيع بعضها فى « الراديو » وأعد بعضها للنشر أو للاذاعة ، وكان عبد العزيز يهيئها كلها لتجمع فى سفر أو سفرين ، فأعجله الموت عن ذلك . فلا أكاد أسمع هذا النبأ حتى أُلح على صديقى فى أن يصل الأسباب بينى وبين هذه القطوف ، فيتاح لى ذلك . فلا أقرأ ولا أستقصى ، وإنما أزمع نشر هذه الفصول وفاءً بما لهذا الأديب العظيم من حق ، ورعايةً لما لهذا الصديق الكريم من حرمة .

لا أقرأ ولا أستقصى إجلالا لآثار عبد العزيز أن تقرأ أو تستقصى قبل أن تقدم إلى المطبعة ؛ فقد كان راضيا عنها ، وهذا يكفى . ثم تطبع هذه القطوف وترسل إلىّ فى فرنسا ، فأخلو إليها فى هذه القرية النائية من قرى الجبل أياما ، فلا أشك فى أنى لم أخطىء حين وثقت برأى عبد العزيز فى قطوفه ؛ فهى الأدب كل الأدب ، وهى الفن كل الفن ، وهى الكلام الذى يجمع إلى رصانة الأدب القديم وجزالته خصب الأدب الحديث وثروته . وهى على ذلك كله إذا ضمت إلى ما جمع من آثار عبد العزيز صورة فذة لا نظير لها فى الأدب المعاصر . فهى فصل مستقل من تاريخنا الأدبى يصوّر لوناً من ألوان هذا التاريخ لا نجده عند كاتب آخر

من كتابنا المعاصرين ، لا أكاد أستثنى منهم إلا صديقنا المازنى .

فعبد العزيز أشد كتابنا المعاصرين عكوفا على حياتنا المصرية ، وعلى حياة القاهرة خاصة ، وعلى حياة الطبقة الوسطى من أهل القاهرة بنوع أخص . وهو أشد كتابنا نفوذاً إلى دقائق هذه الحياة وسرائرها ، وأشدهم تمثلا لخلاصتها ، قد خالطت نفسه ، ومازجت دمه ، وانطلقت على لسانه حين كان يتحدث ، وجرت مع قلمه حين كان يكتب . فهى أصدق مرآة وأصفاها للحياة المصرية فى عصر الانتقال . وقد كان عبد العزيز رحمه الله يحب أن يصور المعاصرين ويجلو صورهم فى فصول رائعة كانت تنشر بعنوان « فى المرآة » ثم جمعت بعد ذلك فى سفر أرجو ألا يكون قد انقطع من أيدى الناس .

فاقرأ «قطوفه» هذه ، فسترى فى كل فصل من فصولها مرآة مصقولة صافية صادقة أدق الصدق ، لا تعكس صورة فرد من الأفراد ، وإنما تعكس صورة بيئة من البيئات ، أو جماعة من الجماعات ، أو لون من ألوان التفكير المصرى ، أو فن من فنون السيرة المصرية فى هذا الطور أو ذاك من أطوار الحياة . فاذا فرغت من قراءة هذه «القطوف» فقد استقرت فى نفسك صورة كاملة شاملة دقيقة لحياة مصرية ذهب أكثرها وبقى أقلها ، ولحياة مصرية جديدة ناشئة لم يتم تكوينها بعد ، ولكن عبد العزيز سبق بذكائه النافذ وملاحظته الدقيقة إلى التنبؤ بحقائقها و بما سيختلف عليها من الأطوار .

وكنت أقدر أن رعاية حرمة الأدب والوفاء بحق الصديق هما اللذان قد دفعانى إلى نشر هذا السفر ، فاذا أنا أقرأ ثم لا أشك

فى أنى قد أهديت بنشره طرفة من أقوم الطرف وأشدها إمتاعا إلى المثقفين من قراء العربية عامة وإلى الشباب منهم خاصة. فما أعرف أن كاتباً من الكتاب المعاصرين أتيح له من التوفيق مثل ما أتيح لعبد العزيز فى هذه الفصول التى تسجل من حياتنا ما كاد يضيع، وتسجله فى أروع لفظ وأبرعه وأجزله وأمثله. وما أشك فى أن كثيراً من هذه القطوف لو ترجم إلى بعض اللغات الأوربية لفتن به كثير من أهل الغرب فتونا.

ولو علمت أنى أستطيع أن أشير على وزارة المعارف فتسمع منى وتقبل مشورتى لأشرت عليها فى أن تجعل كتب عبد العزيز البشرى، وهذا الكتاب منها خاصة، بين الكتب التى تدرس فى المدارس الثانوية؛ فما أعرف أقدر منه على تحبيب الأدب العربى إلى الشباب وتزيينه فى قلوبهم، وإقناعهم بأن لغتنا الفصيحة القديمة تستطيع أن تؤدى من المعانى والأغراض ما تقتضيه الحياة الحديثة دون أن يمسها من ذلك نصب أو لغوب.

رحم الله عبد العزيز، وهيأ للأدب العربى من يقوم مقامه. ولولا الثقة بالله لقلت كما قال الحجاف فى العصر القديم: « وما أراه يفعل ». ولكن قدرة الله وسعت كل شئ، ورحمته وسعت كل إنسان؛ فليعوض الله من عبد العزيز خيراً، وليسبغ الله على عبد العزيز رحمة ونعمة وثوابا.

ط حسين

ميرولس — يوليو ١٩٤٧

أيام فى الريف

لقد طال عهدنا بالريف حتى كاد ينكرنا وحتى كدنا ننكره . ولست أزعم أننى ولدت فى الريف ، أو أننى نشأت فيه . على أننى كنت أكثر من انتيابه والعيش فيه كلما تهيأ لى انتيابه والعيش فيه . ولكن الدهر الماكر قد قطع السبب إليه ، فحرمنى غشيانه سنين عددا ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

وإذا نحن قلنا الريف ، قلنا الطبيعة ، أو أدنى الأشياء إلى الطبيعة والطبيعة ، مهما يكن لون حياتنا ، هى مصدرنا ، وهى اللاصقة بخلقنا ، وإذا رددنا ساعة إلى نفوسنا ، لم نجد غير الطبيعة بين أيدينا وعن الايمان والشمائل جميعاً . ولقد يبعد بنا طول العيش فى المدن ، ولقد يمعن بنا فى شتى السبل، حتى ننسى الطبيعة أو نكاد ننساها ، ويرجح الظن بأنه قد انحسم بيننا وبينها كل سبب ، وانقطعت جميع وشائج الرحم ، ولا تزال منها على هذا ، ولا تزال منا على ذاك ، إلى أن نغشى الريف ، فاذا السبب موصول ، وإذا الرحم مابرحت واشجة ، وإذا العطف يعتلج فى الصدور ، وإذا الحنان يترقرق فى النفوس ، وإذا لهوات القلوب تتفتح ، فلو أمكن لها لحست هذه الطبيعة حسواً .

وهل كان عجباً أن يحس المرء أبلغ الغبطة والأنس ، إذا آب إلى أمه الحنانة الرءوم بعد طول النوى ، مهما يكن قد ضرب فى الأرضين ، وتقلب فى شتى الأقطار ، وعايش أصناف الخلق ، وتوسم مختلف الوجوه ، وهفا قلبه إلى من هفا من الناس ؟

اللهم إن عيش الطبيعة هو الموصول بفطرنا ، واللاصق بطباعنا لأننا ، كما قلت ، عنها صدرنا . فاذا أحال المقام فى المدن أساليب عيشنا ، ولون فى فنون حياتنا ، وأوال لنا صوراً من صور ، وأبدل مناهج متعنا بمناهج أخر فان شيئاً من هذا لم يقطع ما بيننا وبين الطبيعة ، ولم يخرجنا منها أو ينزعها منا ، وإنما يشغلنا عنها . فاذا نحن طالعناها لم يزل شأننا على الحالم إذا استيقظ ، والغريب إذا آب واستقر به القرار بين الأهل والصحاب !

وكذلك كنت من الطبيعة حين هبطت الريف ، وامتد بصرى فى الآفاق ، وأحاط بى الزرع والماء . وما كدت أسلخ بضع ساعات حتى استشعرت أنساً كأننى كنت فى وحشة . ووجدت من الألف ما يجد الآئب من الغربة . ومالى لا أجد هذا وأستشعر هذا ، وقد رجعت إلى أصلى ونزعت إلى طبعى ، وخلعت عن نفسى كل كلفة ، وامتلختها من كل ما غرست من تصنع استكرهت عليه مناهج تلك الحياة . وما أجدر الطبيعة بأن تقهر الصنعة وإن طال بها الزمان !

هذه سماء كبيرة بعيدة الآثار ، وهذه أرض مبسوطة تشقها الأنهر والترع ، وتنعطف فيها الجعافر والخلجان ؛ وقد لبست حلتها الخضراء فأصبحت نهباً للعيون من حسن وجمال .

ولقد أحسن ، كدأبه ، كل الاحسان المغفور له الملك فؤاد الأول إذ تقدم بتغيير لون العلم المصرى من الحمرة إلى الخضرة ، فجانس بين شعار هذا الوطن وبين حليته وبهجة منظره ، ومعين ثروته ومادة حياته من العهد القديم !

ثم هذا الفلاح جاهد فى حرث الأرض وفلحها ، ولا زال كدأبه معها ، ولا زالت كدأبها معـه من الزمان القديم : كلما غذاها بالسماد ، ورواها بالماء ، أمدته بالخير ، ووصلته بالنعماء .

ولعل أول صناعة عالجها الإنسان فى هذه الحياة هى استنبات الأرض واستخراج ماتجود به من ألوان الثمرات . وستظل ، على التحقيق هذه الصناعة قائمة إلى غاية الزمان .

عاش الفلاح للأرض ، وعاشت الأرض للفلاح ، وعاشت كلاهما للخلق أجمعين .

هذا عيش الريف فى النهار ، فاذا جن عليه الليل نامت الطبيعة ونام معها الإنسان والحيوان ، فلا تسمع فيها حساً إلا ماتسمع من نباح كلب أوعواء ذئب ، أو نقيق ضفدع ؛ ولقدتسمع فى بعض الليل عزيف بندقية يطلقها بعض عسس القرية ، أو حراس البيادر (الأجران) ، أو الزروع إذا أدركت الثمار . فاذا كانت الليـالى قمراء ، تجاوبت الكروان بالتنغيم والتغريد ، وأطالت الأنفاس بالشدو والترديد .

وناهيك بليالى القمر فى الريف ، هذا وجهه قد تفرد فى الأفق جميعه ، تفرد ملك لا يشركه أحد فى الحكم والسلطان . على أنه

مفيض على الأرض ماأعطاه الله من حسن وبهاء ؛ وهذه منحة المتصلة من اللجين المذاب ، وقد ديغت بخضره النبات ، فخرج من اجتماعهما لون هو سحر فى السحر وفتنة فى الفتنة . منظر ، وإن كان يوحى بالشعر ، لا يتعلق بوصفه الشعر . يضئ النفس ويملأ الصدر ألينَ الفرح وأرفقه ، ويحرك عواطف حلوة لذيذة هادئة ، دونها ماترى فى أمتع الأحلام .

يحرك فى صدرك ألواناً من العواطف تشعرك بأنك بت أسعد الناس . عواطف ، وإن كانت جديدة لا عهد لك بها من قبل ، سرعان مايعتريك الشعور من قرارة نفسك ، بأن هذا هو الشئ الذى طالما حاولت الاستشراف له ، فتحول بينك وبينه ظلمة النفس واختلال أداة الحس ، بما جشمتها من كلفة فى وسائل الحياة .

فاذا كانت ليالى السرار ، فالأفق كله كتلة واحدة من الفحم الحالك السواد . هيهات أن ينفذ فيه النظر ، ولو أبى فتر من الأفتار :

« ظلماتٌ بعضُها فوق بعضٍ إذا أخرجَ يدَه لم يكد يراها ، ومنْ لم يجعل اللهُ له نوراً فما له منْ نور . »(١) صدق الله العظيم .

هذا حديث موجز عن الطبيعة ماثلة فى ريف مصر . أما الحديث عن الفلاح المصرى فى هذه الأيام ، فما يردع ويهول : فقر لا يعد له فقر ، وبؤس لا يلحقه بؤس . مال غائب ، ومطالب لا تبرح

(١) سورة النور .

حاضرة . ومن أين للمسكين بالمال يواتى به بعض الحاجة أو يدافع المطالب الملحة من كل جانب ؟

هذه غلات أرضه مكدسة بين يديه ، لا يجد لها فى أسواق الأرض منصرفاً ولا مفيضاً . لقد سجنتها الحرب ، وأبطل حركتها الكساد العام .

هذا شأن ملاك الأرض ومستأجريها ، كبارهم وصغارهم فى ذلك بمنزله سواء . فكيف بالأكرة والمتكسبين بكد الأبدان ؟

أما أولاد الفلاحين ، فشخوص وأشباح بالية ، تغدو وتروح فى أسمال بالية ، تكشف من الأبدان أكثر مما تستر ، وتبدى من اللحوم ، أستغفر الله ، بل من العظام والجلود ، أعظم مما تحجب . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وكيفما كانت الحال ، فانك قل أن ترى الفلاح مع كل ذلك ، متسخطاً أو مهتاج النفس . بل إنك لتراه راضياً برغم حزنه الشديد !

ولعل مرد هذا الرضا إلى أن آماله كلها مجموعة فى أرضه . وأرضه لم تخنه ولم تخلف له موعداً . ولقد أقبلت عليه من فنون الغلات بما تقبل به كل عام . فاذا كان بؤس من أثر حصار أو كساد عام ، فذلك ما لا شأن لأرضه به على كل حال . نسأل الله تعالى اللطف بالعباد ، فهو القادر على أن يجعل لنا من هذا الضيق مخرجا ، ويبدلنا من هذه الشدة فرحاً : « فان مع العسر يسراً ، إن مع العسر يسرا » ولن يغلب عسر يسرين كما روى عن الرسول الأعظم ، صلى الله عليه وسلم .

بقى مايظن أن يتأذى به المهاجرون فى الريف من منكر الأصوات ووالله لقد رضينا أن نسمع ، عامة الليل والنهار ، نباح الكلاب ، وعواء الذئاب ، ونعيب الغراب ، وطنين الذباب ، وماشئت من نقيق ونهيق ، وثغاء ومواء ، وفحيح وخوار [١] ، على أن تعفى آذاننا من . . . صفارة الانذار !

---

(١) النقيق : صوت الضفدع ، النهيق للحمار ، الثغاء للشاة ، المواء للهرة ، والفحيح للأفعى ، الخوار للعجل .

أعظم يوم فى تاريخ العالم

لا شك عندى فى أن أعظم يوم فى تاريخ العالم على الاطلاق ، هو اليوم الذى هاجر فيه محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة . فاذا كنت فى حاجة إلى دليل ، فسيطالعك بعد قليل .

يرى المستعرض لتاريخ الأديان ودعوة الرسل أنها جازت بمراحل ثلاث ، طوعاً لتطور الانسان من البساطة والغفلة والوحشية إلى أن أصبح كفؤاً للحياة المفكرة المدبرة التى تطلب السمو ، وتنشد السعادة فى ظل الأمن والنظام .

الطور الأول : ففى الطور الأول كانت بعثة الرسل مقصورة على الدعوة إلى الايمان بالله ورسوله ، والأمر بأمهات الفضائل ، والنهى عن كبريات الرذائل ، كما كان وعيد المخالفين الكائدين وتعذيبهم وإرسال العبرة بهم بالغاً غاية الروعة فى الفتك والعصف والتنكيل.

فلقد أهلك الله قوم نوح ، بعد إذ عصوه وتحدوا دعوته ، بإغراقهم أجمعين .

قالَ تعالى : « حتى إذا جاءَ أمرُنا وفارَ التَّنُّورُ قلنَا احمِل فيها مِن كلٍّ زَوْجَينِ اثنَينِ وأهلَكَ إلا من سَبَقَ علَيهِ

القَوْلُ ومنْ آمنَ وَمَا آمنَ معَهُ إلا قَليلٌ. وَقَالَ اركَبُوا فيها باسم اللهِ مجريها ومُرْسَاها إنَّ رَبى لغَفُورٌ رحيمٌ. وَهيَ تجرى بهمْ فى موْج كالجبَالِ وَنادَى نوحٌ ابْنَهُ وكانَ فى معْزِلٍ يَا بُنيَّ اركَبْ معَنَا وَلا تكنْ مَعَ الكافرينَ. قَالَ سَآوِى إلى جبَلٍ يَعْصمُنى منَ الماءِ. قَالَ لا عاصمَ اليَوْمَ منْ أمرِ اللهِ إلا منْ رحمَ، وَحالَ بَيْنَهُمَا المَوْجُ فكانَ منْ المغْرَقِين.» (١)

ومن هؤلاء المخالفين من أهلِكوا بالريح العاصفة.

قال تعالى: «وأما عادٌ فأهلكوا بريح صرصرٍ عاتيةٍ، سخّرها عليهم سبعَ ليالٍ وثمانيةَ أيام حسوماً، فترى القومَ فيها صرْعى كأنهم أعجاز نخلٍ خاوية. فهل ترى لهم من باقية.» (٢)

وقال تعالى: «كَذَّبَتْ عادٌ فكيف كان عذابى ونُذُرِ. إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً فى يوم نحسٍ مُسْتَمِر. تنزع الناسَ كأنهم أعجازُ نخلٍ منقعر. فكيف كان عذابى ونُذُرِ.» (٣)

وأما ثمود فأهلكوا بالصواعق والزلازل.

قال تعالى: «فأخذتْهمُ الرَجْفَةُ فأصبحوا فى دارهم جاثمينَ.» (٤)

---

(١) سورة هود. — (٢) الحاقة. — (٣) القمر. — (٤) الأعراف.

وقال تعالى : « وأخذ الذين ظلموا الصيحةُ فأصبحوا فى ديارهم جاثمين . كأن لم يغنَوا فيها . »(١)

وقال تعالى: « وفى ثمودَ إذ قيلَ لهم تمتعوا حتى حينٍ . فعتَوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقةُ وهم ينظرون . »(٢)

أما قوم لوط فانظروا ماذا أخذوا به من العقاب الشديد .

قال تعالى : « فلما جاء أمرُنا جعلنا عاليَها سافِلَها وأمطرنا عليها حجارةً من سجّيلٍ منضودٍ . مسوَّمةً عند ربك وما هِيَ من الظالمينَ ببعيد . »(٣)

وقال تعالى : « فأخذتهم الصيحةُ مشرقين . فجعلنا عاليَها سافلها ، وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل. إن فى ذلك لآيات للمتوسمين . »(٤)

ونكتفى بهذا القدر اليسير فى الاستشهاد بما كان يؤخذ به العصاة الكائدون من ألوان العصف والخسف والتنكيل والتدمير .

وقبل أن نتحول إلى الحديث فى الطور الثانى نرى من الخير أن ننبه إلى أن انقسام التاريخ إلى مراحل أو أطوار ، ليس معناه أن مرحلة تبدأ من حيث تنتهى سابقتها على الضبط والتحديد ، ولا أن

---

(١) سورة هود . — (٢) الذاريات . — (٣) هود . — (٤) الحجر .

التطور من حال إلى حال يحدث دفعة واحدة ، بل إن المراحل ليتداخل بعضها فى بعض كما أن التطور لا يكون إلا بالتغير من طرفيه جميعاً بالنقص من هذا أو بالزيادة من هذا ، حتى يتلاشى القديم ويحل محله الجديد ، وهكذا . وكذلك يكون التطور فى كل شئ فى هذا العالم .

الطور الثانى : أما الطور الثانى فمن أظهر مظاهر الترفق بعض الشئ فى النذر ، والتخفيف فى فنون العقوبات وسعة الدعوة وتبسط التشريع ، سواء فى العبادات أو فى المعاملات بين الناس . وفى هذا الطور أيضاً كانت تعتمد الدعوة ، بقدر كبير ، على التحدى بالمعجزات حتى لقد انتهى هذا الطور بكف العقوبات وتفرد المعجزات .

أما الترفق فى النذر والتخفيف فى ألوان العقاب ، فلقد كان هذا التخفيف يتناول الكم أو الكيف أو يتناولها جميعاً .

قال الله تعالى : « ولقد أخذنا آلَ فرعونَ بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون . »

إلى قوله : « فأرسلنا عليهمُ الطوفانَ والجرادَ والقملَ والضفادعَ والدمَ آياتٍ مفصلاتٍ فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . ولما وقعَ عليهمُ الرِّجزُ قالوا يا موسى ادعُ لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجزَ لنؤمننَّ لك ولنرسلنَّ معك بنى إسرائيل . فلما كشفنا عنهم الرجزَ إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون . »(١)

---

(١) سورة الأعراف .

وقال تعالى : « ولقدْ أوحينَا إلى موسى أن أَسْرِ بعبَادى فاضربْ لهمْ طريقاً فِى البَحر يَبسًا لا تخافُ دَركاً وَلا تخشى . فأتبعهمْ فرعونُ بجنوده فغَشِيَهمْ من اليمّ ماغشيهمْ . وأضلّ فرعونُ قومَهُ وما هَدَى . »(١)

فأنت ترى أن ما أصاب آل فرعون من الجدب ونقص الثمرات وما أرسل عليهم من الطوفان والجراد الخ لم يبلغ من الشدة والروع بعض ما يبلغ العصف والدمدمة والخسف والتدمير . أما إغراق فرعون ومن اتبع بنى إسرائيل من جنده فلعصمة الفارين من كيدهم وبطشهم ، والأمر لا يعدو هنا وقع الأذى على كل حال . على أن عددهم بالنسبة لجمهرة الكافرين الكائدين جد قليل. وأما المعجزات فحسبك منها معجزات موسى عليه السلام إذ ألقى عصاه فاذا هى حية تلقف ما يأفك الساحرون ، وإذ ضرب بها الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عيناً ، وإذ ضرب بها البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم .

وحسبك منها معجزات عيسى عليه السلام .

قال تعالى : « ورسولاً إلى بنى إسرائيلَ أنى قد جئتُكم باية من ربكم أنى أخلقُ لكم من الطينِ كهيئة الطيْرِ فأنفخُ فيه فيكونُ طيراً باذن الله وأبرئْ الأكمَهَ والأبرصَ وأحيي الموتى بإذن الله ،

---

(١) سورة طه .

وأنبّئكُم بما تأكلونَ وما تدخرونَ فى بيوتكم ، إنَّ فى ذلك لآيةً لكم إن كنتم مؤمنينَ . »(١)

الطور الثالث : وبعد فان بمعجزات عيسى عليه السلام قد ختم هذا الضرب من الخوارق التى تجرى على أيدى الرسل ، يتحدون بها المخالفين المعاندين ، ويثبتون بها أن ماجاءوا به إنما هو من عند الله . وكيف لا وقد أيدهم منها بما يخالف سنن الكون ونير على طبائع الخلق !

أما بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، ففوق أنها تشارك بعثة عيسى عليه السلام فى تجردها من الأحداث التى مرَّ بك بعض وصفها ، فلا عصف ولا خسف ، ولا رياح عاصفة ، ولا زلازل مدمدمة ، ولا شئ من هذا ولا ما دونه مما يزعج النفوس ويدخل الرّوع على القلوب . فان معجزة محمد صلى الله عليه وسلم تمتاز بأمرين : الأول أنها لا خلاف فيها لسنن الكون ولا مغايرة فيها لطبائع المخلوقات . والثانى أنها باقية مستمرة لا تنقطع على طول الزمان . وقد عرفت من غير شك أن هذه المعجزة هى « القرآن » .

وكذلك جعلت الدعوة الآلهية تتطور وتنمو بتطور الإنسانية ونموها على الأحقاب .

إذاً لقد نضجت الإنسانية أو أصبحت على وشك النضوج وإذاً

---

(١) سورة آل عمران .

لقد تجاوز الانسان طور القصر وبلغ الرشد أو أضحى على شرف البلوغ .

لقد أضحى الانسان حقيقاً بأن يرفع عن نفسه الحجر ، وتطلق له حرية التصرف فى استئنافه مناهج الحياة . إذ قد تهيأ له لو فكر وتدبر ، أن يعرف ماينفعه وما يضره، وما يسيئه فى حفاية ومايسره، وأن يميز بين مايسعده وما يشقيه ، وما يعزه وما يرديه . فاذا اختلط عليه الأمر أو نزعت به العادة إلى الهوى ، نبّه ذهنه ، وحرك فكره ، وضربت له الأمثال ، وأقيمت له الحجة يصول بها العقل كلَّ مصال .

« لا إكراه فى الدين قد تبيّن الرشدُ من الغيّ »(١)

« أوَ لمْ يَنظروا فى ملكوت السموات والأرضِ وما خَلقَ اللهُ من شئ ، وأن عسَى أن يكونَ قدِ اقتربَ أجلُهم فبأىِّ حديثٍ بعده يؤمنون . »(٢)

« أفلا ينظرونَ إلى الإبل كيفَ خلقتْ . وإلى السماء كيفَ رُفعَتْ . وإلى الجبال كيف نُصِبَت . وإلى الأرض كيف سُطِحتْ فذكر إنما أنت مذكرٌ . لستَ عليهم بمسَيْطر . »(٣)

وهذان مثلان مما لا يدركه الحصر مما ورد فى القرآن الحكيم .

(١) سورة البقرة . — (٢) الأعراف . — (٣) الغاشية .

هذه دعوة محمد ، وقد رأيت أن ما سبقها من دعوات الرسل إنما كان مقدمة لها وطريقاً إليها .

هى الدعوة التى تسعى بالإنسانية إلى غاية كمالها من طريق إيقاظ العقل ، والفسح فى حرية الفكر ، والتى تسعى بالإنسان إلى غاية سعادته من طريق اعتناق الفضائل والتجرد من الرذائل . فيكظم الشهوة ، والعفة والرحمة ، والإيثار ، تستطيع هذه المجموعة البشرية أن تعيش على الأرض ناعمة بالرغد والدعة والسلام . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق. »

ولقد دعا محمد صلى الله عليه وسلم أول ما دعا ، أهله وعشيرته من قريش فكذبوه وشاقوه وآذوه وأسرفوا فى الكيد له والعنت عليه . وكيف له باستعانتهم على بث دعوته ، ونشر رسالته التى أرسل بها للعالمين ، إذ هم أشد من كفر بها وصد عنها ، وبغض فيها ونفر منها ؟

ولكن يأبى الله إلا أن يتم نوره . فلقد أسلم أهل يثرب وآمنوا بالله ورسوله ، وأعدوا أنفسهم للذياد عن دينه مهما جشمهم الأمر من التضحية فى سبيل الله بالأموال والأنفس والأولاد . هذا شعب قوى بعدده ، قوى ببسالته ، قوى بإيمانه . يدعو الرسول ليتسلم زمامه ، ويتولى قياده ، ويثبت من الإسلام دعامه ، ويرفع أعلامه، ويبسط فى الأرض حكمه وأحكامه . وكذلك يهاجر محمد فى سر من معشره العاتين إلى المدينة حيث يعز الله الدين ، ويذل الشرك ، ويفتح الله لنبيه الفتح المبين ، وينصره النصر العزيز .

وتعلو كلمة الاسلام فى العالم ويسود حكمه أقطار الأرض ثم لا يمضى أكثر من قرن ونصف قرن حتى ينشئ بفضل تحكيم العقل وإطلاق حرية الفكر أزهى حضارة عرفها التاريخ تجود فى ظلها القرائح بأجدى العلوم وأندى الفنون ، مما لا تزال آثاره ، ولو على أيدى غير أهله ، ثابتة على وجه الزمان !

أرجو أن تكون أنت أيضاً قد آمنت بأن يوم الهجرة هو أعظم يوم فى التاريخ .

فى الهجرة

بين الحق والقوة

قصة ، وهى أضخم قصص الحياة جميعاً ، لأنها تروى أضخم أحداث التاريخ جميعاً . على أنها قصة لم يلفقها الخيال ، ولم يبتكر لها الأبطال ، ولم يخترع لها الوقائع إختراعاً ، ولم يبتدع لها النتائج ابتداعاً ، ومع هذا فهى أجمل ما روى أصحاب القصص وأبدع ، وأفخم ماحاك خيالُ الروائيين وأروع . هى قصة إذا لم تكن من نسج الخيال ، فان الحقيقة فيها قد سمت على محلق الخيال !

هى شئ لولا أنه وقع ، لما صدق أحدٌ أنه يقع ، ولولا أنه كان ، لما ارتاب أحد فى أنه لا يمكن أن يكون . ولقد جرت حوادث هذه القصة فى صدر القرن السابع لميلاد المسيح عليه السلام . وأما موضوعها فالصراعُ بين الحق والقوة ، وأماكنها فمكة فبيثربَ ثم مكة. وأمابطلها فمحمد بن عبد الله. وأما أشخاصها فصحبه من ناحية ، وقبائل قريش من ناحية أخرى .

هى قصة طويلة جداً ، فقد استهلكت حوادثها العنيفة الرائعة نيّفاً وعشرين سنة . وهى مبسوطة مفصلة فى كتب التاريخ وفى كتب السيَر. وما كنت لأطمع ، بالضرورة ، فى أن آتى عليها فى

مثل هذا المقال . على أن فى تلخيص الملخصين لها ، مادعت المناسبات ، الغنى والكفاية .

على أننى اليوم متعمد بعض مواقفها التى أرى فيها أشد مواطن العبرة ، وخاصة مايومئ منها إلى ما يجوز بالعالم فى هذه الأيام. فلعل فيه قدوة لقوم يتفكرون .

إذاً فلا بد من قتله ، وعلى ذلك اجتمعوا ، لم ينشز منهم على هذا الرأى أحد .

ثلاث عشرة سنة مضت وهو لا يفتأ يوالى إيذاءهم وإضرام الغيظ فى صدورهم بتقريعهم وتسفيه أحلامهم ، وتهاون دينهم ، والزراية على آلهتهم ، ودعوتهم ، فى غير فتور ولا وناء ، إلى الالتفات عما وجدوا عليه آباءهم وأباء آبائهم ، مما استولى منهم على مجامع الشعور ، وملك عليهم أقطار الفكر ، وجرى فى الأعراق مجرى الدم ، إذ هم قوم غلاظ ، شداد الطبع ، تعميهم الأنفة والحفاظ فلا يهتدون بين يديهما طريقاً !

فلما رأوا أن عمه وكافله قد حدب عليه وقام دونه ، فلم يسلمه لهم ، مشى رجال من أشرافهم إليه فقالوا : يا فلان إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فاما أن تكفه عنا وإما أن تخلى بيننا وبينه .

ثم إنهم مشوا إليه مرة أخرى فقالوا له : يا فلان إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبر على هذا ، من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ،

وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين ، ثم انصرفوا عنه .

فلما قالوا له هذه المقالة ، بعث إلى ابن أخيه فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا ، للذي كانوا قالوا له ، فأبق عليّ وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق .

فظن هو أنه قد بدا لعمه فيه بداءٌ ، أنه خاذله ومُسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام معه ، فقال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته . (١)

نعم ، لقد طالما آذوه ، بعد ذلك ، وأسرفوا في الأذى ، وكادوه وأمعنوا في الكيد له ، وأذكوا عليه من يسبّه ، وتارة من يؤذيه في بدنه ، ومن يُلوّنَ للمستضعفين من صحبه العذاب تلويناً ، فما زاده كل ذلك إلا إمعاناً في الدعوة ، وإيغالا في التحدى ، وشدة الدأب على ما وجه إليهم ، وتقريعهم على انصرافهم عنه ، ونفورهم منه ، وعدم أخذهم به ، وعلى صدهم عن سبيله .

لقد أعجزهم أمره حقاً ، ولم يغن شئٌ من ذلك كله في كف دعوته والحد من سعيه ، فكيف الحيلة فيه ، وكيف السبيل إليه ؟

إذاً لم يبق بدٌّ من قتله والخلاص منه ، على أن قتله ليس بالأمر

---

(١) رواه ابن إسحاق.

اليسير ، فللرجل ، وإن قام بدعوته فرداً ، أهلٌ وعشيرة ؛ وهؤلاء الأهل والعشيرة هم فى الجبهة من الأمة لجلالة موضعهم ، وشرف أحسابهم ، وضخامة ماضيهم ، إلى مالهم من عز ومنعة ، وما فيهم من بأس وقوة . وإذا كانت كثرتهم الكثيرة لم تستجب لدعوته ، ولم تصغ لدينه ، فان لهم حفاظاً ، وفيهم عصبية تتعالى بهم عن أن يُقتل رجلٌ منهم ، مهما يكن سبب قتله ويكن بأس قاتله ، وهم قيام ينظرون . فهم ، ولا ريب ، آخذون بثأره لا يقتل قاتله وحده ، بل كل من يقع بين أيديهم من أهله ومعشره الأقربين والأبعدين . وقد يتعصب لهذا القبيل قوم ، ويتعصب لهذا القبيل قوم ، فتكون الفتنة لا يخمد لها ضرام ، أو تأتى على اليابسة والخضراء !

فلتشترك جميع عشائر الشعب إذاً فى قتله واحتمال وتره ، فلا يقوى معشره ، مهما يكن لهم من العزة والبأس ، على أن يقاتلوا الشعب كله ، وكذلك أخرج كلُّ قبيل لقتل البطل ، فتى من أقوى فتيانه ، وأشدهم بأساً ، وتواعدوا باب داره إذا كان السحر .

ويجيئه الخبر بما ائتمر القوم . ولكن من أين جاءه؟ هذا ما لا يعلم به أحد !

ثم يخرج من داره وهم وقوف ، ويسرع إلى التوارى فى دار صاحبه فيفوتهم دركه ، ولو قد أرخى زمام إرادته لشجاعته لثبت لهم وقاتلهم ، فقتل منهم ، على الأقل ، قبل أن يقتل ، فلقد كان أشجع الناس ؛ ومن كان هذا شأنه لا يهاب الموت ، ولا يخشى من أى ناحية أصابه . ولكنه يعلم أن له فى هذه الحياة مهماً لا يقوم به أحد من العالمين .

وتمت بهجرته إلى البلد الذى سبقت كثرة أهله إلى اعتناق ما دعا إليه ، والذى يعلم أنهم معزوه وناصروه ، ومؤيدو دعوته ، مهما يجشمهم من التضحية بالأنفس والأموال .

ولم يمض أكثر من عشر سنين حتى يرى البطل على رأس جيش لجب لا يدرك الطرف آخره ، فى طريقه إلى البلد الذى خرج منه ذلك المخرج الرهيب !

و إذا لقوم لا يقاتلون ، ولا يجمعون نية على النضح عن الوطن ، ولا الذياد عن الحريم ؛ بل إنهم ليسلمون ، ويسألون صفحاً كريماً من مالك كريم . فسرعان ما يسجح ويعفو ، ويهيب بالمغلوبين المقضى عليهم : « اذهبوا فأنتم الطلقاء ! »

ولقد عرفت أن هذا البطل الأعظم هو محمد صلى الله عليه وسلم ، وبجل وعظم ، وشرف وكرم ، وأما عدوه المقاتل لدعوته ، الصارف بكل حوله من دينه ، فشعب قريش كله . وأنت خبير بما لهذا الشعب من قوة وبأس ، ومن أنفة وحفاظ .

وبعد ، فإن من ينظر إلى تلك البداية ، ثم يثب ذهنه إلى هذه النهاية ، ليكاد تتفرق نفسه من الحيرة ، وتطير من العجب كل مطير !

ولكنه الصبر ! الصبر الذى يغذوه الايمان بالحق . وما دام الايمان بالحق قوياً ، فقد هان لقاء أشد الشدائد ، ومعاناة أهول الأهوال . ولا تزال هذه الشدائد ، فى قتالها للحق والصبر ، تضعف

وتتضاءل ، على الزمن ، رويداً رويداً ، حتى تلقى السلاح ، وتسلم أمرها لعدوها وأنفها فى الرغام !

ومما يسترعى الانتباه أن الكتاب العزيز لم يحض على خلة قدر ما حض على الصبر ، فلقد دارت هذه الكلمة ومشتقاتها فيه أكثر من مائة مرة ، وهذه سيرة محمد صلى الله عليه وسلم ، خير مصداق لما يدعو إليه القرآن العظيم .

وبعد ، فليت هؤلاء الذين غصب عليهم حقهم ، والذين خرجوا أو أخرجوا ظلماً من ديارهم ، ليتهم يبنون أنفسهم على الصبر ، ويروضونها على شدة الاحتمال فى سبيل الحق . ففى حديث الهجرة أصدق الخبر ، وفيه أحسن العظات وأبلغ العبر .

خواطر تلهمها ذكرى الهجرة

ليس ما يضرب فيه القلم اليوم بحثاً قامت فى الذهن حدوده ، وبانت طرقه ، واتضحت معالمه ، واستشرفت مقدماته لنتائجه . إن هى إلا خواطر تجول بها ذكرى الهجرة الشريفة . هى خواطر تتوالى على النفس كما توالى مناظر الخيالة (السينما) فى جريدة الأخبار مثلا . على أنها قد تجئ بحكم تداعى المعانى ، وبحكم أضعف المناسبات ، وأدنى الملابسات

وبعد ، فليس من شك فى أن مما يستدعى العجب ، بل مما يكاد يستهلك كل العجب ، شأن أولئك العرب إلى آخر جاهليتهم ، وما صاروا إليه بعد إسلامهم بيسير من الزمان :

لقد كانوا ، فى جملتهم ، قوماً أميين جهالا ، لم تفتتح عيونهم على علم ، ولم يتذوقوا فناً ، اللهم إلا فن الكلام ، وهو غير مغن فى قيام الأمم إذا أغنى إلا قليلا .

لقد كانوا جاهليين حقاً لا يرتبطهم بأى لون من ألوان الحضارة أى سبب ، ولا تنفذ عقولهم إلى شئ مما وراء تلك البوادى التى يسكنون ، حتى لو اضطربوا فيما يجاورهم من البلاد التى أخذت بحظ من الحضارة ، بحكم التجارة ونحوها ، رجعوا إلى قومهم وكأنهم

ما كان على ما كان — إن كنت ناقلا فالصحة ، وإن كنت مدعياً فالدليل — ما جاء على أصله لا يسأل عن علته — لا اجتهاد مع النص — الاعتراف حجة قاصرة — اليد دليل الملك — المعروف عرفاً كالمشروط شرطاً — ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . . . الخ

ولعمرى لم يكن كل هذا الابداع والابتكار أثراً لدرس مدرس أو تقليب للفكر فى كتاب مكتوب ، إن هو كما قلنا من فضل سلامة الفطر ، وحدة الذكاء ، وصحة التفكير .

وإذا كان علماء العرب قد نقلوا بعد ذلك علم المنطق إلى لغتهم عن اليونانية ، فانهم سرعان ما أجالوا فى قضاياه هذه الأذهان الحادة وأراقوا عليها تلك الأفكار الخصبة ، فابتكروا ما ابتكروا ، واستحدثوا ما شاء الله أن يستحدثوا ، طلباً لوفاء هذا العلم على الغاية من الهداية إلى صحة التفكير ، وابتغاء النتائج الحق من صحاح المقدمات .

ثم لم يكفهم هذا ، فلقد نقلوا عن اليونانية أيضاً علم « آداب البحث والمناظرة » وغاية هذا العلم تنظيم وسائل المجادلة بين المتجادلين ، والتزام كل من الطرفين حدة فى الخصام ، وبيان الطرق للإدلاء بحجته ، أو إدحاض حجة خصمه . وكذلك تضحى المناظرة مجدية منتجة ، تظهر الحق على الباطل بقيام الحجة الواضحة غير مضيعة بين سفسطة ومهاترة ، أو نقل لموضوع النزاع ، على أن العرب كذلك قد طبعوه بطابعهم ، وأفاضوا عليه من سابغ تفكيرهم ، ووصلوه بفنونهم ، وأجروا فيه الأمثلة والشواهد مما يعرض لما يعالجون من العلوم .

أما وقد عرضنا للقضايا المسلمة ، وللمنطق ، ولآداب البحث والمناظرة ، فقد حق علينا أن نقف وقفة قصيرة لعلنا نرفه بها عن القارئ بعض الترفيه .

لا غرو علىّ إذا زعمت أن تسعين فى المائة ، إن لم أقل تسعة وتسعين فى المائة ، من المناقشات والمجادلات التى تدور بيننا ، نحن المصريين ، سواء أكانت باللسان فى المجالس الخاصة ، أم بالقلم فى الصحف السيارة ، لا يمكن أن تنتهى بالتسليم من أحد المتحاورين . ذلك بأننا ، حتى الكثير من متعلمينا ، قل أن يعنوا فى جدلهم بترتيب المقدمات المنطقية الترتيب الذى يفضى بها ، فى صحيح القياس إلى النتائج الصحيحة . ولقد يدفعنا الحفاظ للنفس ، والرغبة فى الفلج والخصم إن تنكر القضايا المسلمة . أما نقل موضوع النزاع ، إذا سطت بنا حجة الخصم ، فهذا ما يقع عندنا بغير حساب !

ودعنا الآن من المجادلات العلمية أو الفنية ، وخذ بنا فى ألوان الحوار التى تجرى كل ساعة بين الأصدقاء وغير الأصدقاء .

يقول لك فلان إن فلاناً صنع كيت وكيت مما يتعاظمك ويروعك لضخامته أو لتعذر أسبابه ، فاذا باديته ولو بالشك فيما يزعم ابتدرك بقوله : « وليه لأ ؟ » كأن الأصل أن تضاف إلى الناس الأفعال أو الأقوال ، وعلى المنكر أن يقيم هو الدليل على العكس ، أى العدم أو استحالة الوقوع ، ناسين أبسط القضايا وأوضحها « البينة على من ادعى ! »

ويقول لك آخر إن فلاناً يرتكب كذا وكذا من المؤثمات

فاذا أنكرت منه هذا القول قال فى غير ورع ظاناً أنه يقيم الحجة عليك : كيف وأنا أقارف معه تلك المؤثمات ؟ وقد فاته أن الاعتراف حجة قاصرة على النفس ، فاذا أشرك الغير كان دعوى تحتاج إلى دليل !

ولقد تروى ، فى بساطة ، ما انتهى إليك من خبر نشرته إحدى الصحف ، أو جعلت تردده المجالس من أن فلاناً اتهم فى كذا ، فيبادرك رجل من شيعته طبعاً : حضرتك مبسوط من كده ؟ . . . وترى أن الخبر قد التبس على الغبىّ بالأمنية ، اللهم إلا أن يكون فاسد الضمير فاجرَ النية ! . . .

ومما يضحك ويبكى نقل موضوعات النزاع ، إما فراراً من لزوم الحجة ، أو طلباً للكيد والأذى ، أو جهلا وشدة غباء .

وأذكر نموذجاً واحداً مما وقع لى فى هذا الباب على جهة التمثيل أيضاً . ولم يكن ثمت موضع نزاع ، بل كان هناك سؤال استحال فى غير موجب إلى نزاع : من بضعة أيام طلبت عيادة طبيب الأسنان ، ليخلع ضرساً ألح على ألمه ، وورم لى صدغى . . . وبينا أنا فى غرفة الانتظار ريثما ينتهى الطبيب من علاج من تقدمنى ، إذا رجل حسن السمت ، أنيق البزة ، ويبدأ بالتحية ، فأردها بأحسن منها . . . وما يكاد يأخذ مجلسه حتى يطارح الحديث كعادتنا نحن المصريين إلى من نعرف ومن لا نعرف . فماددته الحديث على ما بى . فى الأسباب العامة طبعاً . ومن حديثه أدركت أنه رجل مزخرف الثقافة مذوّق اللسان ؛ ثم إذا هو يفاجئنى بهذا السؤال : حضرتك من أهل الريف ؟

فأجبته من فورى : لا يا سيدى ، فأنا مولود فى القاهرة ، وما زالت سوطنى إلى الآن. فرد على فى ثورة عنيفة : ليه هيه العيشة فى الريف وحشه ؟

لقد ثار ثائرى ، ونهضت لتوى ، وخرجت مسرعاً إلى دارى ، مؤثراً وجع الضرس وضرباته على هذا اللون من الحوار !

إذاً ، لقد كان علىّ أن أخلق قبل أن أُخلق ، وأن أولد قبل أن أُولد ؛ حتى إذا بلغت سن التمييز فى النشأة الأولى ، كان على القدر ، أن يخيرنى الولادة فى الريف والحضر ، فأختار أول الأمرين ، ثم أتبخر فى الأثير، ثم أبعث فى الريف من جديد ! وإلا كنت امرأً آثماً يستحق اللوم والتأنيب !

وبعد هذه الوقفة المريحة ، أو المتعبة المعنية ؛ نرجع سياقة الحديث على اسم الله :

لقد اقترنت عناية السابقين فى الاسلام بعلوم الدين ، بعناية غيرهم بعلوم اللسان ، من نحو وصرف وأدب وبيان . وذلك لأنها الوسيلة إلى فهم لباب الدين .

وفى أعقاب هذا أو على الأدق فى أثنائه ، التفت مفكرو العرب إلى المنطق ، على أنه مما ينظم الفكر وييسر الطرق لاستنباط الأحكام الشرعية على الوجه الصحيح ، ثم اتجهوا كذلك إلى نقل قوانين البحث والمناظرة على ما تقدم به الكلام .

لم يمنع اشتغال مفكرى العرب بهذا وهذا وذلك من أن يلتفتوا إلى علوم الدنيا من رياضة وهندسة وطب وفلك وغيرها . فسرعان

ما جادوا وما برعوا ، وسرعان ما أجلوا ووسعوا ، وما ابتكروا وما اخترعوا . . . ولم ينسلخ من الزمن غير يسير بالاضافة إلى أعمار الأمم ، حتى صارت هذه العلوم إليهم وكادت تقطع صلتها بغيرهم ، فأصبحوا هم المتحدثين فيها ، والمتحدثين عليها بين أمم الأرض جمعاء ، وكذلك أنشأوا أجمل حضارة وأزكاها فى هذا العالم !

فاذا تعاظمتك تلك النهضة فى مثل ذلك الزمن ، فان مما يدفع عنك العجب أنه قد لاقت تلك الفطرة العربية دين الفطرة . . . دين صاحب الهجرة .

يُسر الاسلام

لقد يملك كثرة الناس العجب من تمام عظمة الاسلام فى هذا الصدر اليسير من الزمن وبلوغه ما بلغ فى غير عنف ولا مطاولة يكافئان هذا المجد كله ولا معظمه .

ولست الآن بصدد ترديد ما أثر التاريخ ، ولا دوّن المؤرخون فى فتوح الاسلام وانتشاره السريع العجيب فى قواصى الأقطار وأدانيها، وما كان لأهله فى كل مكان من منعة وعزة وسلطان ، فذلك شئ قد فاضت به الكتب ، واحتفلت بتفصيله الأسفار الضخام ؛ وبحسبى — فيما جردت له هذا الكلام القصير — أن ألفت القارئ إلى أن أمة بادية جاهلة صائلة يكون منها فى هذا الزمن ما كان من العرب بفضل الاسلام . هذا فتح ، وهذه سيادة ، وهذا تعمير وتثمير ، وهذى علوم وفنون وصناعات ، وهذى حضارة لا تتعلق بأذيالها أعلى حضارات التاريخ !

لعمرى ما هذا كله ؟ وكيف كان ؟ وكيف تأتى بهذه السرعة لدولة الاسلام ؟

اللم إن أوثق يقينى أن مرجع هذا أجمعه إلى ما فى هذا الدين من يسر عظيم .

الدين يسر ، وبفضل هذا اليسر كان من دولة الاسلام ما كان !
ستقول : إن الاسلام ما ساد إلا لأنه حق ، وأقول لك : وهل ثمة أيسر من الحق أو أعسر من الباطل ؟ ومتى احتاج الحق فى تجليته إلى عنف أو إلى جهد ؟ إن الباطل هو الذى يحتاج إلى هذا وهذا ، وقل أن يثبت له معهما قرار !

وإذا قيل إن الاسلام دين الفطرة ، فمعنى هذا أنه دين اليسر ، لأن ما جاء على حكم الفطرة لا عسر فيه ولا مشقة . أما ما جاء على جهة التكلف والتصنع فذلك الذى يقتضى كثيراً أو قليلا من الجهد والعناء .

الدين يسر ، وإن هذا اليسر ليغمره من جميع أقطاره . أرأيت أيسر من دعوته « لا إلٰه إلا الله ، محمد رسول الله » .

وأى شيء لعمرى فى هذه الجملة ينشز على الفهم ؛ بل أى شئ فيها يتعثر فيه الذهن وتضيق عنه مساحة أدنى التفكير ؟

هذا اليسر فى هذا الحق الذى ليس وراءه حق ، هو الذى سلك أقطار الأرض بدعوة الاسلام ، واستفتح لها قلوب الأمم والجماعات فى غير علاج ولا استكراه ؟

هذه الدعوة اليسيرة الواضحة لقد تغنت بنفسها عن العنف والاضطرار : « لا إكراه فى الدين قد تبيّن الرشدُ من الغى » (١) . بل لقد استغنت عن استدراج الناس بفنون الاغراء والاستهواء .

---

(١) سورة البقرة .

وهذه تكاليف الاسلام ، ما قامت فيها مشقة إلا قامت بازائها رخصة ؛ ولا كان فى أحدها على أحد عسر إلا ذلل بين يديه طريق العذر ، وهل بعد ذلك اليسر كله يسر ؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » ،

وقال تعالى فى كتابه الكريم : « وما جَعَلَ عليكُمْ فى الدِّينِ من حرجٍ »(١) صدق الله العظيم .

لم يقتض الاسلام أحداً احتمال مالا طاقة له باحتماله ، فهذه تكاليفه ، من استطاع القيام بها ، وإلا تخفف منها فى حدود أحكام الشرع الكريم ، حتى تكافئ طاقته ، ويتسع لها ذرعه ، ولا يتحرج بها وسعه ، مقبولا عذره ، مكفولا عند الله أجره .

ولعل من الخير أن أنبه فى هذا المقام إلى شئ حقيق بالانتباه : ذلك بأن من القواعد المسلمة أن الضرورات تبيح المحظورات ، « فمن اضطُرَّ غيرَ باغٍ ولا عادٍ فلا إثمَ عليهِ »(٢) فالتفريط فى غير ضرورة ، والتخفف من أحكام الشرع من غير داع جدى إثم من الآثام . ومن القواعد الأصولية المقررة ، إن الضرورة تقدر بقدرها ، ولا شك بعد هذا فى أن تتبع الرخص وتلمس المعاذير إنما هو ضرب من الاحتيال للتهرب من تكاليف الدين وهيهات لا ينطلى على الله محال !

ومن يسر هذا الدين أنه لم يقم بينك وبين ربك أية واسطة .

---

(١) سورة الحج . — (٢) البقرة .

وليس من شك فى أن ما تستطيع تناوله إلا بواسطة غيرك . فاذا زلت بك القدم ، وقلبك الشيطان فى المنكر ، أقبلت على ربك ، وسألته قبول توبتك ، والعفو عما أسلفت من ذنبك ، مطمئناً إلى « إن الله يغفر الذنوب جميعاً » (١). ليس بك حاجة إلى من يمهد بين يديك سبيل المعذرة ، ولا من يعانى لك استخراج العفو والمغفرة .

وبعد ، فان من يسر هذا الدين شدة تسامحه ، ولا يذهب عنك أن هذا التسامح إنما كان من أبلغ الأسباب فى عظمته .

لا يدعوك الاسلام إلى كراهة ما يصدر عن مخالفك فى الدين لأنه يخالفك فى الدين ، بل يدعوك إلى أن تكره منه ما يكره ، وتقر منه ما يحب ويؤثر ، فهو وأخوك المسلم فى هذا بمنزلة سواء .

ولقد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس جبة رومية .

وقال تعالى فى كتابه الكريم : « وطعامُ الذين أوتوا الكتابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لهمْ . »(٢)

ولا ريب فى أن لهذا ولهذا دلالة كان لها أعظم الآثار فى نهضة الاسلام !

لم ينفر المسلمون من مخالفيهم فى الدين ولا فى الجنس ، ولم يحجز بهم تعصب عن مخالطتهم والاتصال الوثيق بهم ، والانتفاع بكفاياتهم

---

(١) سورة الزمر . — (٢) المائدة .

والأخذ عنهم . ولم يكد يستقيم أمر الملك لهم حتى أقبلوا على علوم من سبقوهم فترجموها إلى لغتهم ، وجعلوا يتردونها ويشيعون الأذهان فيها ، ويطبعونها على غرار عقولهم ، و يزيدون فيها ما فتق الرأى والذكاء لهم . كذلك كان شأنهم فى الفنون ، فقد حذقوها أتم الحذق ، و برعوا فيها أعظم البراعة ، وأداروها على أذواقهم ، حتى اتسق لهم منها فن خاص ؛ وناهيك بالفن العربى الذى ما برحت آياته مسطورة على جبين الزمان .

أرجو أن تكون قد اطمأننت بعد هذا ، إلى أن اليسر فى الاسلام، كان من أبلغ الأسباب فى عظمة الاسلام .

فى الحروب

بماذا كان ينتصر الاسلام

ما وقع حدث من أحداث هذه الحرب ، وخاصة فى ألبانيا التى أصبحت معتركا حامى الوطيس ، بين دولة صغيرة ، قليلة العدد ، قليلة العُدد ، ضئيلة الموارد كل همها من العيش أن تحظى داخل حدودها بالأمن والسلام ، قانعة باليسير مما أفاءت عليها الطبيعة ، وما يعالجه أبناؤها النشيطون من فنون الصناعات ، وما يرجونه إلى أسواق العالم المختلفة من ألوان التجارات ؛ لها من كل أولئك مقنع وليس لها فيما وراء، أى مطمع ، فاذا كان لها جيش أو كان لها أسطول فبقدر ما تؤمن الحدود وتمنع الثغور ، ولو إلى حين . أما الطرف الثانى من هذا المعترك فدولة عظيمة ، قوية بعَددها ، قوية بعُددها ، قوية بصناعاتها وبتجاراتها ، قوية بمستعمراتها الواسعة الشاسعة التى ضمنت أرضوها من الكنوز المعدنية ما يغنى فى كل شئ من أسباب الحياة القوية الفنية ليس أعز منها فى هذا العالم حياة . ومع هذا فاننا نرى أن هذه الدولة الصغيرة الدقيقة فى كل شئ ، لا تفتأ تضرب هذه الدولة العظيمة الضخمة فى كل شئ ، كلما طلعت الشمس ضربة وتركلها كلما غربت الشمس ركلة ، وبين ذلك لا تفتأ فى كل ساعة تجرعها

من الصاب والعلقم مايفرى الحناجر ، ومن الغسلين ما يذيب الأحشاء . وتلون لها من الإهانات ما أجراها مثلاً للخزى على ألسن العالمين .

لعمرى ما وقع حدث من هذه الأحداث إلا أذكرنى سير العرب السابقين وأحضرنى شأنهم فى فتوحهم ومغازيهم . فلم يكن هؤلاء فى الأكثر الأغلب أكثر من عددهم عدداً ، ولم يكونوا كذلك أقوى منه عدداً ، ولم يفوقوه فى تنظيم الجيوش وتنسيق الكتائب ، وتدبير المكايد ، وإحكام خطط الحرب ، وتدبير وسائل الكر والفر ؛ بل لقد كانوا أضعف وأهون شأناً فى كل أولئك جميعاً ! ومع هذا فانهم ما صارعوا إلا صرعوا ولا قارعوا إلا قرعوا ، ولا شدوا إلا ظفروا ، ولا حملوا إلا قهروا ، ولا هجموا إلا انتصروا ، ففتحت بين أيديهم أبواب المعاقل ، ومهدت لهم السبل إلى أمنع المدائن ، وحشدت لهم أضخم المغانم ، واستأسر لهم من المقاتلة أضعاف أضعافهم فى يسر ، يلفت عين الدهر . وكذلك لم تجهد دورة الفلك إلا قرناً واحداً حتى دانت لهم مناكب الأرض ، وذلت نواحى البر والبحر . (١)

---

(١) كان يوم اليرموك لا يزيد جيش العرب فيه على سبعة وعشرين ألفا ، إذ كان جيش الروم لا يقل عن مائتى ألف مقاتل ، أما حرب القادسية سنة ١٦ هـ ، فكان جيش العرب بين تسعة آلاف وعشرة ، فى حين كان جيش الفرس لا يقل عن مائة وعشرين ألفا ، وأما فتح الأندلس سنة ٩٢ فلم يزد جيش المسلمين الغزاة فيه على بضع مئات من العرب وعشرة آلاف من البربر ، بينا كان عدد جند العدو لا ينقص عن مائة ألف ، ومما ينبغى ذكره هنا أن هذا الفتح العظيم تم فى ثمانية أيام لا أكثر !

إذاً لم يظفر العرب ، فى حروبهم ، كل هذا الظفر ، ولم يتهيأ لهم ما دوخوا من البلاد ، وما ملكوا من الأقطار ، وما فتحوا من هذه الفتوح العظيمة فى قواصى الأرض وأدانيها لأنهم كانوا أكثر من عددهم عدداً ، ولا أمضى سلاحاً ، ولا أعلم بفنون الحرب وأخبر بأساليبها ومكايدها ؛ بل لقد علمت أنهم كانوا دائماً دونه فى جميع أولئك بما لا يجوز فيه تشبيه ولا يصح معه القياس .

وبعد ، فلعمرى ، ما مشى النصر بين أيديهم أنى قاتلوا فى شرق الأرض وفى غربها ، بالغاً ما بلغ من الضآلة عددهم ، وواقعاً حيث وقع من الضعف سلاحهم ، إلا بأسباب ثلاثة :

١ — الإيمان
٢ — الرحمة
٣ — العدل

فالإيمان ييسر على النفس التضحية مهما جلت ، بل لقد يغرى بها ويدفع بها فى المطلب الجسام.

ولا تنس أن من أثر الإيمان بنـاء النفس على الصبر عند معاناة الشدائد وخوض المكاره ، فان إصابة الغرض الذى يدفع المجاهد إليـه إيمانه لحقيقة بأن تحد من عزمه ، وتشد من متنه ، فلا يعـتريه خور ولا خذلان . وأنت خبير بأن الصبر هو مفتـاح النصر ، وصدق من قال : الشجاعة صبر ساعة ، والأمثلة على هذا مما لا يحيط به الحساب !

وبعد هذا أحسب أن العجب قد أخذ فيك بادئ النظر ، من نظم الرحمة والعدل فى أسباب الظفر فى الحروب والتنكيل بالأعداء ، والواقع أنهما قد يكونان أمضى من السيف فى كسب الحروب ، وذلك بأن القسوة وغلظة الكبود لا تجدى على المقاتل شيئاً ألبتة ، بل إن شهرته بين مقاتليه بالرأفة إذا تمكن ، والمعدلة إذا حكم ، لما يخذلهم عن الاجتهاد فى قتاله ، ويشيع فيمن وراءهم قلة الاستحماس لهم وثقل القادرين على القتال عن نجدتهم ، بل لقد يرجون النصر لهذا العدو ليخرجوا من ظلمهم ، وينعموا فى ظلال حكم ملائكة الرحمة والرقة والعدل والإحسان .

وكذلك ساد العرب الدنيا ، وما هداهم إلى هذا إلا دينهم العظيم . . .

والشواهد على هذا فى حروب المسلمين مما لا يبلغه كذلك الإحصاء .

وبحسبنا أن نورد فى هذا الباب مثلين يسيرين ، أولهما أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه ، قال فى وصاة له لأسامة بن زيد قائد أحد جيوشه ولأصحابه ، وهم مرتحلون إلى الحرب التى وجههم إليها : « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تمثلوا (١) ، ولا تقتلوا طفلا ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تتبعوا مولياً ، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ،

---

(١) مثل بالقتيل : نكل به ، كأن يفقأ عينيه ، أو يشق بطنه ، أو يقطع عضوا من أعضائه .

ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا للأكل ، وإذا مررتم بقوم فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . . . الخ »

أسمعت حديثاً فى المرحمة بالعدو المقاتل والرقة له أبلغ من هذا الحديث ؟

ذلك بأن الإسلام لا يبغى بالحرب كيدا ولا شفاء ضغن ! إنما يبغى بالحرب أعلى المثل : فاما دفع أذى ، وإما بسط حق والخير والفضيلة فى هذا العالم .

قال الله تعالى يخاطب رسوله الكريم : « وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إلا رَحمةً للعَالمين » صدق الله العظيم(١) .

ولقد قال تعالى فى كتابه العظيم : « إن اللهَ يأمرُ بالعدلِ والإحسان وإيتاءِ ذِى القُرْبى ، وَينهَى عَنِ الفحشاءِ والمنكرِ والبغىِ ، يَعِظكم لعَلكم تذكَّرون . »(٢)

وكيف ظنك بدين يأمر بالاحسان حتى فى القتل ! قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إذا قتلتم فأحسنوا القتلة » .

أما التمثيل حتى بالحيوان فقد أغلظ هذا الدين فى النهى عنه ، واشتد فى الوعيد عليه ؛ فقد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « من مثل بحيوان فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » .

---

(١) سورة الأنبياء . — (٢) النحل .

وتلك كانت سنة الغزاة والفاتحين فى صدر الاسلام .

وإن تعجب فعجب أن يكون ذلك أدب الاسلام فى عصر كان من السائغ المألوف فيه سوم المحكومين المقهورين ألوان الخسف من إهدار الدماء ، وتخريب الدور ، واستصفاء الأموال ، فى غير جرم يقترف ، أو إثم يجترح ، حتى كاد يكون ذلك شرعاً مشروعاً وواجباً مفروضاً !

وأما المثل الثانى فأجلوه لك فى حادثين مأثورين عن عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، وهذان الحادثان معروفان شائعان ، وما كنت لآتى بهما لولا أنه قد اقتضى الالمام بهما نظم المقال ، وأولهما ما حكى من أن جبلة بن الأيهم ، وكان آخر مملوك بنى غسان — أسلم وخرج إلى مكة ، فلما كان فى بعض طوافه داس رجل من فزارة على طرف ردائه فحل أزراره ، فلطمه جبلة ، فاستدعى الرجل عليه عمر ، فدعابه وخيره بين أن يترضى الرجل أو يقيد له منه . فقال : يأمير المؤمنين ، أتقيده منى وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : ولكن الاسلام سوى بينكما !

وأما الحادث الثانى ، فما حكى عن رجل من أهل مصر قدم على عمر ، فقال : عائذ بك يأمير المؤمنين ! فقال رضى الله عنه : عذت بمعاذ ! فقال : لقد ضرب ولد عمرو بن العاصى ولدى (وكان عمرو يومئذ عامله على مصر) ، فأرسل فى طلبه معه ولده واستقاد من الولد والوالد جميعاً ؛ ثم أقبل على عمرو وقال : ياعمرو ، بماذا استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟

هذه الأمثلة على قلتها ، تريك مبلغ ما يدعو إليه الاسلام من الرحمة بالمقهور والرقة له ، وإقامة العدل بين الناس ، مهما يكن الفرق بين الظالم والمظلوم ، وأخيراً توطيد الحرية وتوكيدها على أنها حق طبيعي للانسان ، كائناً من كان .

أما الحرب فى هذا العصر ، فلقد صارت إلى ما ترى ، وهى إن امتازت بشئ فأبرز ما فى وجوه هذا الامتياز أن ضحاياها وصالى حرها من المستأمنين الوادعين ، أصبحوا أكثر كثيراً ممن تجردوا للقتال ، واستنفروا للكفاح والنزال ؛ بل لقد تعدل الموبقات القواصف من الطائرات عمداً عن المسالح ومستودعات الذخائر ، وثكنات الجند ، وغير ذلك من أسباب الحرب ، إلى دور المستأمنين ، حيث المرأة ترضع ولدها ، وحيث الرجل الذى نام ليستجم للعمل من بكرة الصباح إلى غاية النهار الأطول ، سعياً على الأم الشيخة ، والزوج والطفل الثلاث أو الأربع ، وحيث المريض المدنف يتلوى على الجنبين من ألم وعذاب ، لقد تعدل تلك المدمرات القواصف إلى هؤلاء عمداً ، وتزلزل عليهم الأرض زلزلة ، وتدمر الدور تدميراً ، فاذا هؤلاء أجزاء تتناثر ، وأشلاء تتطاير ، فمن سلم منهم على الموت ، فليستقبل حياة شراً من الموت .

فاذا جاءك أن الاسلام فتح كل هذا الفتح ، وملك كل هذا الملك ، وانبسط له على وجه الأرض كل هذا السلطان فى أقل من قرن واحد ، فان السر لا يعدو ما قدمنا لك من قوة الايمان ، وإشاعة العدل بين الناس ، وإيثار الرقة والرحمة بالانسان وبالحيوان !

وإذا طلعت عليك الأنباء فى كل صباح وكل مساء .أن الجيش اليونانى الصغير الضئيل لا يفتر لحظة واحدة عن صفع الجيش الطليانى الضخم الكثيف باليد ، وركله بالرجل إذ لا يكاد يرى فيالقه وكتائبه إلا من الأقفاء من انهزام بعد انهزام ؛ إذا طالعتك الأنباء كل ساعة بهذا فصدق ، وأحل الأمر كله على قوة الايمان بحق الوطن المعتدى عليه بغير إثم ولا عدوان !

فاذا قال لك قائل ، لقد ذهب عنك ما فعلت القوة القوية من اجتياح للممالك وقبض على نواحى الشعوب ، واستصفاء لأموال الأمم ، وامتصاص لدمائها واتخاذها عبيداً فقل له : لا تعجل بالحكم ، فان الله ليملى للظالم ، ولتعلمن نبأه بعد حين .

كتاب مفتوح

من عمر المختار إلى الماريشال جرزيانى

عزيزى الماريشال

أكتب إليك هذا وأنا حق واثق من أنك لم تنسنى ، بل حق واثق من أننى ، وخاصة فى هذه الأيام ، أتمثل لك سواد الليل وبياض النهار . ومهما يكن من أمر ، فان آخر لقائنا لم يمض عليه من الزمان ما ينسى الصديق عهد الصديق !

أتذكر ، يا عزيزى ، ذلك اليوم الذى جاءوك بى وأنا مقرن فى الأصفاد ، فتقدمت إلى أحراسك أن يلقونى فى الطيارة التى أسرت بأعدادها لمهم لم تقم به طيارة من قبل . وسرعان ما حلقت بى ، تشق أجواز الجو طبقة بعد طبقة حتى كادت تصك وجه الشمس . ثم قذف بى من ذلك الحالق قذف النواة ، لا رحمة ولا إشفاق !

وإن أعجب لشئ ، وإن أفرح بشئ ، فبطيارتكم التى بلغت هذه السرعة الهائلة ، بحيث تحمل المرء من هذه الدنيا فتبلغه جنة عدن فيما دون عشر دقائق !

ولئن عاب أهل الدنيا طياريكم ، معشر الطليان ، بأنهم لايحسنون إصابة الأهداف ، لقد اضطرب هذا الحكم عليهم بين الجهل والتجنى

فطياروكم أحسن الطيارين تسديداً إلى المرامى وإصابة للأهداف ، مادامت القذيفة شيخاً فى حدود المائة ، والهدف ظهر الصحراء !

عزيزى الماريشال

لقد انعقد إجماع أهل العلم على أن الشجاعة تلازمها الرقة للضعيف ورحمة من ليس له بالكفاح يدان . وكذلك كان شأنكم ، يا معشر قادة الجنود ، فانكم لا تؤذون الأسرى وتسرعون إلى مداواة الجرحى من عدوكم ، كما تداوون جرحاكم سواء بسواء ، وتتلقون الجميع بالبشاشة ، وتعاملونهم بالاكرام . فما بالك قد صنعت بى أنا الشيخ الفانى ، ذلك الذى لم يسمع بمثله أحد فى طول الزمان . هذا الذى لا ترضى بفعله الحجارة ، لو كانت الحجارة تشعر وتريد .

لقد التمست لك وجه العذر ، يا عزيزى الماريشال ، ولا تعجب لأن ألتمس أنا العذر لك أنت ، فاننى فى دار لا نحس فيها حقداً ، ولا يجد الضغن إلى قلوبنا سبيلا .

ألم يقل الله تعالى فى كتابه الكريم : « ونزعنا ما فى صُدورهم من غِلٍّ . . . »(١) الآية .

وجه العذر ، فيما أرى ، أنكم ، معشر الطليان ، أو معشر الفاشست ، على الأصح ، وقد جمعتم العزم على فتح أفريقيا ،

---

(١) سورة الحجر .

لتستنقذوها من الجهالة ، وتخرجوها إلى نور الحضارة ، رأيتم سلفاً أن تشهدوا العالم على مبلغ ما أحرزتم أنتم من حضارة وعطف على الانسان . وليس من شك ، بعد هذا ، فى أن فعلتك تيك إنما كانت أصدق نموذج (عينة) لحكمكم إذا ملكتم نواحى الأرض ، وبلغتم منيتكم فى استعادة ملك الرومان !

ولعلك ، أيها الماريشال الشجاع جداً ، ساعة تقدمت باعدامى على تلك الصورة ، قدرت أننى لن أتعذب أكثر من دقيقة واحدة ، فاننى كنت أجهل مصيرى ، حتى إذا قذفوا بى فى الجو خفق قلبى خفقة أو اثنتين ثم استشعرت صدمة ، هل علمت خطرة البرق ؟ ثم لم أدر شيئاً ، ولم أحس شيئاً ، حتى رأيتنى فى الجنة ، بين الصدّيقين والشهداء . وحسن أولئك رفيقاً .

ولعل هذا مما كان داخلا فى تقديرك أيضاً ، فأبت همتك إلا أن تسدى إلىّ هذا الجميل أجزاك الله عنى أعظم الجزاء !

هناك يا صديقى سؤال يضطرب فى صدرى ولا يجد له متنفساً من جواب : لقد كنت أعلم ، وأنا من أهل الدنيا ، وازددت يقيناً حين صرت إلى الآخرة ، أن السيد المسيح عليه السلام ، كان أكبر مظاهر رسالته الرفق والرحمة ، والمحبة والسلام ، والعفو عمن جنى ، والصفح عمن أساء . ولقد كان عليه السلام ، أول رسول لم يؤيد بمعجزة من عصف أو خسف ، وإغراق أو دمدمة ، أو ريح عاصفة ، أو رجفة قاصفة ، وإنما كان يبرئ الأكمه والأبرص ويحيى الموتى

باذن الله . وليس وراء هذه الرحمة رحمة ، وليس أبلغ من هذا فى باب العطف على الانسان . فهل من الفضائل المسيحية التى تتشادق بها أنت ومعشرك ، والتى تزعمون أنكم ماشهرتم هذه الحرب على خصومكم إلا لتسوروها فى العالمين — هل من هذه الفضائل أن تمثلوا بشيخ مثلى هذا التمثيل ، وتقتلوه بصورة لم تعهد فى تاريخ التذبيح والتقتيل ؟

لا والله ! لقد برئ منكم المسيح الرحيم النبيل ، وبرئت منكم التوراة والانجيل !

وبعد ، فاعلم ، يا هذا الرجل ، ولعلك الآن أنشأت تعلم ، إعلم أن الله تعالى يمهل ولا يهمل ، وهو للظالمين بالمرصاد ، وإنه ليملى للظالم ، حتى إذا أخذه لم يفلته .

ولقد أملى لك وأمهلك . وما أمهلك ولا أملى لك ، إلا ليزيد لك فى العقاب ، ويضاعف لك العذاب ، ففسح لك فى الأمل ، وأدنى منك كرائم المنى ، وقطع ، فى نفسك ، جميع علائق الشك فى أن ستكون الغازى الفاتح الذى يرد لقومه ملك الرومان القديم ، فى غير مشقة ولا جليل عناء ، حتى خلت نفسك كذلك ، وتسلقت الزهو به ، وتقبلت الهناء عليه .

نعم ، لقد أذنت وأذن معشرك ، لا فى بلادكم وحدها ، بل فى جميع رقاع العالم ، بأن مصر والقناة التى تسلكها بين البحرين ، وأن السودان من قسمكم ، كما أضحت الحبشة والصومال والأرتيريا

من حر ملككم ، لا ينازعكم على ذلك منازع ، ولا يستطيع أن يدافعكم عن شئ منه مدافع . ولقد سكنتم إلى هذا واطمأننتم إليه ، وخلتم أنكم قد فرغتم من الشغل به . ومالكم تشغلون البال بما حصل فى أيديكم ، ومكنت لكم القوة الساطية منه تمكيناً ؟

أمهلك الله وقومك وأملى لكم ، حتى بلغتم من حسن الظن بالأيام هذا المدى .

أليس أعداؤكم الانجليز قد خشوا بأسكم فسبقوا إلى إخلاء وجه الصومال لكم ، كما خلوا بينكم وبين السلوم وسيدى برانى ، فاحتللتموها فى غير جهد ولا قتال ؟

إذاً لقد تم الأمر لكم ، فأنتم ولا محالة بالغو قصارى مناكم فى يسير من الزمان ، حتى لقد واعد كثير من جندكم خطيباتهم قضاء شهر العسل ، بعد أسابيع أو بعد أيام ، على ضفة النيل ، والنعيم فى واديه الجميل .

ثم ما فعل الله ، يا ماريشال ، بأمبراطورية الرومان ؟

هذا قرنك ويفل يضربك فى كل نهار ضربة ، فلا يقنع بأن يسترجع منك سيدى برانى والسلوم ، بل إنه ليغير على ملككم فى لوبيا ، فتفتح بلادها مدينة بعد مدينة ، وليتولى على حصونها واحداً بعد آخر . ويأسر حامياتها التى حشدت فيلقاً بعد فيلق . ويغنم من المدافع والدبابات والذخائر وسائر آلات الحرب وعتادها ، لو كنتم تعاقدتم من قبل مع انجلترا على أن توردها مصانعكم إليها بالثمن العاجل ، لعجزت فى هذه الفترة عنه ، ولم تستطع ، على شدة حاجتها إلى المال ، الوصول إليه !

ولقد بلغ من خذلان الله لكم أن تظل طائراتكم ، وهى تعد بالآلاف ، جاثمة فى أفاحيصها (مطاراتها) التى تعد بالمئات ، فى انتظار الطائرات البريطانية التى تصبحها وتمسيها كل يوم ، حتى إذا أصلتها ضرباً أو تمزيقاً ، وأوسعتها تدميراً وتحريقاً ، عادت إلى حظائرها وكأنها لم تعان غزواً ، ولم تلاق عدواً !

أفتراك يا ماريشال ، قد تعهدت للانجليز بأن تعينهم على تمرين طياريهم فى إصابة الأهداف وتسديد المرامى ، فنثرت لهم الطيارات فى كل مطار ، ليتعلموا فيها الرماية فى كل ليل وفى كل نهار؟

ألا خبرنى بعيشك ؟ لماذا حشدت كل هذه الجيوش ؟وهى لاتضطلع من أعباء الحرب بأكثر من التسليم ! ولماذا أقمت كل تلك الحصون؟ وهى لم تقم بأكثر من تفتيح الأبواب للغازى المغير ! ولم أرصدت كل هاتيك الموبقات الفواتك من آلات الحروب؟ إذ هى لم تصنع أكثر من أن تعد نفسها غنيمة للعدو باردة برود الثلج !

ثم ماذا كنت تصنع أنت ، يا ماريشال ؟

لم يسمع أحد قط أنك قمت بهجمة ، أو تحركت لاتقاء صدمة ، أو أمددت فيلقاً رق حبله ، أو أنجدت جيشاً انهد حيله !

أتراك قد جئت إلى شمال أفريقيا لتتفرج فى هذه الحرب ، لاشأن لك بوضع خطة ، أو تدبير مكيدة ، أو سن منهج ، أو إصدار أمر ، أو المشورة ، ولو ساعة الضيق ، برأى ؟

صدقنى ، يا ماريشال ، فنحن أهل الجنة لا نكذب أبداً صدقنى إذا قلت لك إنك لو كنت ماريشالا فى رواية مسرحية وجرى فى

أحداثها بعض هذا الذى يجرى فى لوبيا ، لكان لك من الأثر ، فى عالم الحقيقة ، أكثر مما رأى العالم منك فى هذه الحرب ، إذ لم يكن أقل من أن يصدع الماريشال الممثل كرسياً ، أو يكسر طبقاً ؛ أو يمزق ، ولو بأسنانه ، ستاراً !

صدقنى ، يا ماريشال ، أنك لو كان فى موضعك هرّ لصارع أو حام لدافع وقارع ، أو طفل لنضح ، أو جدى لنطح !

على أنك لم تصنع شيئاً من ذلك قط يا حضرة الماريشال الغازى الفاتح العظيم .

جرزيانى لقد قتلتنى مرة واحدة ، وها أنت ذا تذوق أمرّ ألوان القتل كل يوم عشرين مرة !

ها أنت ذا ، يا سند إيطاليا ، ومعقل آمالها فى ملك روما القديمة لا تفتأ تبوء بالفشل بعد الفشل ، ولا تفيق من لطمة إلا لتتلقى لطمة . ولا تجوز بفضيحة إلا لتستقبل فضيحة ، أرأيت عذاباً أشد من هذا العذاب ، وعقاباً على الظلم أوجع من هذا العقاب ؟

اللهم إننى لم أكتب إليك هذا شفاء لحقد ، أو بذلا لضغن ؛ فقد علمت أننا ، معشر أهل الجنة ، لا نحقد ولا نضطغن ، ولكن بسطاً للعظة ، وضرباً للعبرة . وفى الختام ، أرجو ، ياحضرة الماريشال ، أن تنوب عنى فى إزجاء أخلص التهنئات إلى صديقك موسولينى قيصر الرومان العظيم !

جنة عدن فى ٢ من المحرم عام ١٣٦٠

[طبق الأصل]

كتاب مفتوح

من جرزيانى إلى القائد السيد عمر المختار

سيدى المختار

السلام عليك ورحمة الله ، ولا شك أن هذا إخبار لا دعاء ، فأنت ، من مثواك فى الجنة ، فى رحمة دونها كل رحمة ، وفى سلام ليس يعدله سلام .

وإنى أشكرك شكراً جليلا على كتابك الذى فرضت لى فيه ضميراً ؛ إذ ظننت أننى أتمثلك فى مسائى وفى صباحى ، وفى غدوى وفى رواحى ، بما أسلفت إليك ، وما أجرمت عليك . إذ الواقع أنك لم ترد لى على خاطر ، ولم تسنح لى قط فى بال ، اللهم إلا ساعة فضضت كتابك ، وأزلفت عينى إلى توقيعك . فى هذه اللحظة ذكرتك لأول مرة ، وذكرت ما كان منى إليك .

على أنى جد مشغول عن مثل هذا الذى كان منى لك ولغيرك ممن تمكنا من نواصيهم ، وسلطتنا القوة عليهم . مشغول عن هذا كله بالجزع على ما كان إلى الآن ، والهول والذعر مما يكون بعد الآن .

ولقد تكشفت لنا ، نحن قادة الفاشست ، فى ميادين الحرب ،

والسياسة جميعاً ، تلك الحقائق القاسية الأليمة بعد طول احتجاب . ومن هذه الحقائق أننا لم نخلق لحرب ولا لقتال ، بل لقد عوضنا عن هذا بما طبعنا عليه من الفن الجميل ، وما رزقنا من نصيب فيه جليل ، فنحن أدق الناس إذ أحفرنا أو صورنا ، ونحن أجود الخلق إذا غنينا أو عزفنا ، وأبرع العالمين إذا رقصنا أو قصفنا ، وأمهرهم وعدنا فأخلفنا ؛ وما لنا وراء ذلك بالحرب ولا بغير الحرب يدان !

على أن الشيطان زين لنا الفتح والاستعمار ، ويسر لأنفسنا الحرب فى سبيلهما . وقد وفى ، بادئ الرأى ، بعهده ، و بر بوعده ، فقادنا أولا إلى بلاد لا يزال أهلها يعيشون عيش الحيوان ، ولايزال كثير منهم يسكن الغابات كما يسكنها الحيوان ، ولا يأكلون إلا مما يأكل هذا الحيوان . أما اللباس ، إن كان لابد من لباس ، فشقة توارى السوءة ، وأما السلاح فسيوف أو حراب ، إن لم يستغن عنها بالمخالب والأنياب !

وقد صبحنا هؤلاء بما عندنا من كل فاتك قاصف ، ومدمدم عاصف وبكل ما يتطاير بالحمم ، و يرمى عزيفه بالصمم . فسرعان ماسلموا واستكانوا ، وسرعان ماخضعوا ودانوا . وبعد لأى أطبقنا على طرابلس ، ثم مايليها من صحراء لوبيا ، حيث القوم أهل بادية ، الشعير طعامهم ، والخيام مثواهم ومنامهم . وأما مسعدهم من السلاح فظبى السيوف وأسنة الرماح . فاذا كان فى أيدى بعضهم شئ من البنادق القديمة ، فمما لا غناء فيه ولا أضحت له قيمة . وأما مركبهم

إذا اضطربوا فى صحاريهم ، فالابل المهزولة تحمل معهم متاعهم وزادهم ، وعدتهم وعتادهم . لقد أطبقنا على هؤلاء ثم على هؤلاء ، وصببنا عليهم من النار مالا يثبت له الحديد المصفى (الفولاذ) فكيف بالانسان !

ثم رمينا أهل هذه البلاد بكل متعطل فى بلادنا ومن لايجد فيها إلى القوت سبيلا ، وكلما شام هؤلاء المرتزقون رفعة من الأرض تنطف ولو بالنزر من الماء ، وتخرج حتى الرقيق من النبات ، أجلوا أولئك المساكين عنها ودعوهم إلى بطن الصحراء !

ثم بعد سنين غير طوال ، أغرنا على معاهدتنا الحبشة وزميلتنا فى عصبة الأمم . وسلطنا على أهلها كل ما أخرج العلم من الفاتكات المدمرات ، ولم نتأثم من أن ننضح على العدو الغاز السام ، وغاز الخردل ، إذ هم لا يعلمون من أمر ذلك شيئاً ، ولايدرون من أسباب الوقاية منه والعلاج من أذاه كثيراً ، ولا قليلا .

وكذلك أصبحت لنا إمبراطورية ، ولكنها ليست كل امبراطورية الرومان !

وأخيراً فهذه جارة صغيرة ، تشرف علينا ونشرف عليها عبر البلطيق . ولقد آمناها من كل غارة ، وكفلنا لها السلامة من بغى أية جارة . حتى إذا سكنت واطمأنت بهذا العهد ، جعلنا نتربص بها الغفلة ، ونرتصد للغرة ، حتى إذا أخذ عينها الكرى ، أخذناها بجيوشنا وأساطيلنا وطياراتنا بياتاً ، فهبت مذعورة لاتدرى أين المفر ، ولا كيف السبيل إلى النجاة ! ولعمرى لم نرحم حتى

النفساء[1] ولم نشفق على وليدها الذى لم يفتح عينه على الدنيا إلا منذ ليلة واحدة ونهار!

إذاً فنحن دولة عظيمة، لا تقل عن أعظم دول الأرض فى البأس والسلطان. فليت شعرى لماذا لا ننتضى السيف، ونمضى، على اسم الامبراطورية الرومانية، غازين فاتحين، ذات الشمال وذات اليمين؟

وترى ما الذى يعوزنا لنكون كذلك؟ وهذه جيوشنا المدربة على خير الأساليب العسكرية، تعد بالملايين. وقد زودت بأ كفى الأسلحة وأمضاها فى الحروب الحديثة. وهذه طياراتنا إن شئنا حجبنا بها وجه الشمس عن العالم، وهذه أساطيلنا تغطى ثبج البحار، غادية رائحة، لا تخشى صولة ولا تهاب عادية، حتى لقد أضحى البحر المتوسط، بفضلها، بحيرة إيطالية، لا يدافعنا عن سلطاننا فيها إنس ولا جان!

ثم هذه حلل ماريشالات وجنرالات وأميرالات وكولونيلات الخ، قد «فصلها» خياطونا المهرة «تفصيلا» بديعاً. ومن العجيب أنها حين أفرغت على قادتنا فى البر والبحر والهواء، بدوا فيها وكأنهم ليوث الغاب، قد سلخوا الأعمار فى الصيال والضراب. وشقوا الصفوف، وتحدوا فى الجلى مواقع الحتوف. فأوقعوا بالعدو وهزموا، أو رضوا بالموت وما سلموا!

---

(١) يراد بالنفساء ملكة الباتيا التى فرت مع زوجها ووليدها وهى على هذه الحال!

وهذه فرنسا فلنضربها الضربة القاصمة ، ولو من الخلف ، ولو فى ساعة قدر عليها الانهيار ، فذلك فى تحقيق الحلم الرومانى لاميزان له ولا عيار .

إذاً فهلم يا ماريشالات ، وهلم يا جنرالات ، وهلم يا أميرالات ، وهلم يا سائر الضباط ، وهلم يا رجالات الفاشست ، هبوا هباً للقتال ، وامضوا للكفاح والنضال .

ثم إذا فرنسا تسقط سقوط البقلة الذابلة ، وما جرد أصحابنا سيفاً ولا شرعوا رمحاً . و إذاً فلقد عقد لهم النصر على فرنسا العظيمة ، وحقت لهم المغانم التى لا يبلغها حصر ، وكفلت لهم تونس والجزائر ، جزاء هذا النصر الباهر ! ولا تنس أن تونس والجزائر تقعان فى رقعة الحلم الرومانى العظيم !

وهذه اليونان على رمية حجر من مستعمرتنا الجديدة ألبانيا ، ولا شك أن اكتساحها بجيشنا الباسل ، وسلاحنا الفاتك القاتل ، وعدتنا المجلجلة ، وآلات حربنا المزلزلة ، لا يستهلك أكثر من أسبوع واحد من عمر الزمن . ولكى نقطع عليها سبيل العذر ، فلننذرها فى السحر أنها إن لم تجبنا دهمناها عند الفجر !

أما باقى الحلم الرومانى فقد عقد الأمل فى تحقيقه بسيف داعيكم الماريشال جرزيانى وعسكره الذى لم يتهيأ مثله عدة وعدداً لا للاسكندر الأكبر ، ولا لهنيبال ، ولا لبونابرت .

إذاً فلنفتتح مصر حالا ، وليسلك منها فوراً إلى السودان .

والملتقى مع دوق داوست فى حدود الحبشة بمشيئة الدوتشى لا بمشيئة الله !

ثم ماذا بعد هذا؟

لقد أبت هذه اليونان الصغيرة الضعيفة لا تفتأ تولينا نكبة بعد نكبة ، ولا تألونا كل يوم مائة ضربة وضربة . وكأنما لقطت الأرحام فى بلادنا الأولاد ليستأسروا لجنودهم ، وكأنما قامت مصانعنا هذه السنين ذات العدد على صب المدافع الثقيلة والخفيفة ، وصنع الدبابات والسيارات وسائر أسباب الحرب ، لتكون مغانم لهم ، وهذه ألبانيا تسلم لهم أمنع مافيها من حصون ومعاقل ، كانت أقوى درع لمن وراءها من الكتائب والجحافل !

أما أفريقيا ، وما أدراك ما أفريقيا ! أفريقيا ، واخيبتاه ، هى مناط الحلم العظيم .

فأما شمالها ، فهذه لوبيا قد طارت ، وهذه بنى غازى قد طاحت ، وهذا طريق النصر الذى عبدناه لاجتياح مصر ، لقد أضحى لنا طريق الهزيمة والفرار ! وربما سلمت طرابلس قبل أن يصل إليك هذا الكتاب . وكذلك يخرج عن أيدينا آخر معقل على شط بحر الروم ، أو بحر الانجليز ، لا بحر الطليان على كل حال !

وأما ملكنا الكبير فى الأريتريا والحبشة والصومال ، فهذا ويفل ، الجنرال بالكفاية ، لا بالبذلة العسكرية . هل جاء نبأ النمر الجائع ، وقد تمكن من فريسة يحمل لها الشر ويضمر الاضطغان؟

هاهو ذا يبقر بطنها بمخلبه ، وينهش رأسها بأنيبه . وتارة يضغم كتفها حتى تلتقى أسنانه ، ويلعق عظمها حتى يدمى لسانه . وكذلك يمزق ويفل ملكنا كل هذا التمزيق ، أو شرا من هذا التمزيق !

أرأيت ، يا سيدى المختار ، أن الحلم الرومانى إنما كان حقاً؟ على أننا نهب اليوم من نومتنا تيك أهول هبوب !

تقول لى فى كتابك : إنك لو كنت ماريشالا فى رواية تمثيلية ، لكسرت ، على الأقل ، طبقاً ، أو صدعت كرسياً ، أو قرضت بأسنانك ستاراً ! ألا فاعلم ، يا سيدى ، أن الله قد عقد لسانى فى هذه الحرب ، ورمى يدى بالشلل . وهيهات الفعل أو القول لأشل اليد معقود اللسان !

وأخيراً ، فاذا كانت هذه الأهوال الكارثة قد علمتنا ، نحن معشر الفاشست ، شيئاً فقد علمتنا شيئاً واحداً ، هو أن الحرب ليست جيوشاً تزم الأفق ، ولو زودت بجميع الفواتك المهلكات ، من مدافع وبنادق ودبابات . ولا هى أساطيل تزحم نواصى البحار . ولا هى طيارات تسد جو السماء . إنما الحرب أولا وآخراً هى . . . رجال !

ولقد أذكرنى هذا ماروى عن ذلك الشجاع العربى — يعنى عمرو بن معديكرب — وقد تهادن ابن الخطاب سيفه ، يعنى الصمصامة ، وقد طارت لها شهرة عظيمة . فقال له أمير المؤمنين : لقد رأيت الصمصامة ولكنك لم تر اليد التى تضرب بها !

سيدى المختار

لى إليك حاجة ليس قضاؤها عليك بالأمر العسير . تلك بأنكم أهل دار سؤلهم مقضى ، ودعاؤهم مستجاب . فأدع ربك أن يقبضنى ولكن على فراشى ، فاننى لا أرى من العدل أن أموت كما يموت الجندى فى ميدان القتال !

وإذا تفضلت وكتبت إلى ، فعنوانى الجديد : وادى لظى — جهنم . يحفظ بشباك البوستة .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

١٧ من يناير سنة ١٩٤١ المخلص

جرزيانى

[ترجمة طبق الأصل]

رمضان

أدركنا رمضان وأهل مصر يستصبحون بالشمع ، إلى أن طغى عليه اتخاذ الكيروسين . ثم نحن هؤلاء اليوم نستضئ بالكيروسين وبالغاز وبالكهرباء ، فكيف كان حظ رمضان من الأضواء والأنوار فى ذلك الزمان . وكيف كان حظه منهما فى هذا العام ؟

لقد كانت القاهرة والاسكندرية وسواهما من الحواضر الكبرى تستحيل ، إذا جن الليل فى رمضان كتلة من النور . النور فى أفنية الدور ، وفى غرفها وحجراتها ، وعلى رءوس الأبواب . ثم فى الشوارع من المصابيح العامة ، ومن المصابيح التى يضطرب بها الأولاد صبية وصبايا ، وأولئك يغنون : « ياماد ّللوك ، يا وردة ، فى السوق ، وباعوك ، يا وردة » الخ . وهؤلياء يغنين : « وحوى ، وحوى ، إياحة ، بنت السلطان ، إياحة ، لابسة القفطان » الخ .

ولا تنس أن السيدات كن إذا برزن إلى الطريق فى رمضان لزيارة الأهل والصديقات سعين وبين أيديهن الخدم يحملون المصابيح الكبيرة يتألق كل منها بطائفة من الشموع ، فتزيد الطريق نوراً على نور !

أما نوافذ المناظر فمفتحة ، ينبعث منها نور المصابيح ، كما ينبعث منها النور الأعظم ، أعنى ترتيل القرآن الكريم . ولا تنس حظ المساجد الكبيرة ، على وجه خاص ، من ذلك النور والاشراق فى طرفى الليل جميعاً ، ففى صدر الليل صلاة العشاء ، ثم صلاة التراويح ثم تلك الأناشيد البديعة التى يتغنى بها المؤذنون فرادى وجماعات . فاذا كان السحر ، فتحت أبواب المساجد وأضيئت فيها الثريات ، وأقبل عليها الناس بعد الفراغ من سحورهم ، فانتظموا فى حلق يستمعون إلى دروس العلماء فى تفسير كتاب الله ، وفى حديث رسول الله ، وفى أحكام الشرع الحكيم . حتى إذا قال العلماء : « والله أعلم » أذاناً بختام الدرس ، أسرع الناس فانتظموا صفوفاً ، مولين وجوههم شطر الدكة فى بهرة المسجد ، ليسمعوا صوت أشهر قارئ فى الحى . وناهيك بالشيخ حنفى برعى فى مسجد السيدة فاطمة النبوية ، وبالشيخ أحمد ندا فى مسجد السيدة زينب ، رضى الله عن السيدتين الكريمتين ، ورحم الشيخين العظيمين !

ومادام حديث رمضان قد استدرجنى إلى ذكر الشيخ أحمد ندا فلا بد لى من أن أقول فيه كلمة (١) .

لقد ولدت فى حى السيدة زينب ، وسلخت فيه مدة الفتوة ، وصدراً من سنى الشباب ، ولست أذكر أننى ، من عهد الصبا تخلفت فى ليلة من ليالى رمضان ، إذا كان السحر ، عن طلب مسجد

(١) للكاتب مقال طويل عن الشيخ ندا نشر فى جريدة « الأهرام » إثر وفاته ، ثم طبع فى الجزء الثانى من كتاب « المختار » للكاتب .

السيدة زينب رضى الله عنها ، أستمع أولا إلى درس الحديث من أستاذنا العلامة الجليل الشيخ محمد السمالوطى ، عليه رحمة الله . حتى إذا فرغ منه فى الوقت المقسوم ، استوى الشيخ ندا على الدكة ، وأنشأ يقرأ :

« بسم الله الرحمن الرحيم . طه ، ما أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ القُرْآن لتَشْقى ، إلا تَذْكرةً لمنْ يَخْشَى . . . »(١)

وقد انصقل بقراءة الليل صوته ، وحلا نبره ، وسلس له منه ما كان جامحاً ، ولان ما كان فى أول الليل عاصياً ، وأطلقه فى آى السورة الكريمة أبيض ناصعاً كأنما صيغ من ذوب الفضة ، أو كأنما اعتصر من صفحة البدر ليلة تمامه ، لقد أسمعه فى سورة طه كل ليلة ، وفى كل ليلة يخيل إلى أن جبريل ينزل من جديد ، بسورة طه على محمد ، صلى الله عليه وسلم ! وهو يجول فى فنون النغم فارساً خلا من هيبته الميدان ، وتوارى الكماة خشية الضراب والطعان ، ولا يزال كذلك حتى يملأ الآذان طرباً ، ويشيع فى النفوس ما شاء الله أن يشيع من لذة وأريحية وفرح حتى إذا كان من مطلع الفجر على دقائق ، نهض فوقف على الدكة ، وصاح فى مقام الست بأعلى صوته : « يا أمة خير الأنام ، ومصباح الظلام ، ورسول الله الملك العليم العلام . تقبل الله منا ومنكم الصيام والقيام وصالح الأعمال » .

---

(١) سورة طه .

وهنا يطمئن الشيخ اطمئنانة قصيرة ، أرجو ألا تحسبها استراحة من ذلك الجهد العنيف ، وإنما هى استجمام للجهد الأعنف . أستغفر الله ، أرأيت إلى الليث كيف يجتمع للوثاب ؟ وكذلك كان الشيخ عليه رحمة الله . فسرعان ما تراه قد وقف على أصابع رجليه كأنه يريد أن يطول مالا يطال ، ويستأنف الدعاء : « وأدخلنا وإياكم الجنة » . فاذا صارت إلى حلقة كلمة « إياكم » يجعل يرتفع فى مد « الياء » ثم يرتفع ، ثم يرتفع ، ثم يرتفع ، متحدياً ما رسم أصحاب الفن لنهايات الأصوات فى سموها ، إذ الناس شاخصون بأبصارهم إلى السماء لينظروا مشدوهين إلى أى مدى يبلغ الشيخ ، حتى إذا جاز هذه الطبقات جميعاً ، وبلغ « الجنة » ، زر حلقه على نونها فعصرها عصراً شديداً ، وكأنه لا يتكلف فى هذا الجهد المهول شيئاً . حتى إذا بلغ هذا المدى خيل إلى الناس أنهم والمسجد الذى يضمهم بأرضه وسمائه ، وعمده ودككه ، ومنبره ومقاصيره ، قد ارتفعوا كتلة واحدة حتى وصلوا إلى جنة عدنان ، ونالوا أعظم ما ينال مؤمن من الرضوان !

ثم يهوى من فوره إلى القرار فيقول : « بمنه وكرمه وجوده ، دار السلام بسلام » ثم يعود إلى محلقه فيصيح : « طلع الفجر ! » الله أكبر ! الله أكبر ! ماذا صنعت لعمرى أيها الشيخ ؟ لقد رن رنة ملأت الآفاق جميعاً ، حتى لو أنه أطلقها فى غسق الليل لانفجر من حلقة الفجر ، ولحق على المؤمنين أن يخفوا لصلاة الصبح ، وما شاء الله كان !

ثم هتف فى صوت هادئ وادع : « فاستقبلوا الآن واستمعوا الآذان بعده . . . » ثم أذن للصلاة . . .

هذه بعض الأنوار التى كانت تموج فيها ليالى رمضان حساً ومعنى ، ولست أحب أن أقارن بين ما كان يكون فى ذلك الزمان ، وبين ما صارت إليه ليالى رمضان فى هذا الزمان . إنما قصدت إلى العبرة فى المقارنة بين أضواء ليالى رمضان فى عصر الشمع والكيروسين وبين لياليه فى هذا العام ، أى فى عصر الغاز والكيروسين والكهرباء .

لا يخيم الليل حتى يكاد يستحيل ما بين آفاق الأرض منجما من مناجم الفحم ، ظلمة وسواد ، وعالم كأنما قد غط فى المداد ، لاعلان أبشع ألوان الحداد .

« ظُلمَاتٌ بعضها فَوْقَ بَعض ، إذا أخْرجَ يَدَهُ لم يَكَدْ يَرَاها ، وَمَنْ لم يجْعَلِ اللهُ لَهُ نوراً فما لَهُ مِنْ نورٍ . »(١) صدق الله العظيم .

وهذا فوق عواء الصفارة ، إيذاناً بمقدم الغارة .

وبعد ، فهذا ما صنعت هذه الحرب ، وهو على ثقله كأهون ما تتبلى به الحروب غير المقاتلين فى هذا الزمان .

---

(١) سورة النور .

على أننا لا ينبغى أن نبتئس بمجرى القدر فى هذا الشهر العظيم ، فهو شهر الصيام ، والصيام كف النفس عن الطعام والشراب ، أى عن غذاءى الحياة بعد التنفس فى الهواء . وذلك ، والله أعلم ، ابتلاء للمؤمنين ، وامتحان لمبلغ جهدهم واحتمالهم فى طاعة الله ، وتعويدهم الصبر على معاناة المشاق فى هذه الحياة ، فلا يفسدهم طول الترف والتقلب فى المناعم والاسترسال فى معاطاة اللذائذ ، فان هذا العيش أدعى إلى تكسر النفوس ، واسترخاء العزائم وعدم القدرة على احتمال الشدائد ، وإن أمة يصير بها الأمن والرخاء إلى هذا المصير ، لحقيقة بالتقلص والضمور فالانقراض ، والعياذ بالله !

ونحن ، ذياداً عن الشرف والاستقلال والحرية ، قد نلقى المشاق وأكثر من المشاق ، فمن الخير لنا ، لو تدبرنا ، أن نمرن النفس من الآن فى خوض المشاق ومعاناة الشدائد ، حتى إذا كان يوم الردع ، لا أذن الله ، لاقيناه فى رشد وعزم وصدق يقين :

« وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ، وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا : إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ . أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ . »[1] صدق الله العظيم .

---

(١) سورة البقرة .

سعدٌ الرجل

ولست أعنى بالرجل من ليس امرأة ولا غلاماً أو فتاة . ولست أعنى بالرجل كل من يضعون هذه الألوان من الثياب التى يمتازون بها عن النساء فى كل مكان . إنما أعنى بالرجل ذلك الكفء لأن يحمل هذا الاسم الضخم ، هذا الاسم النادر فى ضواحى الزمان .

إنما أعنى بالرجل ، ذلك الواثق بوجوده ، المؤمن برجولته ، المتكئ على نفسه ، الذى لا يسمع إلا باذنه ، ولا يرى إلا بعينه ، ولا يفكر إلا بعقله ولا يمضى فى الأمر ، إذا مضى ، إلا بوحى من سلطان العقل والضمير !

وأخيراً فانما أعنى بالرجل ، ذلك الذى لا يتجاوز عن رجولته لأى غرض ، ولا ينزل عن سلطان نفسه لأى اعتبار . بل إنه ليمضى لوجهه طلقاً ، ولو كان صفاً وحده ، والناس جميعاً بازائه صفاً آخر . وكذلك كان سعد زغلول . لقد كان ، رحمة الله عليه ، رجلا كل الرجل كان رجلا بأضفى معانى هذه الكلمة . فأصبح من حقه أن يفسح له مكان فى أعلى جبهة التاريخ .

وبعد ، فليست الرجولة شيئاً يدرك بالكسب ، أو هى مما يضفيه الناس على المرء ، إنما هى غريزة كسائر الغرائز يفطر الله عليها من

يشاء من خلقه ، فهى من نفسه الباطنية بموضع جوارحه الظاهرة ، ما له فى وجودها ونشأتها رأى ولا خيار !

نعم ، لقد تنمو هذه الغريزة وتشتد بطول المعالجة والمراس ، ومعاناة الصعاب ، ومواجهة شدائد الحياة ، لقد يكون الأمر كذلك ولكنها ، كما قلت ، لا تنال بالكسب ، ولا تجعل بالجعل ، ولا تكون بعد أن لم تكن ، ولا يسبغها الناس ، ولم يأذن بها الله !

ولقد كان سعد زغلول رجلا بأوسع ما يترامى إليه الذهن فى معنى هذه الكلمة ، ولقد تجلت فيه هذه الرجولة من أول نشأته إلى غاية حياته . ولا محيص من أن يكون الأمر كذلك ، اللهم إلا أن يتبدل الخلق ، ويحول الطبع ، وتنصل الغرائز نصول الخضاب . وهذا فى سنة الكون مما يتصل بالمحال !

لم أعرف شيئاً عن نشأة هذا الرجل فى الكتاب ؛ ولكنى أعرف غير قليل عن نشأته فى الأزهر ، وما أعرفه ، فى هذا الباب ، فرواية عن لداته وقرنائه الذين لابسوه وعايشوه ، وانتظموا معه فى حلق الدروس ، وذاكروه فى العلوم صدر الليل وأعقاب النهار . وهم ، ولا ريب ، ثقات عدول . وقد وكد الثقة برواياتهم ما شهدت بنفسى ، بعد ذلك ، أيام كان يواتينى الحظ بشهود مجالس هذا الرجل العظيم .

وقبل أن أعرض لرجولة سعد طالباً فى الأزهر ، أحب أن أقرر شيئاً لعله ينفع فى هذا المقام وغير هذا المقام : ذلك بأن جمهرة الناس ، فى كل مكان ، درجت على أن تجرى أحكاماً معينة على قضايا معينة ،

لا ينحرفون بها عنها ذات اليمين ولا ذات الشمال ، ولا يجادلون فيها ألبتة ، ولا يرونها موضع الجدال ، كما نشأوا على عادات وتقاليد تنزل بعضها من نفوسهم منزل التقديس ، على أنهم لم يعتنقوها ويلتزموها عن تدبير أو تفكير . وإنما اتخذوها وحرصوا عليها الحرص الشديد ، لأن من تقدمهم ومن حولهم قد اتخذوها وحرصوا عليها الحرص الشديد ، وتلك القضايا تدعى ، فى عرف أهل العلم ، بالمسلمات . وناهيك بأهل الأزهر خاصة ، فى التسليم بهذه المسلمات ! على أن رجولة سعد الطالب الأزهرى ، أبت عليه أن يخضع ، بادى الرأى ، لما يخضع له من حوله ، ويسلم بما يسلم به من يأخذ العلم معهم ، ومن يأخذ العلم عنهم . فجعل يناقش كل قضية تعرض له من قضايا العلم ، سواء منها المسلمات وغير المسلمات . ويجيل فيها الذهن الحر لم يقيده قيد ، ولم يحد من جولاته ، فى العلل والأسباب ، حد . وهكذا حتى يخرج له الحكم الذى هداه إليه البحث والتدبير ، وهكذا كان سعد من المثل الأولى فى الاتكاء على الذهن أولا ، ثم فى حرية النظر والتفكير ، ثم فى الجهد بما يعتقده هو لا بما يعتقد غيره من العالمين .

ولست أشك فى أن هذه الرجولة ، وإن شئت قلت هذه الألمعية ، أو قلت هذه الحرية التى طبعه الله عليها ، هى التى عدلت به إلى دروس السيد جمال الدين . وكذلك لست أشك فى أنه لقى بهذا وبهذا فى مطلع حياته عنتاً كبيراً ، على أن هنا العنت لم يثنه قط عن وضح السبيل ،

ولا شك عندى أيضاً فى أن هذا : طول النظر ، وتقليب الذهن ، وإثارة المناقشة فيما اطمأنت إليه جمهرة الناس واعتنقته ، بظهر الغيب ، هو الذى قوى روح الجدل فيه ، حتى بلغ منه غاية الغاية . فلقد كان سعد ، رحمة الله عليه ، أحد الناس قولا وأسطاهم فى الحوار حجة .

وهنا لا أجد علىّ حرجاً فى رواية نكتة ظريفة عن سعد ، فلقد كان رحمه الله ، يحب النكتة فى موضعها ، ويرتاح إليها فى مقامها ، ويرسلها جزلة نافذة ، حتى وهو فى أحدّ سورة الخطاب !

حدثنى المرحوم محمد باشا صالح (المستشار السابق فى محكمة الاستئناف وكان من لدات سعد الذين يحضر دروس الأشياخ معهم ، ويستذكرها وإياهم ، قال وعرض ذكر سعد وشدة جدله ، فقلت له ذات يوم : يا شيخ سعد ! إن هذه المناقشات الكثيرة تضيع من وقتنا ، وتستنفد قدراً كبيراً من جهدنا . فلا تكاد تبقى لنا فضلا للمطالعة والاستذكار . فهلا تركناها ، وأقبلنا على استذكار ما بين أيدينا من دروس ؟

فأجاب من فوره : وهل تظن أن هذه المناقشات أقل جدوى فى تفتيق الأذهان ، والفسح فى الملكات ، وطبع الذهن على النظر والتماس العلل من استذكار الدروس ؟ فقلت له : كلا ! بل هى مضيعة للوقت ، صارفة عن طلب العلم ! فقال : ما دام هذا رأيك فهلم إذاً نتناقش فى هل المناقشة ضارة أو نافعة !

وحسبنا هذا القدر فى رجولة سعد طالباً فى الأزهر . ولنخلص منها إلى رجولته فى المحاماة . فلقد كان فى رجولته وجرأته فى الجهر

بقوله الحق مضرب الأمثال . أما رجولته قاضياً (مستشاراً فى محكمة الاستئناف) فقد يعتمد فى قضائه الحق ولا يعتمد غير الحق . ويحكم بالعدل ولا يحكم بغير العدل ، لا يبالى غضب من يغضب ، بل لا يبالى أن يخالف رجال القضاء إلى غير ما اطمأنوا إليه من فهم ظاهر القانون ، لأنه إنما تهدّى إلى تحقيق العدل بفهم روح القانون . أما سعد الوزير (الناظر) فلقد كان الأسد حق الأسد ، وإن شئت تعبيراً أشد وأقوى ، قلت كان الرجل كل الرجل .

لقد أبت عليه رجولته أن يخضع لقول المعارف (دنلوب) كما خضع له جميع الوزراء (النظار) من قبل ، بل لقد سطت هذه الرجولة بدنلوب وما زالت به لا تألوه رداً وصداً ، حتى قبع من الديوان فى أخوصة ، لا يسمع له قول ، ولا يمضى له فى شأن المعارف رأى !

أما رجولة سعد فى الزعامة فهذا ما أدع تفصيل القول فيه لأصحابه الذين كانوا لاصقين به فى كفاحه العظيم ، وإن كنت أعرف من ذلك الشئ الكثير .

لقد كان سعد زغلول رجلا حقاً ، رجلا يعز أكفاؤه فى التاريخ الطويل . وصدق شوقى بك ، رحمه الله ، فى قوله : « والرجال قليل . »

غُدوةٌ ورَوحة

لقد يئسوا منه كما استيأس هو منهم ، وبلغ برمهم به ، واصطغاؤهم عليه غاية المنتهى . ولم يبق فى علاجه بما يريحهم منه حيلة ، فلقد عرضوا عليه أن يملك عليهم ، أو أن يصفوه بجلائل أموالهم ؛ فأبى إلا مضياً فى شأنه . إذاً فلا بد من أمر يكفيهم كل هذا ، ويكفل الدعة والراحة لهم ، وها هم أولاء يحشرون فى ناديهم ليأتمروا به . وهذا الشيخ النجدى يطلع عليهم من غير موعد ، فيكون نصيحهم وجماع أمرهم . وأقبل بعضهم على بعض يتشاورون ، فقال قائل منهم : أحبسوه فى الحديد ، وأغلقوا عليه بابا ، ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم . فلا يرى الشيخ النجدى هذا الرأى !

ثم يقول آخر : نخرجه من بين أظهرنا ؛ فننفيه من بلادنا ، فاذا أخرج عنا فوالله ما نبالى أين ذهب ، ولا حيث وقع ، إذ غاب عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت . وإذا الشيخ النجدى لا يرى هذا الرأى أيضاً !

ثم يقول ثالث : أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى شاباً جليداً نسيباً

وسيطاً[١] فينا . ثم نعطى كل فتى منهم سيفاً صارماً . ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ، فيقتلوه ، فنستريح منه . فانهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل جميعاً . فلم يقدر معشره على حرب القوم جميعاً ، ويقول الشيخ النجدى : القول ما قال الرجل ، هذا الرأى الذى لا رأى غيره ، ويتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

وينزل الله تعالى على رسوله ، صلى الله عليه وسلم ، فى هذا اليوم : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذينَ كفَروا لِيُثْبِتوك أو يَقْتُلوك أو يُخرجوك ، ويَمكرونَ ويمكُرُ اللهُ ، واللهُ خيرُ الماكرينَ . »[٢]

ويقول عز وجل : « أمْ يَقولونَ شاعِرٌ نَتربَّصُ بهِ رَيْبَ المنونِ[٣] . قُلْ تربَّصُوا فإنِّى معكم من المتربِّصِينَ . »[٤]

ولما هبط الليل جرد أولئك الفتيان إلى داره ، فى أيديهم سيوفهم مشهورة . وأقاموا يرتصدون له على بابها حتى يخرج . ثم إذا هو يخرج فيعفر بالتراب وجوههم . وفى غشية أبصارهم يتسلل إلى دار صديقه ما يراه منهم أحد .

فاذا صار فى بيت صاحبه أخبره بأنه مهاجر لساعته وآخذه معه ، فاذا سأل صاحبه عن وجهه تعذر أولا لأن بنتيه حاضرتان . ثم اطمأن فباداه بمهجره .

وخرجا من خوخة فى ظهر الدار . ولم يمضيا قدماً إلى وجههما ،

---

(١) الوسيط : الشريف فى قومه . — (٢) سورة الأنفال .
(٣) ريب المنون : ما يريب أو يعرض من الموت . — (٤) سورة الطور .

فان الأقوام لا بد طالبوهما فى كل سبيل ، بل عدلا إلى غار يعصمهما من العيون حتى تسكن حدة الطلب ويترسل بينهما وبين البلد بعض الأبناء ، ويأتونهما بالطعام ، ويفضون إليهما بما يتسمعون فى شأنهما على الأعداء .

ولما فتر حد الطلب بعد ثلاثة أيام ، انطلقا ومعهما دليل يبتغى بهما من السبل ، ويسلك من الدروب ، ما لا يبتغى السيارة ولا يسلكون ، بل ما لعل جمهرة الناس لا يعرفون .

وبعد بضع عشرة ليلة طال فيها الترقب وحذر الطلب ، يبلغ وصاحبه المأمن وهذا المأمن المعز المانع هو يثرب .

وكذلك كان خروج محمد ، صلى الله عليه وسلم ، من بلدة مكة بعد ما عانى من قومه ما عانى ، واحتمل من أذاهم وعنتهم ما احتمل . وكذلك أنجاه الله تعالى من القتل الذى بيتوا لم تخالجهم فيه رحمة ، ولم تحشمهم منه رحم !

نحن الآن فى يثرب ، وقد مضى على تلك الهجرة المهولة ثمان سنين ، ثمان سنين لا أكثر . فليت شعرى ماذا نرى وماذا نسمع ؟

نرى شيئاً لا يكاد يتسع له البصر ، ونسمع جلجلة لا تكاد تحتمل موقعها طبلة الأذن . . .

هذه صلصلة السيوف ، وهذه قعقعة اللأْم[1] والدروع ، وهذا صهيل الخيل ، وهذا هدير الابل ، وهذا لجب يحكى جرجرة الآذى[2]

---

(١) اللأْم : بفتح اللام وسكون الهمزة : جمع لأمة وهى الدرع .

(٢) جرجرة الآذى : صوت موج البحر .

فى اليوم العاصف ، وهذه الرايات المرفوعة . وهذى كتائب الجند تتلوها الكتائب ، من رجال وفرسان ، كأنهم لم يخلقوا إلا للقراع والطعان . وعلى كل كتيبة علم من أعلام القادة ، وكمىٌّ من الكماة الزادة ، والغطاريف السادة ؛ وهذا محمد صاحب تلك الهجرة على جيش كثيف من المهاجرين والأنصار :

يمشون فى زَغف كأن متونها ... فى كلّ معركة متونُ نهاء
بيضٌ تسيل على الكماة فُضولها ... سيلَ السراب بقفرة بيداء
فاذا الأسنة خالطتها خلتها ... فيها خيال كواكب فى ماء
أبناء موت يطرحون نفوسهم ... تحت المنايا يوم كل لقاء

ولكن أين الطلبة وأين المنتهى ؟ الله ورسوله أعلم !

وما لأحد يسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عن هذا ، وهو إما قاتل فناقض من بناء الشرك حجراً ، ومقيم فى صرح التوحيد حجراً . وإما مقتول وقد علم أن الجنة تحت ظلال السيوف ؟

ثم تتبين الطلبة ويسفر الوجه ، فاذا هو البلد الذى خرج منه النبى ذلك المخرج منذ ثمان سنين ، هو مكة مثوى قريش الذين آذوه وصدوا عن سبيله ، وكادوا له ولصحبه الأقلين ، بكل ما اتسع له ذرعهم من الكيد ، وائتمروا أخيراً بقتله وتفريق دمه فى القبائل ، فلا يطلب بالثأر له أحد !

ومكة البلد الحرام ، الذى يقوم فيه بيت الله العتيق ، وهو قبلة المسلمين فى صلواتهم أنى كانوا من شرق الأرض وغربها ، والذى

فيه وما حوله تقام فرائض الحج ، التى أوجب الله تعالى ، على كل مستطيع من المسلمين .

ترى ما عسى أن تصنع قريش ، وقد قدم إليهم فى عقر دارهم عدوهم القديم ؟

تالله لقد كانوا أضعف من أن يخرجوا الحربة ، وأذل من أن يناصبوه كيداً أو عداوة . بل لقد ابتغوا النجاة بأنفسهم من حيث أومأ هو إلى مواطن النجاة ، فكانوا بين ثلاثة رجال : إما لائذ بالبيت الحرام ، وإما عائذ بدار أبى سفيان ، وإما مغلق بابه عليه ، فهو حلس الخدر مع النساء ! (١)

« الله أكبر ! الله أكبر ! أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن محمداً رسول الله . . . » وهكذا قام بلال يرفع بها صوته فى قلب البيت الحرام بعيون آلهة القوم (أصنامهم) وأسماعها إذا كانت لها عيون وكانت لها آذان !

الله أكبر الله أكبر ، إن فى ذلك لعبرة العبر !

أنظر كيف خرج محمد من بلده وكيف عاد إليه ولم يطو من عمر الدهر أكثر من ثمان سنين !

---

(١) لما تشفع أبو سفيان إلى رسول الله صلى عليه الله وسلم بعمه العباس رضى الله عنه ، ثم أسلم بين يديه فى مقدمه إلى مكة فاتحاً ، قال العباس : يا رسول الله ، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر . فاجعل له شيئاً ، قال : « نعم ، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن أغلق بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن » .

لم يرق جيشه اللجب دماً ، اللهم إلا نطاقاً قطرتها حماقة بضعة نفر لم يكونوا أكفاء لحياة الاسلام !

لقد طالما تحدت قريش رسول الله وسألوه أن يسأل ربه أن يمتحنهم بالآيات الكبرى ، التى امتحن بها الأمم قبلهم ؛ ولكن الرسول لم يفعل ، بل لقد آثر احتمال الكيد والأذى ، علماً منه بأن رسالته أجل من أن تؤيد بالخسف والدمدمة والعصف والتدمير التى كانت أليق بخوالى العصور . بل هى رسالة الحجة والمنطق وخطاب العقل ، ولفته إلى ألوان العبر ، وتمييز النفع من الضر ، والتفريق بين الخير والشر ، وهكذا .

على أن من هؤلاء الذين سألوا محمداً ، صلى الله عليه وسلم ، أن يدعو ربه أن يهلكهم ، ويأخذهم بما أخذ به الأمم ، قبلهم ، مبالغة منهم فى التحدى و إظهار التكذيب للدعوة — من هؤلاء من جاهدوا فى الله حق الجهاد وأبلوا فى سبيل هذه الدعوة أحسن البلاء .

أما أولادهم جميعاً وحفداتهم فهم رافعو راية الاسلام ، ومذكو حضارته الغالية النبيلة فى كل مكان .

ولعمرى لم تفتح السرايا ولا الجيوش كل هذا الفتح ، و إنما كان الفاتح الأول هو القرآن .

بين الحرب والسلام

لست أرتاب ، ولعل كثيرين من القراء لا يرتابون كذلك ، فى أن دعاية تقوم الآن فى مصر ، تحفزها إلى الدخول عاجلا فى الحرب . وهذه الدعاية تظهر قوية آناً وضعيفة آناً ، صريحة حيناً وقائمة على التعريض حيناً آخر .

ولست أرتاب فى أن هذه الدعاية مصرية خالصة ، لا يستروح منها أى ريح أجنبية .

ولست أرتاب فى أنه ما بعث هؤلاء الدعاة إلى دعايتهم إلا الشعور بالكرامة القومية .

ولعمرى ، ما دعانى أن أقرر أن هذه الدعاية مصرية خالصة ، إلا أن المصدرين لها ممن لم تحص عليهم فى وطنيتهم شبهة ، ولم تلحقهم تهمة ، بل إن منهم لمن له ماض فى الجهاد جليل .

إذاً فالأمر لا يعدو ، أولا ، الأنفة والشعور بالكرامة الوطنية ، والعزة القومية . وكيف لا يثور ، بادئ الرأى ، شعور المصرى الحر ، وهو يشهد الجيش الانجليزى يقوم وحده بقتال من يحاولون غزو بلاده واقتحام أرض الوطن ، إذ أبناء هذا الوطن نفسه قابعون فى أعقار دورهم ، قانعون بهذا الضرب الرخيص من السلامة من أذى الحروب !

ولو أننا نكتفى بهذا الموقف ، موقف المتفرج بشهور الصراع بين المتجمع لغزو وطننا وبين مدافعه عن هذا الوطن ، لو أننا نقف هذا الموقف فحسب ، لهان الخطب بعض الشئ ، ولنا فى المستضعفين فى رقاع الأرض بعض الأسوة . ولكننا لا نفتأ فى نهارنا وليلنا نتشادق بدعوى الكرامة ، ونتغنى بما أصبنا من الاستقلال والحرية !

فاذا أضفنا إلى هذا تلك الأناشيد الحماسية التى بنى أكثرها من لفظ بارد ، وجرى فى تلحين فاتر ، تتكسر فيها أصوات المنشدين وتسترخى وتتزايل تزايلا ينبو عنه أصلب راقص مخنات ، هذه الأناشيد التى تصبحنا وتمسينا كل يوم مرات ومرات ، تدعونا إلى تقلد السلاح ، والهرولة إلى الصراع والكفاح — إذا أضفنا هذا إلى هذا ، كان شأننا فى هذه الدنيا عجباً !

وبعد ، فلست أشك فى أنه ما بعث أولئك الداعين إلى الحرب ، المستنفرين أبناء وطنهم للقتال ، إلا الشعور القوى بأن هذا الموقف لايليق بالرجال ، ولايتسق لهذه الدعوى العريضة فى الحرية والاستقلال !

هى ، فيما أرى ، دعاية قد سمت على كل اعتبار . دعوى أثارها مجرد الشعور بالكرامة . والحر إذا أحس أن كرامته قد خمشت ، أو أنها معرضة لأن تخمش ، هب للصراع دونها ، ما يتربص لتفكير ولا تدبير ، ولا يدير الذهن فى فرض أو احتمال ، ولا ينتظر ما يخرجه له القياس من نتيجة الصراع والقتال :

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكرالعواقب جانبا!

وإذا كانت الدعوة إلى دخول مصر فى الحرب ، من غير إبطاء ، هى المثل الأعلى للحفاظ للكرامة الوطنية ، فان من الخير أن نجرد صدراً من همنا لدرس المسئلة من الجهة العملية .

وقبل أن أعرض لما سقت له هذا الحديث ، أقرر أن مصر لن تعبأ بما عسى أن يجول فى وهم واهم من أن إيطاليا إذا غزتها ، لا أذن الله ، فانها لا تغزوها كيداً لها أو طمعاً فيها ، ولكن قهراً للانجليز !

وإنه لوهم سخيف وضيع ! فالغزو هو الغزو ، وإذا اختلفت الأسباب ، ولو قدرنا أن انجلترا أجلت عسكرها عن مصر ، ونحت أساطيلها عن مياهها ، ما أعوزت الطليان الحجة فى المبادرة إلى احتلالها ، ولو بدعوى التمكن من قناة السويس ، لتسد فى وجه الانجليز الطريق !

وهل من الحزم أن أقف مكتوف اليدين لأننى لست المقصود بالحجارة التى أرشق بها ، إذ المقصود بها غيرى من الناس !

لقد حق علينا الآن أن ننصرف عن هذا الفكر السخيف الوضيع ، ونقبل على ما هو أحق بشغل العقول والأفهام .

وبعد ، فهنالك مسألة أو مسائل خطيرة ينبغى درسها ، ولو درساً سريعاً ، قبل البت فى هذا الحدث الجسام ، على أن تكون الكرامة الوطنية من هذا الدرس فى أسمى مكان .

١ — هل حان الوقت الذى تدخل فيه مصر الحرب مع الطليان أو غير الطليان ؟

اللهم إن مصر لحريصة شديدة الحرص على الوفاء بعهودها لحليفتها العظيمة . ومن هذه العهود أن تشترك معها فى الدفاع فى داخل حدود البلاد . فهل وطئ الطليان أرض مصر حتى تهب طوعاً للعهد المسئول ، للنضال والكفاح ؟

٢ — لندع هذا العهد فهو موف ، إن شاء الله ، إذا وطئ عدو حدود هذه البلاد ، لا أذن الله ، ولننظر نظرة أسمى وأخلق بأمة تنشد المجد ، وتضرب على التضحية فى سبيل الكرامة أبلغ الأمثال .

ندع هذا العهد ونقبل على أنفسنا بهذا السؤال أترى هذا مما يتسق لكرامتنا القومية أن تظل فى موقف المتفرج على هذا الصراع بين من يحاول الاغارة على أرض وطننا ، وبين من يدافعه بقوة السلاح عنها ، إلى أن ينكشف له بعض الثغور ، فتقتحم جيوشه علينا إقتحاماً ؛ وحينئذ نهب للقتال والصيال ! فاذا لم يكتب لهذا المغير فتح ولا غزو ؛ بل لقى اندحاره فى جوف الصحراء ، فماذا يكون شأننا ، بعد ذلك ، وبأى وجه ، لعمرى ، تلقى الأمم العزيزة ، والأمة الانجليزية ، على وجه خاص ؟

٣ — وأخيراً ، ترى هل فكر أولئك الداعون إلى إعلان الحرب فيما تستهلك هذه الحرب من جليل الأموال . وإذا كانت انجلترا تنفق فى سبيلها الملايين فى كل صباح ومساء ، فلا أقل من أنها تقتضينا كل يوم مئات الآلاف أو عشراتها ، على أوضح تقدير !

إنى لأرجو أن يكون أولئك الدعاة إلى الحرب قد فكروا فى هذه الناحية وأحسنوا التقدير .

هذه هى أمهات المسائل التى ينبغى أن تدرس ولو درساً سريعاً قبل البت فى هذا الحدث الجسام .

ولعل خير ما يصنع أن تسرع الحكومة إلى عقد مجلس ينتظم الأقطاب من رجال الحكم ، وقادة الحرب ، وزعماء الرأى ، حتى إذا انتهوا بعد تشاور إلى رأى ، مضت على اسم الله ، والبلاد من ورائها صفاً واحداً ، مزوداً بالفوز العظيم ، سواء فى الحرية أو فى السلام .

كتبت فى بوش فى ١٩ أغسطس سنة ١٩٤٠

كيف نتق أهوال الحرب

حين أعلنت هذه الحرب ، ودخل فى التقدير العام أن مصر قد تكون هدفاً من أهدافها ، جعلت أفكر وأطيل التفكير فيما عسى أن تدرأ به عن نفسها ، وتدافع المغير عن أرضها ، وتكفل بالأمن والسلامة للوادعين الساكنين ما أذى من يعتريهم من الجو فى هذه الحروب الحديثة من كل مدمدمة قاصفة ، ومزلزلة خاسفة ، ومن كل كاوية حارقة ، ومن كل سامة خانقة .

جعلت أفكر فى هذا وأطيل التفكير . وكان أول ما انحط إليه الفكر ، بالضرورة ، هو إعداد العدة ، واتخاذ الأهبة ، من تجييش الجيوش ، وإمدادها بالسلاح والعتاد ، وتغذيتها بالوسائل التى نضج بها العقل ، وتمخضت عنها التجارب ، وانتهى إليها الفن الحربى ، سواء فى إلحاق الأذى بالعدو وفى اتقاء أذى العدو .

وهذا ما تمضى فيه الحكومة جادة جاهدة . فوق ما تأخذ به الأهلين من الرياضة على النظام فى أوقات الشدة ، وتدريب الكثيرين منهم على حسن المعونة فى الأحداث .

ثم ماذا ؟ . . .

اللهم إن هذا كله وأضعاف أضعافه لا يقى البلاد ، ولا يكفل

السلامة والنجاء ، وإلا لكان أضمن لهذا وأكفل ، أولئك الذين أعدوا للحرب ، والسلامة من ويلات الحرب ، مالا يتصوره العقل ، ولا يكاد يتعلق به الخيال . وهذه الطائرات المغيرة تدمدم عليهم فى أعز مآمنهم ، فتنسف الدور عليهم نسفاً ، ولا تألو حتى الشيخ والمرأة والطفل فتكا وعصفاً !

إذاً فلا نجاء ولا سلامة ، وإذا فلا بد من أهوال تذكر أهوال القيامة ؟

يا ويلتا ! أترى العقل الانسانى قد عجز عن أن يستحدث ما يقى حتى الوادعين من غير المقاتلين ذلك البلاء ، ويعصمهم من هذه المحن والأرزاء ؟

هذا العقل البشرى الذى استحدث ، فى الزمن اليسير ، كل تلك الفواتك المدمرات القاصفات سواء منها ما يتخذ سبيله سوياً فى جحر ، وما يزلزل الأرض ، وما يرمى الخلق بما لا تبلغه ثورة البراكين وما يدمر حتى الحديد المصفى من جو السماء — أترى العقل البشرى قد عجز حقاً عن أن يبتكر ما يكفل الأمن والعافية ، ولو لهؤلاء الوادعين العاجزين عن الخروج إلى معترك القتال !

إذاً فقد أصبح هذا العقل البشرى أداة لا تصلح ألبتة إلا للافتنان فى ألوان الشرور والآثام ! وإذاً فقد حق على الانسان أن يسخر من أنه إنسان ، وأن يتمنى لو يكون حيواناً من بعض الحيوان !

ترى أوصلت الانسانية إلى هذا الحد ، وبلغ العقل الانسانى هذه المنزلة من العجز؟

أظن أننا نظلم العقل الانسانى إذا نحن أنزلناه هذه المنزلة وألزمناه هذا المكان الوضيع .

فمن القدم فكر الانسان فى دفع مثل هذا الأذى واتقاء هذه المكاره بمقابلة القوة بالقوة ورد العدوان بالعدوان ، على أنه فى العصر الحديث زاد من أسباب الوقاية على قدر زيادة الموبقات فى معدات القتال . فانه فوق دفع شرور الطائرات المغيرة بالطائرة الحارسة فقد استحدثت المدافع المضادة للطائرات ، كما استحدثت المخابئ لمواراة سكان المدن ، وأجدت القناعات الواقية ، وضوعفت الهمة فى وسائل الانقاذ والاسعاف .

على أن هذا كله لا يغنى الوادعين ، إن أغناهم كثيراً ، إذاً فلا زالت كفة الشر هى الراجحة ، وصفقة البلاء هى الرابحة . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وبعد ، فحين يئست فى هذا الباب ، من الاتقاء بالوسائل المادية ، التفت إلى الوسائل المعنوية ، فاذا هناك ما هو أحصن وأمنع ، وأكفى وأدنى ، وأجل وأعظم ، وأجمل وأكرم .

بين هذه القوى المعنوية قوة لو أن الجماعات والأفراد أخذت النفوس وراضتها عليها لأمكنها ، فى سهولة ويسر ، أن تتقى كثيراً من الأخطار ، وتخفف كثيراً من المضار وتهون ما حتمته الأقدار .

هذه القوة المعنوية التى كثيراً ما تقهر القوى المادية وتظفر بها ، وتفسد عليها حسابها ، وتغلق دون الفوز أبوابها ، هى الصبر والاحتمال .

فبالصبر يقهر الجيش من هم أكثر منه عدداً ، وأجزل عدداً ، وأوفى مدداً . وقديماً قيل : « الشجاعة ، صبر ساعة » .

على أننا كيف قلبنا النظر لا نجد أن شدة انجلت ، وأزمة انفرجت ، ولا أن مسعى نجح ، وعملا كتب له الفلاح ، إلا إذا كان الصبر هو العدة ، وهو الزاد ، وهو المتكأ .

أرنى عالماً أو مؤلفاً ، أو مستحدثاً أو مستكشفاً ، وصل إلى مراده ، فنفع الناس ، وزاد فى بناء الحضارة ، وأجدى بأثره على الانسانية جميعها ، دون أن يكون الصبر هو عدته وملاكه ؟

أرونى غنياً وصل إلى الغنى وأغنى من طريقه المعبد ، إلا ببناء النفس على الصبر الطويل ؟

فى الحق أن الصبر من أجل ما أنعم الله ، على من أنعم من الناس . فليس أدفع للشر منه ، ولحرج الصدر نصيباً فى كل ما تسوء مغباته[1] .

قلب نظرك فى جميع أسباب هذه الدنيا تجد للصبر أثراً فى كل ما تحمد غاياته ، ولحرج الصدر نصيباً فى كل ما تسوء مغباته[1] .

ومما يسترعى النظر حقاً أن القرآن الكريم لم يهتف بخلة كما هتف بخلة الصبر ، تكررت فيه ولم يدع إلى فضيلة ، على كثر ما يدعو إلى الفضائل ، كما دعا إلى فضيلة الصبر . حتى لقد تكررت فيه كلمة الصبر ومستقاتها من : صبر ، يصبر ، أصبر ، الصابرون الخ

---

(١) راجع الأصول صفحة ٩٨٦ مجلد ٢ سنة ٤٨

مائة مرة ومرة ، تدور فى أربع وأربعين سورة ، وحسب الصبر فضيلة .

أن يقول الله تعالى : « وبشّر الصَّابِرِينَ . . . »(١)

ويقول فيه : « واللهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ . . . »(٢)

ويقول كذلك فيه : « واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . . . »(٣)

و « إنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ . . . »(٤)

وناهيك بمن كان الله معه . ولا شك أنه حقيق بأن يكفى الشر كله ويلقى الخير أجمعه .

والواقع أن القرآن العظيم ما كرر حديث الصبر هذا التكرير ، ولا وكد الدعوة إليه كل هذا التوكيد ، إلا لأنه مادة الفوز وعدته فى الدنيا والآخرة جميعاً .

وإذا لم تكن سبيلنا فى هذا المقال هى حصر فضائل الصبر ، واستقصاء مزاياه ، فلنقصر الحديث على ما يشاكل ما يعانيه العالم فى هذه الأيام .

والآن فانظر كيف يقول الله تعالى قوة الصبر وبأس الصابرين من المقاتلين :

« يأيها النبي حرّضِ المؤْمِنينَ عَلى القِتالِ ، إن يَكنْ

---

(١) سورة البقرة . — (٢) آل عمران . — (٣) البقرة . — (٤) البقرة وآل عمران .

مِنْكُمْ عِشرونَ صابِرون يَغْلِبُوا مائتَيْن ، وإن يَكُنْ مِنْكُمْ مائَةٌ يَغْلِبُوا ألفاً مِنَ الذينَ كَفَروا بأنَّهم قَوْمٌ لا يَفْقَهونَ . »(١)

ثم انظر كيف يقول : « الآنَ خَفَّفَ اللهُ عنكم وعَلِمَ أنَّ فيكم ضَعْفاً ، فإنْ يكنْ منكم مائَةٌ صابرةٌ يَغْلِبوا مائتَين ، وإن يَكُنْ مِنكم ألفٌ يَغْلِبوا ألْفَيْنِ باذنِ اللهِ ، واللهُ مَع الصَّابرينَ . »(٢)

فقد رأيت أن المجاهد المؤمن الصابر يغلب عشرة من عدوه ، فاذا كان فيه ضعف غلب اثنين باذن الله القوى العظيم .

وقال تعالى فى كتابه العزيز : « يأيُّها الذينَ آمَنوا اصبروا وصابِرُوا ورابِطوا ، واتَّقوا اللهَ لعلكم تُفْلِحونَ . »(٣)

وأنت ترى كيف قدم الحث على الصبر والمصابرة على المرابطة والاستعداد للقاء العدو . وذلك إشادة بفضل الصبر ، ولما يعلم الحكيم العليم من أن كل استعداد للقتال ، مهما يعظم شأنه ، إذا لم يكن مقرناً ببناء النفس على الصبر وأخذها بشدة الاحتمال لا خير منه ولا غناء فيه .

وبعد ، فلو قد مضى الكاتب فى ترديد الآيات الكريمة التى

---

(١) سورة الأنفال . — (٢) الأنفال . — (٣) آل عمران .

تحض على أخذ النفس بالصبر ، وخاصة فى ساعات الروع ، وجعل يضيف إليها الحكم والأسباب ، ويردفها بالظروف والملابسات ، لاتسع كثيراً نطاق الكلام عن المساحة المقسومة لمثل هذا المقال ، وفى القدر الذى قدمناه الكفاية إن شاء الله .

على أنه لا يفوتنا أن نزن مبلغ حاجتنا إلى الصبر فى الأيام التى نخوضها الآن ، وفيما عسى أن نلقى فى مستقبل الأيام .

نحن نتوقع غارات تعترينا من جو السماء . وقد تلحق بنا من الأذى قليلا أو كثيراً :

ومن ظن ممن يلاقى الحروب بألا يصاب فقد ظن عجزا

ولنقدر ، لا أذن الله ، أن يأخذنا الهلع والفزع ، فماذا تكون الحال ؟

لعمرى ، ليس شراً على نفسه وشراً على غيره من الهلوع الذى ضل رشده ، وفقد صوابه . وكيف لمثل هذا بالنخاس أحسن السبل لاتقاء الأذى والنجاة منه . أو استنقاذ الغير أو إسعاف المنكوب بما يهون من بلائه ويعصم عليه الحياة ؟

اللهم ليس لهذا السليب العقل ، المستطار اللب ، بشئ من ذاك يدان ، بل إنه بهلعه واضطرابه وتخبطه هنا وهناك ، لحقيق بأن يوقع نفسه فى خيلاء ، وقد يكون بعيداً عنه . ويزيد فى ويل سواه ، وقد يكون على شرف الخلاص منه . والأمثلة على هذا أكثر من أن يلحقها العد أو يحيط بها الاحصاء .

أما هذا الذى أخذ نفسه بالصبر ، فجمع فى ساعة الروع رشده ، وملك ناحية تفكيره وتدبيره ؛ فهو الجدير بأن يحكم التقية قبل نزول البلاء ، ويلتمس المخرج وقت وقوعه . ويسرع إلى نجدة المكروبين ممن عسى أن يكونوا قد أحيط بهم . وإلى إسعاف من عسى أن يكون قد مسهم الضر بما يرد الآلام ، ويعصم من العواقب الجسام !

وأخيراً ، فاذا كانت الأمم المتحاربة الآن تحسب حساباً كبيراً لما يدعونه الطابور الخامس ، فليس عندى أى شك فى أن الهلع والذعر فى مثل هذه الأوقات ، هما أخر هذا الطابور وأنفذ وأفتك .

الهلع والذعر ، هما من أفتك الآلات فى يد العدو ، بل لعلهما أفتك من كل ما تطوله يده من عدة وسلاح . ولا غرو على إذا دعوتهما من الآن بالطابور السادس .

فعلينا أن ندرع بالصبر والاحتمال . ولا ندع للجزع إلى أنفسنا السبيل . وأن نستبقى الرشد ، مهما يجشمنا من جهد . فهذه هى وسيلة النجاة والتخفيف من ويلات هذه الحياة .

أسأل الله تعالى أن يثبت قلوبنا ، ويشد متوننا ، ويكشف عنا هذا البلاء ، ويهون علينا مواقع الأرزاء ، إنه سميع قريب مجيب الدعاء .

هل يكتب لفرنسا العظيمة بعث جديد

لم يجر قلمى قط ، طوال حياتى ، بكلمة واحدة ، فى شأن من الشؤون الخارجية ؛ اللهم إلا ما كان سوقاً لعبرة ، أو ضرباً لمثل من أحداث الزمن الغابر . على أن كارثة فرنسا ، بهذه السرعة قد رجتنى كما رجت الناس جميعاً ؛ وكيف لا ترجنى وترج غيرى ، والعالم كله ، أعنى قواصيه وأدانيه ، إذا ذكر فى أية رقعة منه (العالم) تمثل الغرب ، وإذا ذكر الغرب ، حضرت ، على الفور ، فرنسا . ففرنسا هى لب العالم الحديث وجوهره ، وهى روحه ومصاصه . هى مثابة العلم ، وموطن الحضارة ؛ وهى منبع الفن ، وهى حصن الحرية والمساواة .

اللهم إن من شأن هذا ، بل من شأن بعض هذا ، أن يبعث الذهن مع التفكير والتدبير ؛ ففرنسا تسلم السلاح بهذه السرعة العجيبة ، ولا يزال لها من حليفتها العظيمة عدة أية عدة ، ومدد أى مدد ؟ ومن ذا الذى يلقى السلاح بين يدى العدو ، ويحكمه فى عنق الدولة كل هذا التحكيم ؟ هم كبار القواد الذين شابت نواصيهم فى خوض المعامع ، وقضوا العمر تحت ظلال السيوف !

لقد فكرت برغمى ، كما فكر الناس . ولقد قدرت كما قدر الناس . فخرج لى من هذا التفكير ما يهول من الاحتمال وما يروع .

وأرجو ألا تتعجل فتظن أن هذا الذى يهول ويروع هو اندحار فرنسا عسكرياً ، فان الاندحار العسكرى مما يجرى على الأمم جميعاً ، وهو مع ذلك إذا حط من هيبتها ، أو تنقص من مالها ، أو قبض من سلطانها سنين ، طالت أو قصرت ، فانها مستردة هيبتها ، متعوضة عن مالها ، باسطة سلطانها ، مهما تكن قد أنزلت بها تلك الحرب من خسار ودمار . وهذه المثل كثيرة ، منها الحاضر للأذهان ، ومنها ما لا يزال ماثلا للأعيان . ففرنسا التى ضربت الضربة القاصمة فى سنة ١٨٧٠ وسلخ من إيالاتها ما سلخ ، وفرض عليها من الغرم ما فرض ، قد ظهرت على ضاربها فى سنة ١٩١٨ ، وضربته الضربة القاضية ، وفرضت عليه ما فرضت من ذخيرة ومال ، وضربت عليه ما ضربت من سوء حال ، بل مهانة وإذلال ، لا يقدر انبعاثه بعدها أجيالا إثر أجيال ؛ ومع هذا لم تمض بضع وعشرون سنة حتى صنع بها هذا المغلوب ما شهدنا . وليس يعلم إلا الله تعالى كيف يكون المصير !

وكيفما كان الأمر ، فان انهزام فرنسا بمثل هذه السرعة ، حربياً ، إذ هو هال وراع فان مما يعزى فيه أن هذه سنة الحروب فى طول الزمان :

فيوم علينا ويوم لنا ويوماً نُساءُ ويوماً نُسر

ولا بد أن تنجلى غمرتها بعد حين ؛ ولقد مر عليك من الأمثال ما فيه مقنع للمعتبرين !

إذاً ، فلست أخشى ما أخشاه على فرنسا من هذه الناحية ؛ ولكنى أخشى على هذه الدولة العظيمة ما هو أجل وأعظم ، وما هو أكرث وأفدح .

اللهم إنى لأخشى أن يكون هذا التسليم أذاناً بانحلال هذه الأمة إلى آخر الزمان ، أو إلى بعيد من الزمان .

ولست أحيل هذا الخوف على ضرب من التنبؤ ، أو على لون من الحدث والتخمين . إنما هى المقدمات الواضحة التى تفضى إلى النتائج الواضحة . فان يكن قد ند على ضبط بعضها ، فلى إلى العذر سبيل !

وبعد ، فليس عندى أى شك فى أن للأمم أعماراً ، كما للانسان والحيوان والنبات أعماراً . وهذه الأعمار تطول وتقصر أولا فى الحدود المقسومة لكل نوع من الأنواع . وأما بالنسبة للأشخاص فى كل منها ، فيرجع طول العمر وقصره إلى أسباب وعوامل لا يكاد يحيط بها الاحصاء .

وعلى كل حال ، فان نشأة الأمم تبدأ بطفولة كطفولة الانسان ، فاذا قدر لها الاطراد فى النمو صارت إلى فتوة فشباب ، فكهولة فشيخوخة، فهرم فانحلال ففناء . هذه أطوار كل أمة ، ولكل أمة أجل .

وإنما يكون الانحلال والفناء إذا بلغت الأمة الغاية من الحضارة، واتجهت بأجل العزم إلى الغلب فى فنون الترف والنعيم . وهذه الشواهد ما تزال ماثلة فى الأمم الغابرة . ولا أريد فى التمثيل على أمم اليونان ، والرومان والعرب ، فى الشرق وفى الغرب معاً .

فليت شعرى ، هل حان حين فرنسا اليوم كما حان حين تلك الأمم جميعاً ؟ وهل تراها قد دخلت فى دور الانحلال والفناء ، كما جرى على من تقدمها من الأمم الانحلال والفناء ؟

هذا هو السؤال الذى يشغل الهم ، ويضطرب بين جوانب النفس .

وأرجو ألا يظن قارئ أن حظ أمة ، مهما يكن عظيما من العلم والفن والصناعة والمال ، وغير أولئك من وسائل العظمة ، مما يعصمها من هذا المصير . فانه لم يقض على من سبق من الأمم جهل ولا ركود حس ولا خمود عاطفة ولا شلل أيد ولا إعواز . إنما قضت عليها عوامل أخرى ، ترجع كلها إلى شئ واحد ، هو الأخلاق !

وإنما أعنى من الأخلاق ، أولا وقبل كل شئ ، تلك الصفات ، أو على الأصح ، تلك الفضائل ، التى تصل بين المرء والمجموع من إيثار المنفعة العامة والتضحية ، والفناء ، فى النهاية ، فى هذا المجموع ، وهيهات لأمة تستحق هذا الاسم أن تكون كذلك ، إلا إذا كان مجموع أفرادها كذلك . فاذا أقبل كل على شأن نفسه ، وآثر الدعة والتقلب فى ألوان الترف ، بقدر ما يتهيأ له ، وخص بأجل مساعى الحياة النفسَ والولد ! إنفرط ، ولا ريب ، عقد المجموع ، وأصبح الأفراد نثاراً يغدون ويروحون على وجه الأرض ، وهؤلاء لا يمكن أن تعدهم أمة ، وإن حصروا فى رقعة معينة من الأرض ، وإن ضمتهم جنسية واحدة ، وإن أخذوا جميعاً بقانون واحد أو بطائفة من القوانين !

ونعود فنتساءل : هل كان انهزام فرنسا وإسراعها بالتسليم إلى عدوها انهزاماً عسكرياً فحسب ، أو أن هذا الانهزام والتسليم ، إنما كان عرضاً من أعراض الشيخوخة التى تضرب أعضاء الجسم بفنون العلل والأسقام ، والتى لا رجاء معها فى قوة ولا احتمال صدام ، بل إنها النذير الحق بالموت الزؤام ؟

لقد انتصرت فرنسا فى حروبها وانهزمت مرات ، كما انتصر غيرها من الأمم وانكسر مرات . ومع هذا فسرعان ما استردت الأمم المقهورة قوتها ، ووالت سعيها الحثيث فى سبيل الحياة ، وذلك بفضل حيويتها وما انطوت عليه من الرغبة القوية فى إعزاز الوطن والتضحية بالنفس والولد والمال فى سبيل مجدها ، وإنكار الذات ، بل إفنائها فى المجموع .

وإنما حرك فى نفسى هذه المرة ، ذلك السؤال ، وشبه فيها كل ذلك الشبوب ، ما استشرى فى كثرة الفرنسيين فى السنين الأخيرة من إيثار الدعة ، والافراط فى حب الذات وعدم الاكتراث ، وقلة المبالاة بالمنفعة الوطنية من قريب أو من بعيد ، والظن بالتضحية فى هذه السبيل بقدر كبير[١] .

وأخيراً فان علينا ألا ننسى روح النشوز والتمرد التى طغت بنوع

---

(١) مما أصبح شائعاً على ألسنة الفرنسيين ، أن زوجا إذا سئل ، أو زوجة إذا سئلت : هل لك أولاد ؟ فيكون الجواب الحاضر السريع : أنجيء بأولاد ننشئهم ونربيهم ليذبحوا فى ميدان القتال ؟

خاص ، على طبقة العمال [1] . والشواهد على هذا وهذا مما يفوت جهد الاحصاء !

ذلك هو السؤال، فهل لى أن أطمع من بعض العالمين فى جواب ؟

---

(١) حدثنى ثقة جليل القدر ، أنه كان إذا هبط باريس نزل فى فندق معروف يتصل به مطعم كبير . فلم يرعه إذ شخص اليه فى صيف سنة ١٩٣٩ إلا أن يرى هذا المطعم مغلقا . فقال لمدير الفندق فى هذا ، فأجابه بأن الخدم لابد وأن ينصرفوا إذا كانت الساعة التاسعة . فمد الاطعام إلى غاية وقت العشاء يقتضى طائفة أخرى من الخدم . وفى ذلك من النفقة ما لا يحتمله المطعم بحال .

والادهى من ذلك والاغرب ما حدثنيه هـذا الصديق عن صديق آخر ثقة كذلك جليل القـدر قال : فى ذلك الصيف نفسه ركب (فلان) سيارة أجرة (تاكس) ، وسمى للسائق المكان الذى يطلبه ، وكانت الساعة الثامنة مساء إلا خمس دقائق ، فمضى به . على أنه لم تكتمل الثامنة حتى وقف السيارة وأومأ اليه بالنزول . فاستغرب صاحبنا الامر وراجع السائق فى هـذا العمل الشاذ . فكان جوابه الهادىء المطمئن : لقد انقضى وقت عملى ، وعلى ان انصرف لشأنى لا أتخلف دقيقة واحدة !

والأدهى فى هذا أن صاحبنا حين دفع لذلك السائق أجره الذى رقمه العداد ، سأله الرضيخ (البقشيش) فأبى « بالضرورة » ، فمضى السائق لا يألوه تهكما به وزراية عليه !

إصلاح

من بضعة أيام وجه صديقى الكاتب الجليل القدر الأستاذ محمد توفق دياب فى صحيفة الأهرام كتاباً إلى حضرة صاحب المقام الرفيع رئيس مجلس الوزراء . وهذا الكتاب يدور حول « الشؤون الاجتماعية » . ولا أكتم القراء أن هذا الكتاب لم يعجبنى فحسب ؛ بل إننى لا أجد حرجاً من القول بأنه أطربنى ، لأنه أحسن الترجمة عن خاطر طالما شغل نفسى ، واجتاز صدراً من همى .

ولا بد أن يكون كثير من قراء « الثقافة » قد قرأوا هذا الكتاب على أننى ألخص موضوعه تلخيصاً شديداً لمن عسى أن تكون قد فاتتهم قراءته ، ليكون حديثنا بعد ذلك بيناً ، واضح المعارف بين يدى الجميع .

استهل الكتاب بشكر صاحب المقام الرفيع على عنايته الجليلة بالشؤون الاجتماعية فى بلادنا ، حتى أنشأ لعلاجها وزارة خاصة ، وبلادنا أشد ما تكون حاجة إلى العناية « بالشؤون الاجتماعية » ، ففى الحق إننا محتاجون ، من هذه الناحية ، إلى فنون كثيرة من الاصلاح .

على أنه ذهب فى كتابه إلى أن الاصلاح المادى لا يكفى وحده

فى إدراك الغرض المنشود ؛ بل لا بد من الاصلاح الروحى أيضاً ، ويعنى به إعداد نفوس الشعب لتقبله ، وتجريد العزائم لتحقيقه والمعاونة عليه ، وضرب لذلك الأمثال مشتقة من الواقع المشاهد الملموس .

ومن هذه الأمثال ، أنه لا يكفى أن يصدر تشريع بوجوب ردم البرك ، لعصمة الفلاحين من أذى الأمراض التى يعتريهم بها البعوض ؛ فانه إذا قدر وردمت البركة أو البرك حول القرية فسرعان ما يحتفر سكانها بأيديهم غيرها لصنع الآجر أو لحاجة زروعهم إلى التراب يخلط بالسماد !

ولا يكفى أن يجرى الماء النقى إلى دورهم ليشربوا منه ، ويتقوا كثيراً من الأمراض والأسقام التى تصيبهم من شرب الماء الكدر الذى كثيراً ما يلوث بألوان المكروبات ؛ ففى الغالب أنهم سيعدلون عنه إلى التروى من هذا الماء الكدر ، إيماناً بأن الماء إذا صفا من الطين لا يجدى على الأبدان .

ولا يكفى أن تقام المرافق فى القرى ليكفل للفلاحين قضاء حاجاتهم وتطهرهم ، وكف الكثير من عاديات الأمراض عنهم ؛ فأكبر الظن أن الفلاح مُتَوَلٍّ ، فى قضاء حاجته ، إلى الخلاء ، مؤثر الاستحمام فى الترعة أو الجعفر الصغير إذا طلب ، يوما ما ، الاستحمام ، وهكذا !

إذاً ، لا بد من أن يقترن هذا الاصلاح المادى بالاصلاح النفسى ، الذى يرمى إلى ترسيخ الاعتقاد فى نفس الفلاح والعامل جميعاً بأن

هذا الاصلاح الذى يراد له أمر نافع جداً ، لا بد منه ، ولا محيص عنه لمن يريد الحياة السعيدة ، ولو بمقدار ، الحياة الخالصة من التعاسة والأسقام والأكدار ، ولو بمقدار .

هذا الاصلاح الذى يطبع الفلاح والعامل على إدراك ما ينفعه وما يضره ، ويستكرهه استكراهاً ، بدافع من نفسه لا بقوة خارجية ، على ترك ما ألف من مكروه العادات ، ولو كان هذا الألف إرثاً منحدراً من ألوف السنين .

وأخيراً ، هذا الاصلاح الذى يشعر الفلاح والعامل ، أو فى الشعور أنه عضو ، بكل معنى الكلمة ، فى هذا المجتمع ، لا خير له إلا فى خيره ، ولا سعادة لشخصه إلا بسعادته ، يشعره أنه عضو حقاً فى هذا المجتمع ، ويملأ قلبه إيماناً بأن عضواً من الأعضاء لا يمكن أن يكون صحيحاً إذا كان البون معتلا سقيما .

فاذا جرى هذا الاصلاح فى طريقه ، وسلك من النفوس مسالكه ، فحينئذ لا يخشى أن يقاوم الفلاح أو العامل ما يراد لعيشة من حماية وترقية وإسعاد . بل لا يخشى أن يعتل على هذا أو يتثاقل عن الاستجابة لدعوة العاملين المصلحين . بل إنه ليرجى ، حينئذ أن يطلب الاصلاح جاهداً إذا أبطأت عنه وسائله . وإنه ليعين على تحقيقه بكل ما يمتد إليه عزمه . بل إنه ليوجه السعى فى الحياة ، أو يوجه صدراً عظيما من السعى فى الحياة إلى ما يجدى المجموع لشدة إيمانه بأن جزء متصل تمام الاتصال بهذا المجموع ، وأن كل خير يصيب هذا المجموع هو خير له ، ولو لم يعد على شمله ، من الجهة المادية ، بكثير ولا قليل !

وبعد ، فلقد يأخذك أشد العجب إذ ترى بلادنا ، والحمد لله على السراء ، سباقة إلى اقتباس أحسن النظم فى أكثر مرافق الحياة ، وسن أحكم القوانين وأدق اللوائح ، ووضع أجل المشروعات فى مختلف نواحى الاصلاح ، مما من حقه أن يكفل لنا الأمن ، والدعة ، والرغد ، والغنى ، ورفع المستوى العلمى والثقافى ، وتحريك الأيدى المعلقة ، ومنع التشرد والتسول الخ . . . مما لا تطمع أمة على ظهر الأرض فى مزيد عليه ، أو تتطلع إلى سعادة تتراءى وراءه ؛ ومع ذلك فنحن نحن ، والحمد لله على الضراء ، لا نكاد نتزحزح فى شئ أو نريم .

سر هذا ، فى مذهب الأستاذ دياب ، أن الاصلاح لا يجدى إلا إذا تهيأت لتقبله النفوس ، بحيث يتلقاه الجمهور راضياً مغتبطاً .

وهذا حق لا ريب فيه ، على أن هناك علة جوهرية تتقدم هذه العلة ، وهى التى أحيس عليها بقية الكلام ، وهذه العلة هى أن الخمسين أو الستين عاماً التى عشناها محرومين السلطان ، معفين من الاضطلاع بالعظائم ، مقالين ، بالضرورة ، من احتمال التبعات — هذه السنون الطوال التى عشناها عيشاً آلياً أضعفت فينا الشعور الحق بالواجب إلى حد كبير !

نعم ، لقد أضعفت فينا هذه السنون الشعور الحق بالواجب إلى حد أن أصبح العامل منا إذا عمل ، سواء فى الأسباب العامة أو الخاصة ، لا يكاد يشعر بأنه يؤدى واجباً ؛ وإنما يسوقه إلى علاج ما يعالج خوف المسئولية ، وحسبان العواقب المادية . وكذلك جعل

سعينا يتحول إلى الاشكال والأوضاع ، ما دامت هذه الهياكل تسقط عن المرء التكاليف ! أما اجتماع النفس ، وحد العزم ، وتجريد الهمة لادراك الأغراض ، و إصابة الأهداف التى شرع لها المقنن ما شرع ، وأعد لها المصلح ما أعد ، فلقد صرنا من ذلك أبعد ما نكون .

الأمر كله لا يزيد عندنا ، مع الأسف العظيم ، على ملء الاستمارة ، أو سد « الخانة» ، أو « تخليص القلم » كما يقولون ، وعلى ذلك يستحيل كثير مما نعد من وسائل الاصلاح هياكل لا يدب فيها شىء من الحياة ؛ ولأضرب لك ، يا سيدى القارئ ، بعض الأمثال ، لا أعدو فيها ما يقع لسمعك وبصرك فى كل صباح وفى كل مساء .

تصدر الأوامر المشددة إلى رجال البوليس بمنع التسول فى الطريق ، وكف الغلمان المشردين من جامعى الأعقاب ونحوهم ؛ فاذا الشرط يجدون ويجهدون ، حتى تكاد تشعر بأن القاهرة مثلا قد خلت من كل متشرد أو شحاذ . وقد تظل على هذا الشعور أياما ، وقد تظل كذلك أسبوعاً ، ثم إذا المتسولون والمتشردون يظهرون لعينيك رويداً رويداً ، وهم يقومون بمهمتهم الشريفة بعين جندى البوليس .

ذلك بأن رئيسه كان يشدد عليه ، ويطالعه الحين بعد الحين ، فلما فتر عنه فتر هو الآخر عن الآخرين .

يقضى النظام الحكومى بأن يحضر الموظفون إلى مكاتبهم فى وقت معين ، وألا ينصرفوا عنها إلا فى وقت معين ، بحيث يجزى من تأخر عن الأول ، ومن تقدم على الثانى ، وقد تضبطهم بدفتر أو « بساعة »

ترقم وقت حضورهم مثلا ، وذلك رغبة فى سرعة إنجاز ما تعالجه المصالح من وجوه الأعمال ، وأنهم لينفذون هذا النظام راضين أو كارهين ؛ ولكنك ، مع هذا ، تجد المسألة ليس من شأنها أن تشغل من وقت الموظف ساعة ، أو بعض الساعة ، تلبث بين يديه الأيام ، بل الأسابيع ، بل الشهور فى بعض الأحيان ، وكذلك تعوق المصالح العامة ، وكذلك تتعطل مصالح الناس .

ذلك بأننا نحضر فى الميعاد ، وننصرف كذلك فى الميعاد ، ألسنا قد خرجنا من العهدة ، وأمنا حتى سوء المقال ؟

ولقد يكون بعض الموظفين مرهقين بكثر ما يعالجون من الأعمال ، ولكنهم ليسوا كثرة على كل حال .

وقس على هذين المثالين ما تهيأ لك القياس على أننى لا أحب أن أدع الكلام فى هذا المقام قبل أن أضرب مثلا ثالثاً قد يجهله كثير من القراء . ولعل فيه ما يروح عنهم بعد ذلك الحديث الأليم ، وإن كان هو أيضاً لا يخلو من العظة والاعتبار .

زعموا أنه فى عهد « السلطة » صدرت الأوامر إلى رجال الادارة بمصادرة جميع الأسلحة التى يحرزها الأهلون ، فجعل حضرات رجال الادارة وعلى رؤوسهم حضرات مأمورى المراكز يتبارون فى تنفيذ هذا الأمر ، استباقاً إلى إدراك الحظوة ، وتبوىء منزلة الرضا عند من فى يدهم السلطان .

ويسمع المأمور أن زميله فلاناً جمع من بلاد مركزه خمسة آلاف بندقية فى خلال الشهر ، فيأبى هو إلا أن يجمع ستة آلاف ، وهكذا ،

ويستمر التنافس بين حضرات المأمورين فى جمع البنادق حتى أقبلوا على العمد والأعيان يكلفونهم الهبوط إلى القاهرة لشراء كل ما تيسر لهم شراؤه من الأسلحة القديمة فى سوق السلاح !

وأخيراً ، عز على أحدهم ، ألا يعزهم جميعاً ، ويظفر دونهم من الحظوة بأعلى مكان ، فحشر إليه كل النجارين والحدادين فى مركزه ، وكان فى الوجه القبلى . وتقدم إليهم بأن يتفرغوا من كل ما بأيديهم إلى صنع بنادق لا تزيد على كعوب وأنابيب ، وشئ يشبه الزناد . وكذلك تم له أن يورد فى خلال عام ، وبعض العام ، نحو مائة ألف بندقية مصادرة من الأهلين !

ويشاء الله أن يرقى هذا المأمور ، فى إثر ذلك ، إلى منصب وكيل مديرية ، وما شاء الله كان !

وبعد ، فأعزز على أن أجلو عن نفوسنا هذه الخلال ! وما بى ، شهد الله ، إلا أن نتفطن إلى أمراضنا لنسعفها بالدواء الناجع إن شاء الله ، ولله در القائل : « أمر مبكياتك لا أمر مضحكاتك » ، فان من أبطال اليوم أضحكك فى الغد ، وإن من يضحكك اليوم لمبكيك طول الأبد .

على أننى لست اليوم متشائماً ، بل إننى متفائل ، والشكر لله ، أعظم التفاؤل ؛ متفائل لأننا أنشأنا ندرك واجبنا ، ونمهد لألوان التبعات عواتقنا من يوم صار إلينا السلطان فى بلادنا ؛ متفائل لأننا جعلنا ندرك ما فاتنا فى تلك السنين الطوال ، فرحنا نستدركه فى قوة وعزم ، وأرجو لها مزيداً على الأيام ؛ متفائل لأننا الآن ،

ولا ريب ، فى نهضة ترسل الحياة دراكا فى جميع نواحى الحياة . وحسبنا أن كنا إذا سيق الشاب من أبنائنا إلى الجندية ، شيعته أمه وإخوته وعماته وخالاته ، كما يشيع أعز الموتى ، وماذا بعد النواح والعويل ، ولطم الخدود ، وشق الجيوب ؛ حيث لا حرب ولا قتال ، ولا توقع حرب ولا قتال ؛ إن هو إلا تدريب عسكرى لاستعراض فى هذا المهرجان أو ذلك المهرجان ؟

أما اليوم والسيوف مسلولة ، وأفواه المدافع مفغورة ، والموت يتخطف بلا حساب من البر والبحر والهواء ، فهؤلاء شبابنا ، بل هؤلاء كهولنا يتبارون جاهدين فى إدراك الشرف بحمل السلاح ، فاذا شيعهم أهلوهم فكما تزف العروس ، وماذا أبعد أرن (الزغردة) وأحلى الغناء ؟

نحن فى نهضة قومية جليلة ، أرجو أن تجدى علينا ، أول ما تجدى ، قوة شعورنا بالواجب ، ومسارعتنا ، بباعث من أنفسنا ، إلى القيام به لأنه الواجب ، لا طمعاً فى ثواب ، ولا خوفاً من عقاب . وأن يكون ذلك الفتح فى القريب جداً ، إن شاء الله .

فى الاصلاح أيضاً

سمعت من الراديو فى ليلة من ليالى هذا الأسبوع أن زعماء الأحزاب فى إنجلترا ، وقادة الرأى فيها ، قد اجتمعت نيتهم على أن يقوموا بحملة شديدة فى جميع أرجاء الجزيرة يشرحون فيها للشعب الانجليزى أغراض الحلفاء من الحرب ، وكيف خاضوها ولماذا غامروا فيها ؟

أما أن زعماء الأحزاب على اختلاف مذاهبهم وتفرق نزعاتهم ، يتفقون على هذا ويبادرون إليه ، فذلك ما لم يقع عندى موقع عجيب ، لأن وطنية الانجليزى هكذا ، وخاصة فى الأيام الشداد ؟ وإنما الذى استرعى كل عجبى أن الشعب الانجليزى المثقف المستنير ،مابرح فى حاجة إلى من يقفه على السبب الذى حمل دولته على الاشتباك مع الألمان فى هذه الحرب الضروس .

على أن عجبى لم يطل ، فان الحلفاء إنما أعلنوا الحرب باسم الديموقراطية ، وإنما حشدوا جميع قواهم وكل كيدهم لقمع الدكتاتورية الصائلة المعربدة فى الأرض ، والتى إذا تركت وشأنها لا تنتهى عربدتها وعصفها بالأمم الوادعة عند حد . فمن حق هذه الديموقراطية على الرجال المسئولين أن يراجعوا الشعب نفسه ، ويدلوا إليه بحججهم

فيما أقدموا عليه ، وما يجشمونه فى سبيله من التضحيات الضخام ، وأن يبينوا للناس ماعسى أن يكون قد تَبَهَّم عليهم من العلل والأسباب حتى يحيطوا بالجليل والدقيق مما لا ضرر فى علم الجمهور به وظهوره عليه . وفى هذا فوق ذلك مافيه من زيادة الاستحماس للحرب ، والشد على الغرائم للقضاء على العابثين بالحضارة ، المفسدين ، وأقول زيادة لأنه بحسب وطنية الانجليزى أن يسمع من حكومته و برلمانه النفير إلى القتال ليركب رأسه أو يحتويه ميدان ، سواء فى البحر أو فى الأرض أو فى السماء !

ولا يذهب عنا بعد ذلك أن من أخطر الأسلحة التى يقاتل بها الألمان ، إن لم يكن أخطرها جميعاً ، هو سلاح الدعاية الذى لا يتحبس ولا يتوقف ، ولا يسكن ولا يبرد ، ولا يهدأ ولا يفتر ، والذى يسلكون به كل بلد و يرمون به كل قرية ، وينفذون به بالرديو إلى كل بيت ووسيلتهم فيه هى الكذب المتوالى ، والأفك المتدارك ، مصوراً فى صور ، ومجلواً على أشكال وأوضاع ، قصداً إلى توهين العزائم و إظلال النفوس باليأس . ولا تنس النصيحة الترابية القائلة : أكذب ، ثم أكذب ، ثم أكذب !

و إذا كان الانجليز هو آخر من تبلغ فيه مثل هذه الدعاية أو تنال من عزمه الجبار على الصراع ، وخاصة إذا كان صراعاً لمجد الامبراطورية فلا شك فى أن من الخير ألا يترك هذا الوطنى الشجاع المتطوع وفى نفسه من أغراض الحرب ، التى يحتسب فيها بدمه شئ أو أشياء !

إذاً فليس من العجيب ، أن يجرد من زعماء الأحزاب الانجليزية

وغيرهم من أعلام الرأى حملة لهذا الغرض أو حملات . ولكن العجيب كل العجب ألا نصنع نحن مثل هذا ونحن أحوج إليه بأكثر من الكثير !

وإنى أبادر فأقرر أن حملاتنا التى من هذا الطراز لا تحتاج ، والحمد لله ، إلى تظاهر الزعماء السياسيين واشتراكهم فى هذا السعى ، لأننا لسنا بحاجة إلى من يدلى إلينا بالأغراض التى من أجلها دخلنا الحرب ، لأننا لم ندخل بعد حرباً ، أما إستحماس الجماهير وشد عزائمه لخوض الحرب ، إذا أذن النفير ، فانه ليغنينا فى ذلك : « يا قاعد فى دارك والعالم فى نار » وأخواتها . فلقد انتفخنا استحماساً بكثرة الاستماع إليها كل يوم ، فى الصبح ، والظهيرة ، والأصيل ، ومغرب الشمس ، وفى جوف الليل ، حتى أصبحنا لا ندرى أين ننفث بعض هذا الذى يغلى فى صدورنا من شدة الاستحماس !

اللهم إن الحملات التى تحتاج إليها بلادنا أشد الاحتياج إنما هى حملات إجتماعية بحتة لا صلة لها بالحرب ، ولا سبب لها إلى الحزبية ولا الأحزاب .

نحن ألقينا حرباً أم لم نلق حرباً ، محتاجون إلى الاصلاح فى شتى نواحى الحياة . وإذا كان توقع الحرب والاستعداد ، بكل ما فى الطاقة ، للحرب لم يلفت نهضاتنا العظيمة عن التطلع إلى كثير من النواحى ، ولم يثن القائمين على الاصلاح عن معالجة ألوان من المشروعات ، قصداً إلى الاصلاح المنشود ، والحتيق بأمة تتوثب للمجد توثباً ، وتبقى الحياة كما ينبغى أن تكون الحياة — إذا كان هذا

هكذا ، فان من الحق علينا ألا نغفل ، أولا وقبل كل شى ، حقيقة ثابتة ، هى أساس كل بناء ، وجوهر كل إصلاح ، وهذه الحقيقة هى الثقة ، فاذا لم تكن ثقة فلا بناء ولا تعمير ، ولا إصلاح ولا فلاح .

وأحوج ما يحتاج إلى بث الثقة وعقدها فى النفوس هى بلاد الريف على وجه خاص .

وبعد ، فأنت خبير بأن أى علاج بعمل أو بتشريع ، يراد به إصلاح شأن الجماعات ، ورفع مستواها العقلى والخلقى ، والحط من أعباء تكاليف العيش عنها وإتياؤها حظاً من أسباب السلوى والرفاهية لا يمكن أن يؤتى ثمرته ناضجة أو فجة ، فى بعض الأحيان إلا إذا تعاونت عليه الجماعة . ولا يمكن أن تتعاون الجماعة على عمل ما إلا إذا سادت الثقة ، ثقة الأفراد بالأفراد ، وثقة الأفراد بالجماعة ، وثقة الجماعة بالمجموع . وهذا كلام بديهى لا يحتاج إلى نظر واستدلال ، على تعبير أصحاب المعقول . وإلا فكيف يتهيأ للافراد أن يتعاونوا على خير يعمهم ، ويعود على شملهم ، فى حين لا يثق أحد منهم بأحد ، ولا يقدر فيه صدق النية ، ولا رغبة الخير لغيره ، فرداً كان أو جماعة ؟

وهنا أرى من واجبى الوطنى أن أصارح بحقيقة مؤلمة ، ولكنها هى الحقيقة ، الحقيقة الواقعة ، التى لا يجدى فى زوالها تجاهلنا ، تخففاً من ألم الشعور بها ، أو تظاهراً بالوطنية المزيفة المزورة . هذه الحقيقة هى أن حكم الاستبداد والظلم الذى خلت به القرون الكثيرة ، قد طبعته على سوء الظن وفقدان الثقة ، سواء بالأفراد ، أو بالجماعات ،

أو الحكومات . ولذلك تراه شديد الحذر فى غير موضع لأى حذر ، حتى لقد يستشيرك فى بعض شأنه ، فتشير عليه بالرأى صادقاً مخلصاً ، فيعدل فوره إلى عكسه لأنه لم يقدر فيك إلا غشاً وخديعة وكيداً . إذاً فالخير كله فى العدول إلى مانهيته عنه ، وحذرته منه .

ولا شك فى أن أبلغ ما يقعد بالفلاحين المصريين عن التعاون على ما يجديهم ، ويدفع الأذى عنهم ، ويعود بالخير الكثير عليهم ، هو فقدان الثقة بينهم ؛ ولقد تراهم يساهمون فى أعمال تعاونية ؛ ولكننا نكون كذابين وغشاشين ، ومدافعين لكل إصلاح اجتماعى يراد إذا زعمنا أنهم يخفون إليها من تلقاء أنفسهم ، أو بباعث من شعورهم وتقديرهم لما فيها من نفع وخير . ولكن فتش عن العمدة ثم فتش عن المأمور ، ثم فتش عن المدير ، ولعلك محتاج إلى التفتيش أيضاً عما وراء المدير !

ولعلى فى غنى عن إيراد الأمثلة على هذا ، فهى من الكثرة والحضور بحيث يعد إيرادها ضرباً من العبث ليس فيه غناء !

على أننى أروى فى هذا الباب حكاية لا تخلو من تفكيه ، أرى القارئ محتاجاً إليه بعد كل هذا الجد الأليم ، وهو على كل حال من باب « وشر البلية مايضحك » ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

من ثلاثين سنة أو تزيد قليلا بدا لبعض مديرى الأقاليم ، أو أنه فى أغلب الظن قد أوعز إليه من بعض السلطات العليا ، أن يدعو من قبله من الأهلين إلى المساهمة فى عمل ذى صبغة اقتصادية ، تغل المائة من رأس ماله أربعة فى العام . ويلح المدير كما هى العادة

على مأمورى المراكز ، ويلح هؤلاء على عمد القرى ، ويلح هؤلاء على الأهلين . ولم يكن فى يد هؤلاء فاضل من مال ، إذا لم تكن السنة سنة رخاء . فماذا لعمرى يصنعون ليتعاونوا على هـذا الخير الاقتصادى العظيم ؟

اللهم لا حيلة لهم إلا فى أن يعوذوا بالمرابين ، فيقترضوا منهم المائة بخمسة عشر ، وبعشرين ، وبثلاثين ، ليثمروها فى هذا المشروع المبارك الذى تغل مائته فى العام الأربعة لا تزيد !

وهذه الحكاية ، ولا ريب ، ستذكرك حديث جمع السلاح فى عهـد السلطة ، وقد أوردته عليك فى « الثقـافة » من بضعـة أسابيع . وهذه وتلك إذا اختلفتا فى الموضوع فكلتاهما تلتقيـان فى الدلالة على الأسلوب الذى يجرى عليه حكام الأقاليم فى تنفيذالمشروعات التى يراد بها الاصلاح من أى نوع كان ، وهذا من شأنه حتما أن يزيد خلة سوء الثقة التى طبع عليها الفلاح المصرى من الزمان البعيد !

ومن أغرب الحوادث التى صادفتنى فى هذا الباب ، أننى ذات عشية ، وذلك من نحو اثنى عشر عاماً ، طلبت ميدان السيدة زينب ، رضى الله عنها ، لأستقل الترام إلى محطة مصر ، إذ كنت أسكن فى خط المطرية ، فرأيت خلقاً كثيرين ينتظرون ، وتبين أن الترام تعطل فى بعض الطريق لأمر ما ، وطال انتظار الناس ؛ وكلما تقدم الزمن كثر المنتظرون . وجعلوا ينتظمون جماعات يتحدثون فى أمر الترام ثم فى غير الترام . وفيما هم كذلك إذ يقبل اثنان من الفلاحين ،

تضطرب أسنانهما بين الأربعين والخمسين ، فيسأل أحدهما أول رجل من أول مجموعة يلقاها عن موقف الترام الشاخص إلى باب الحديد ، فيدله عليه ، ويشير بيده إليه ، فيسأل من يليه السؤال نفسه فيجيبه بالجواب نفسه ، ثم يسأل من يليه كذلك ، فيكون الجواب ، بالضرورة كذلك . حتى إذا فرغ من سؤال هذه المجموعة فرداً فرداً ، تولى عنها وأقبل على غيرها يسألها هكذا ، وهكذا . وأنا فى أثناء ذلك ألاحظه ودمى يغلى من الغيظ فى عروق . ورأيت من الخير أن أبعث الطمأنينة فى نفسه ونفس صاحبه ، فاكسب الأجر فى هداية السائل الضال من جهة ، وأريح نفسى من شهود هذا الالحاح الشنيع من جهة أخرى .

وتقدمت إلى الرجل وأخذت بيده ، وجررته إلى الموضع الذى كنت أنتظر فيه . وقلت له : يا سيدى ! أنا أيضاً ذاهب إلى الباب الحديد فاركب أنت وصاحبك معى ، وسننزل فى الميدان معاً . ويشاء الله ويقبل الترام . ويثب الناس إليه وثباً متسابقين فى إحراز المجالس ، ويثب الفلاحان كذلك ، وصادف أن وقع مجلسهما فى الدكة التى أمامى من المركبة مباشرة ، ولم يكد يستقر بهما المقام حتى مال ذلك الرجل السآل إلى من على يمينه يقول له : صحيح ياخويا العربية دى رايحه باب الحديد ؟ فيجيبه جاره : أن نعم . . . فيمط عنقه إلى الجالس بجواره ويوجه إليه السؤال نفسه ، فيبادره بالجواب نفسه . فينتقل بالمسألة إلى الدكة التى أمامه ، حتى إذا فر الجالسين عليها بالسؤال واحداً

فواحداً لم يرعنى إلا محاولته التعلق بمتكأ الدكة التى أمامه ليبلغ رأسه التى أمامها ، فجذبته من فضل عباءته وقلت له : يا رجل ! ألم أقل لك إننى أنا أيضاً ماض إلى باب الحديد ؟ فاطمئن وكن حيث أكون !

ووالذى بيده نفسى ، لقد كان جوابه الحاضر العاجل : « ومنين جانى إن ذمتك نضيفة ؟ »

ولقد يكون هذا الرجل غالياً مسرفاً فى سوء الظن بالعالم كله ؛ ولكن هذه الخلة على أى حال ، شائعة فى سواد الفلاحين المصريين .

وبعد ، فيأيها العاملون ! إذا كنتم تبغون الاصلاح حقاً ، ولست أشك فى أنكم تبغونه حقاً ، فعليكم أولا أن تقنعوا الفلاح ، على وجه خاص ، أنه ليس وحدة منفصلة مستقلة ، بل إنه عضو من المجموع ، شأن اليد أو الأذن أو الأنف من الجسم ، يقوى بقوته ، ويضعف بضعفه ، ويموت بموته ، وينعم بنعيمه ، ويشقى بشقائه ، ويعز بعزه ، ويذل بذله !

وعليكم ثانياً أن تشيعوا الطمأنينة فى نفس الفلاح ، وتردوا الثقة بالناس عليه ، فلا يعود مايرى أحداً من الناس إلا قدر فيه عدواً يكذبه ويغشه ، ويسعى ، جاهداً ، إلى المكر به والكيد له ما وجد إلى ذلك سبيلا !

وعليكم ثالثاً أن تكونوا موضع الحكام من قلبه ، فلا ينظر إليهم نظر الضحية للجزار ، أو نظر الطير للصائد ، على تعبير الزعيم الأعظم ،

رحمة الله عليه ، بل ينظر إليهم على أنهم كافلو أمنه ، ومتعهدو رفاهيته ويسره ، ومرشدوه إلى طرائق خيره ونفعه .

فهلم ، جردوا الحملات من الدعاة القادرين ، حتى يمتلخوا من صدور الفلاح ما غرست عهود الظلم والاستبداد . فاذا بلغتم هذا الذى فانتظروا من مساعيكم خير الثمار ، والله تعالى نصير العاملين .

فى الطفولة المشردة

من بضع ليال خلت سمعت من الراديو صدراً من الأحاديث القيمة والأزجال الطريفة التى ألقيت فى حفلة « الطفولة المشردة » . وما إن انصرف الراديو إذاعة أخرى ، حتى شغل حديث هؤلاء الطفل المشردين ذهنى ، وملك على نفسى .

هذا بصرى يتعثر فيهم فى كل شارع من شوارع القاهرة ، وكل جادة من جوادها ، وكل زقاق من أزقتها ، لا يخلو منهم مكان ، فى ليل أو نهار !

ناحلو الأجسام ، بادو العظام . حتى كأنما شدت الجلود عليها شداً ، فلم تفسح بينهما لغير العروق مسلكا . وهذه وجوه مغبرة ، كأنها بعثرت لتوها من جدث . وهذه عيون حيرى ، لا تكاد تقع على شئ حتى تتحول مسرعة ، خشية أن يعتريها المكروه من الناحية الأخرى ، فهى فى فزع دائم وروع مقيم . دائمة الوثب والتوارى خلف الجدران ، تحسب كل صيحة عليها . ولا تحسب عيناً مفتوحة إلا لتصيبها ، ولا رجلا ماشية إلا لتركلها ، ولا يداً مرسلة إلا لتتهيأ للبطش بها .

ولقد تحسب ، فى بعض الحين أنها أصابت من هذا العدو

(جمهرة الناس) الفرة ، ووافقت منه الغفلة ، فسرعان ماتنقض إنقضاض العقاب على عقبة سيجارة . فاذا هى التقطتها ولت مسرعة تضرب ذات اليمين وذات الشمال ، فراراً من الطلب الدّرّاك ليس له انتهاء ؛ ولقد تراها فى تلك اللحظة ، لحظة الأمن ، وهى تنبش الزبل فى وعائه القائم فى بعض الطريق ، لعلها تصيب كسرة أو فضالة من طعام !

هى أشباح تغدو وتروح كأنها أضغاث حلم ثقيل ! وكثيراً ما تسمع منها سعالا ينبيك عما يمزق الرئة ويتطلع منها إلى الضلوع !

جِرمٌ يُجِنّ أخبث الأمراض ، عليه خرقة تحمل بذور أفتك الأمراض ، فشأنه شأن ضغث من الهشيم قد اشتعلت فيه النار ، والرياح ترمى بشرره هنا وهناك ، فلا تأتى عليه النار إلا وقد تسعرت فى كل ما حولها من الأشياء .

مخلوقات معذبة ، وهى فى الوقت نفسه حشرات سامة تفشى العلل والأوباء فى جماعات الأصحاء .

والآن يحسن بنا أن نلم إلمامة يسيرة بالناحية الخلقية من هؤلاء الطفل المشردين . فليس الخطب فى الصحة بأشد من الخطب فى الأخلاق . وأنت خبير بأن هؤلاء لا يخرجون إلا من أحط البيئات ، وأشدها جهلا ، وأعظمها إمعاناً فى الفقر والأعواز . وهل يبعثهم على عيش التشرد إلا أن كافليهم قد ثقلوا بهم ، وصفرت أيديهم عما يرزقهم ويجمع شملهم ؟ ولقد يكون هؤلاء لكافلون من الآباء أو الأعمام

أو الأخوال أو الأخوة الكبار أو أزواج الأمهات — قد يكونون ممن يؤثرون الدعة ، ولا يجشمون النفس سعياً ، فلا يرون إلا أن يتركوا هؤلاء الأطفال فى الطرق ليشحذوا ويجمعوا أعقاب السجاير ، ويسلوا من جيوب الغافلين ما تطوله أيديهم ليظلوا هم فى أكسار الأكواخ ضاجعين هانئين !

لم تفتح قط عين مخلوق من هؤلاء على دين أو على خلق أو قانون أو أى شئ من آداب السلوك فى هذا العالم ؛ فهو إنسان ، إن صدق هذا التعبير ، مفقود الضمير . هو مخلوق لا يفرق بين الخير والشر ، ولا بين الفضيلة والرذيلة . ولا يميز الحرام من الحلال ولا يعرف ما يسوغ فى العرف وما لا يسوغ . وإذا كان مسوقاً ، بحكم الغريزة الحيوانية ، إلى ما يسد الجوع ، فانه يلتمس القوت بكل ما يتهيأ له من الوسائل ، من تكدٍّ وجمع مايعود على شمله من أعقاب السجاير ، والفحص عن فضلات الطعام ولو فى المزابل ، والسرقة ما وجد إليها السبيل . فاذا رأيته مكفوفاً عن السرقة والتلصص ، فى وقت ما ، فما كان ذلك لأن له ضميراً يزجره ، ويخوفه عاقبة السرقة عند الله وعند الناس ، بل لأنه يرى بعينه أن من يؤخذ فى سرقة ، يعاقب بالحبس المرهق ، أو بالجلد الموجع الأليم !

ولقد ترى هذا المخلوق ، إذا خلا بأمثاله ، يكاثر بما اكتسب فى يومه من الرذائل من سرقة أو غش أو إيقاع أذى بمن لم يلحقه منه أذى ، أو بتضليل من استهداه السبيل . يفعل هذا فى زهو يشبه الافتتان !

فاذا رأيت هذا منه فاعذره ، فهو لا يدرى ألبتة أنه يجرم ، بل أنه لا يدرى ألبتة ما الاجرام !

وبعد ، فاذا جاشت فى صدر هذا المخلوق عاطفة ، فالحقد الشديد على هذا المجتمع الأثيم الذى لا ينفك يؤذيه أو يحاول أذاه أنى وجده ، ويجهد فى الحيلولة بينه وبين الكسرة يمسك بها الرمق ، ولو التمسها فى وعاء السرجين ، وينفس عليه حتى بالضجعة فى ظل جدار على عذار الطريق !

هو مملوء حقداً واضطغاناً على هذا المجتمع ولو وجد السبيل لحرقه بنار السعير . فاذا كتبت السلامة من العلل لهذا الشقى الصغير ، وقدر له أن يشب ويكبر ، فانظر أى صائل فاتك من هذا الغلام يكون ؟ فاتك حاشاً له أن يزجره عن أعظم الاجرام زاجر من ضمير أو دين أو من رحمة أو من قانون !

وبعد ، فان هذا الصنف من الأطفال يشغلون مع الأسف العظيم، نسبة غير يسيرة من مجموع الأمة . فلا ينبغى أن يزهينا إطراد الزيادةفى العدد ، إذا كان قدر عظيم من الزائدين من هذا الطراز !

على أنه لو تيسر لنا أن نسقط جميع هؤلاء من التعداد ، لأنه لا جدوى منهم على الأمة ، بل لأنهم غير أكفاء للحياة . لو تيسر لنا أن نستطهم من الحساب لهان الخطب ، ولكنهم فى جسم الأمة عضو متآكل ، لا يلبث أن يمتد بالفساد وأسباب العطب إلى ماحوله من الأعضاء . فهم أداة متنقلة جوالة لنشر الأوبئة فى الصحة

وفي الأخلاق . إلى ما يؤذون به غيرهم من السرقة والعدوان .

إذاً فكيف الحيلة فى دفع هذا البلاء الكبير عن البلاد ؟

اللهم إننى لا أظن أن العلاج النافذ فى أن نبث الجمعيات ،ونجمع الأموال لنتلقط هؤلاء الغلمة من الطرق والأزقة ، ونحشرهم فى الملاجئ والمصحات .

نعم ، ليس يجدينا هذا كثيراً فى دفع هذا البلاء ، مادامت هذه البيئات قائمة على هذه الصورة ، وما دامت الأرحام فيها تدفع الأطفال من غير حساب !

إن الداء لا يحسم بتلقط هؤلاء المشردين وحشرهم ذلك الحشر ، مهما تتهيأ لنا الملاجئ ويحصل فى أيدينا من جلائل الأموال .

لست أزعم أن إنقاذ هؤلاء الأطفال بايوائهم إلى الملاجئ ، وتعليمهم ما يفتح عقولهم ، وينير بصائرهم ، ويوقظ ضمائرهم ، وتمرينهم فى ألوان من الحرف تجديهم إذا انحدروا إلى ميدان الحياة . لست أزعم أن هذا القدر لا تجدى ولا يفيد . بل أزعم أنه يفيد بعض الفائدة على أن هذه الفائدة لا تعدد تلطيف العرض ، ولكنها لا تحسم العلة ولا تجتث جرثومة الداء .

إن من تدفع الأرحام كل يوم من هذه البيئات هم أضعاف أضعاف من يستطيع الخيرون السعى إلى إنقاذهم على هذا الوجه ، بحيث يرى المصلحون أن سيلهم سيظل متدفقاً على المدن لا ينقطع له مدد .

والرأى الذى أرى ، أن يبدأ المصلحون العاملون ببحث هذه المعضلة الخطيرة من عند أولها ، لا من عند آخرها ، بالنظر فى رفع

المستوى العقلى والصحي فى تلك البيئات الوخيمة ، وتقييد الزواج بالقدرة على كفالة الولد ، أو السعى إلى منع تسرب الولد إلى هذه الحياة ، مادامت هذه سبيله فى الحياة . على أنه يجيز ذلك أئمة الشرع الكريم . ولا ضير ، بل من الخير أن يظل هذا الانقاذ قائماً حتى يكتب لجسم الأمة البرء والشفاء ، من هذه العلل والأدواء .

فى الاجراءات

فى آخر تقرير أصدره اللورد كرومر ، المعتمد البريطانى ، عن مصر ، وكان ذلك ، على ما أذكر ، فى سنة ١٩٠٥ أو ١٩٠٦ ، أراد أن يشهر الادارة المصرية تشهيراً قاسياً ، فروى الحادثة الآتية ، قال: ضلت أتانة صغيرة لرجل من أهل قرية فى الصعيد الأعلى ، فبادر بابلاغ العمدة ، وهذا أبلغ « النقطة » وهذه أبلغت المركز ، وأنشأ المركز يتخذ الاجراءات اللازمة فى مثل هذه الحال ، من التحقيق مع الرجل أولا ، ومع الجيران ثانياً ، ومع من عسى أن يكون قد رأى من الناس أو سمع ثالثاً . ثم جعل يراسل المراكز الداخلة فى سلطان المديرية ، وهذه تراجع فى الأمر ما دونها من نقط البوليس . وبعد لأى جعل يراسل ، بوساطة المديرية ، المحافظات والمديريات الأخرى . وهذه تراجع مايدخل فى سلطانها من الأقسام والمراكز . وهذه تراجع مادونها من نقط البوليس فعمد القرى ، وهكذا . ويدوم البحث عن الأتانة الضالة ، على هذا الأسلوب ، بضع سنين ! ولقد فاتنى أن أذكر لك أن صاحب الأتانة قوّمها ، فى أثناء التحقيق ، بثلاثين قرشاً صاغاً لا تقل مليما !

ولقد بدا للورد كرومر أن يحصل الجهود والأموال التى بذلتها

الحكومة فى هـذه السبيـل ، وكيف سوت أكواماً من الملفـات « الدوسيهات » ، وما يرى فيها من الأقلام ، وما نفد من المداد ، وما سود من الورق ، وما اضطرب به البريد فى أرجاء البلاد ، وما استهلك من وقت الموظفين الذين لا يحصون عداً . ومع هذا لم تهتد الادارة ، إلى تلك الحمارة . وهذا مع الأسف العظيم .

وحدثنى الثقة الصادق ، وذلك من ثمانية عشر عاماً ، قال : ضلت حمارة (أيضاً) لرجل يقيم فى قرية من أعمال إحدى المديريات فى الوجه البحرى ، فأسرع إلى إبلاغ المركز ، وهذا أحال التحقيق على أحد حضرات معاونى الادارة ، ولم يمض غير قليل حتى قدم إلى ديوان المركز ، رجل آخر وهو يقود حمارة قال إنه رآها على «السكة الزراعية » وليس يقودها أو يسوقها أو يرعاها أحد . فأحيل التحقيق فى هذا البلاغ على حضرة معاون إدارة آخر ، وظل ذلك يحقق إبتغاء الاهتداء إلى الحمارة ، كما ظل هذا فى الحجرة المجاورة ، يحقق ،إبتغاء الاهتداء إلى صاحب الحمارة . وطالت الحال على هذا أشهراً ، ولعلها كانت تطول سنين ، لولا أن المصادفة السعيدة وحدها كشفت عن الصلة بين الحمارة وفاقدها ، فردت عليه بعد استيفاء الاجراءات أيضاً !

وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عيناً بالأياب المسـافر

وإليكم ، يا معشر القراء ، ما هو ألذ وأبدع . . .

لاحظ مأسور قسم ثانى أوقاف ، وذلك فى سنة ١٩١١ ، وكنت يومئذ موظفاً فى سكرتارية ديوان الأوقاف – لاحظ هذا المأسور أنه كلما مر فى ميدان العتبة الخضراء وجد دكاناً بعينه مغلقاً ، وهذا الدكان داخل فى وقف المكاتب والمدارس . فلما كثر ذلك وطال عليه الزمن ، كتب إلى الديوان العام يسأل عن السبب فى انغلاق هذا الدكان تلك المدة الطويلة ، فى حين أنه مما يغل أغلى الأجور؟

وانتهت المكاتبة إلى القسم المختص ، ولكنه بعد البحث والتفتيش الأسابيع أو الأشهر ذات العدد ، لم يهتد إلى السبب أيضاً . فجعل يراجع الأقسام الأخرى التى يقدر فيها علما بالخبر ، واحداً بعد واحد، فلم تهتد هى الأخرى إلى شئ أبداً !

وأخيراً ، وأخيراً جداً ، تنبه أحد الموظفين إلى أن دكاناً من دكاكين وقف المكاتب والمدارس فى العتبة الخضراء كان يقوم فى شأنه نزاع بين الديوان وبين المستأجر ، وهو من رعايا إحدى الدول الأجنبية .

وهنا جد القسم فى الطلب ، وأنشأ يقص الأثر أعنى أثر الورق ، حتى انتهى إلى أن ذلك النزاع رفع إلى المحكمة المختلطة وموضوعه تأخر المستأجر عن أداء الكراء . وبعد الحكم ابتدائياً عليه بأداء المتخلف والاخلاء ، رؤى أن الرجل قد يبعد أجل التسليم باطالة مدة النزاع ، ولا يعرف له مال يرجع عليه ، وهو لم يدع فى الدكان إلا بضعة كراسى ونضداً (ترابيزة) من القش ، وكل ذلك لا يقوم بأجر أسبوع واحد من أجر هذا الدكان .فرأى قسم القضايا ، إقتضابا

لهذه الخسائر أن يصالح هذا المستأجر على تسلم الدكان . أما المتأخر من الكراء فالعوض فيه على الله !

المفتاح فى الدسييه

ولما اهتدى أخيراً إلى حضرة المحامى الذى تولى الصلح عن الديوان ، وسئل كتابة عن مفتاح الدكان ، وقع « أشر » على الورق رحمة الله عليه ، « المفتاح فى الدسييه » ! وكذلك تهيأ فتح الدكان ، بعد ما أصدأ غلقه طول الزمان !

على طرف وقفه

على أن الرواية لم تتم فصولا ، فانه لم تمض بضعة أسابيع على هذا الكشف الأثرى الخطير « المفتاح فى الدسييه » حتى رفعت إلى المجلس الأعلى مذكرة توج جبينها بهذا العنوان : « أطلب رفع مبلغ . . . على طرف وقفه » ، وهذا تعبير مصطلح عليه ، كلما عرض مايدعو إلى التجاوز عن قدر من المال عجز الديوان عن تحصيله لافلاس أو هرب أو نحو ذلك .

أتدرون ، يا سادتى القراء ، ما مقدار هذا المبلغ الذى رفع على طرف وقفه فى هذه القصة الطريفة ؟ إنه لا يزيد على بضع عشرات وأربعمائة وألف جنيه فقط لاغير !

ولقد كان هناك إلى وقت قريب ، تقليد مأثور ، مقدس مرعى

عند الكثرة من موظفى الحكومة . وهذا التقليد المقدس هو «ركن» الورق فى الأدراج قبل إنجازه والنظر فيه . وهذا « الركن » تتفاوت مدته بتفاوت العوامل التى تضطر الموظف إلى استخراجه وتحريكه . فاذا ما بادر أحد الموظفين بانجاز ما بين يديه من غير قوة مرغمة قاهرة ، اتهم من هذه الكثرة بالغفلة ، وعد « غشيما » حيناً ، ومجازفاً أحياناً !

وبسبب تعطل مصالح الناس ، بحكم هذا الحال ، وضياع المنافع عليهم ، فى بعض الظروف ، نجمت فى مصر مهنة لا أحسبها معروفة لأية أمة من أمم العالم ، وكانت تدر على محترفيها المال بقدر غير يسير .

ذلك بأنك إذا طفت فى الصباح بالمقاهى التى تقرب من دواوين الحكومة ، رأيت طوائف من الأفندية يجلسون وعيونهم تشك كل صادر ووارد من الناس ، ومن سكان الريف على وجه خاص . وهم يدعون : « الأفندية اللى بيجروا ورا الورقة » .

فاذا ما كانت لأحد حاجة فى بعض الدواوين أتحف أحد هؤلاء بريال أو بنصفه مقدماً « ليجرى عنه وراء الورقة » وسرعان مايشمر عن ساعده ، ويهبط على حضرة الموظف الذى بين يديه المسئلة ، أو على الصحيح فى درج مكتبه . ولا يزال به حتى يستخلص الأوراق منه . ثم يمضى وراءها إلى موظف آخر ، ثم إلى آخر ، وهكذا لايزال يحجل بين سى مرسى أفندى ، وسى عبدالتواب أفندى ، وسى خلة أفندى ، وسى متى أفندى يلح فى رجاء هذا مرة ، ويضحك هذا مرة ، ويروى لذلك حديثاً طريفاً ، ويتشفع إلى آخر بأحب الناس

إليه وأكرمهم عليه ، حتى يفضى بالمسئلة إلى الرئيس المختص ، وكذلك ينتهى الأمر بسلام . ويشترى الرجل وقته ، ومنافعه وكرامته التى تبتذل كلما طلع على موظف بين يديه أمره يشترى الرجل كل هذا بدراهم معدودات ، ويستخرج حقه من لهوات الآساد ، والله على كل شئ قدير .

وبعد ، فلقد كان هذا كله ، وكان أعجب من هذا كله ، فى وسائلنا الادارية ، إلى وقت قريب . أما الآن فلا أدرى ولا أظن . فاذا كانت قد بقيت منه بقية فأحر بهذه النهضات القوية أن تكتسحه بين يديها ، وتطهر الدواوين الحكومية من هذا التعفن الذى يضرب فى مصالح الناس بهذا القدر الجسيم .

خواطر فى الصيف

بين الصيف والحر

قبل كل شئ ينبغى أن نفرق بين الصيف والحر . فالصيف هو صدر من العام له من الأيام مبدأ ونهاية رسميان ، يعرفهما أصحاب الفلك ، وتدل عليهما التقاويم ، أما الحر فهو وقدة الجو وسخونة الهواء . على أن بين الصيف والحر علاقة هى أن الصيف ظرف والحر مظروف ، أعنى أن الحر يقع ، عادة فى فصل الصيف ، كما يقع البرد، عادة ، فى فصل الشتاء ، وإن كانت تختل هذه العادة فى بعض الأحيان ، فيلفح الحر فى هذا كما يقرس البرد فى ذاك .

وإنى أنتهز هذه الفرصة فأقرر أن من التجوز الشديد تقسيم الفصول فى بلادنا إلى أربعة ، أسوة بكثير من البلاد الأخرى : صيف ، فخريف ، فشتاء ، فربيع . وأقول : من التجوز الشديد ،لأننا لا نكاد نحس هنا إلا حراً وإلا قراً ، فاذا اعتدل الجو فى بعض الأيام فذلك نادر لا يستقيم به القياس فى الأحكام . وإلا فخبرنى بعيشك أين الربيع فى مصر ؟ اللهم إن أكثره لمحدود فى وقدة الحر ، وصدره منكمش فى قبضة الشتاء !

ثم أين الخريف ؟ أستغفر الله ، فالخريف فى بلادنا أعرف من

أن تلتمس له وجوه التعريف ، فهذه الحميات أشكال وألوان ، وهذه الأوباء صنوان وغير صنوان ، من تيفود وتيفوس ، ومن أنفلونزا تقصف الأعمار وتخترم النفوس .

الصيف

ولقد تسألنى : أى الفصلين أحب الفصلين إلى أهل مصر ؟ فأجيبك من فورى غير متردد ولا متفتر : إن أحب الفصلين إلى المصريين ، على وجه عام ، هو الصيف . الموسرون والبائسون فى هذا الايثار بمنزلة سواء ، وإن اختلفت فيه السبل ، وتباينت الأسباب والعلل .

فالموسرون يحبون الصيف لأنهم يشدون فيه الرحال إلى أوربا ليصيبوا من اللهو واللذة إلى منتهى الجهد ، ويبلغوا الصبا أو التصابى غاية الأثر ، فاذا صرفهم عن الشخوص إلى الغرب صارف ، فهناك المتسع فى قصور الرمل ، والتقلب فى المتع على سيف البحر (البلاج) .

وأما ثلاثة أرباع الموسرين وأنصافهم ، وأعنى جمهرة الموظفين ، فيحبون الصيف لأنهم يتحررون فيه من كد العمل ، ويخرجون فيه بالاجازات السنوية إلى الغرب أو إلى الثغور المصرية ليصيبوا مايصيب الموسرون ، فمن لم يستطع هذا ولا هذا فحسبه الراحة والدعة ، وهيهات أن تضيق به الدنيا وفى الضواحى سعة . وطلاب العلم وسائر التلاميذ ، ففى الصيف عتقهم من رق المذاكرة والدرس ، وإطلاقهم من إسار الجسم وإسار النفس .

هذا ما كان من أمر الموسرين وأشباه الموسرين ، والوجه فى فى إيثارهم للصيف وتعجلهم لمقدمه طوال العام . أما المقترون البائسون فلعل حبهم للصيف أشد ، و إيثارهم له أعظم . فقد علمت ، حفظك الله أن برد الشتاء يحتاج إلى التدثر وتلفيف عامة الجسم بمختلف الثياب ، وقد لا يغنى منها إلا المتين الصفيق ، كما يحتاج إلى اتخاذ الفراش و إثقال الغطاء ، والتماس وسائل الدفء خلاصاً من حدة البرد وتفادياً من أذى الضر .

ثم إن البرد كما تعلم ، يفتح اللهاة و يهيج الشهوة إلى الطعام ، ويسرع بالهضم ، وتدعو الطبيعة فيه إلى موالاة الأكل تحريكاً للدم ، وبعثاً للحرارة فى الجسم ، وكيف للمعسر ، إذا واتى نفسه بكل هذا بمواتاة الولد ، وسد جوعهم ونهمهم ، ومطاوعة شرهم وقرمهم ، إلى مايقتضى من النفقة فى الثوب والرداء ، والفرش والغطاء ،والقدة والاصطلاء ؟

أما الصيف وحبذا وقدة الحر فى الصيف ، فهى كما تعلم أيضاً ، مما يسد اللهاة ، ويقبض شهوة الطعام ، ويفتر الجسم ، ويخذل المعدة ، ويأبى عليها الحركة إلا بقدر يسير . فهى فى هضم الطعام محتاجة إلى الزمن الطويل ، فاذا زاد الطعام فى القدار أو أكثر فيه الدسم أثقلها وأبهظها ، وأغناها بالوجبة الواحدة فى اليوم الأطول .

وأما الرداء فخيره أخفه وأشفه . وأما المنام فعلى جلدة السطح أو بين يدى الباب ، وإلا ففى عذارى الطرق متسع للجميع .

أصدقت الآن أن الصيف أحب إلى الفقراء أيضاً ، وآثر عندهم

لرفقه فى أبواب المعيشة بهم ، وتخفيفه فى وجوه النفقات عنهم . ولاتظن أن وقدة الحر ترهقهم كما ترهقك ، وأن شدة القيظ تبلغ منهم بعض ماتبلغ منك . فانه لا يصنع بك هذا إلا تعود الترف و إرسال النفس فى فنون النعيم . وحسبك أن تتفضل بزيارة شارعنا فى منتصف الساعة الثالثة بعد ظهر يوم حلقت حرارته إلى السادسة والأربعين ، لترى هذا الذى يحمل على رأسه هرماً من البرتقال أو الموز أو التفاح . وهذا الذى يدفع بين يديه قطاراً من « الشمام » أو « العجور » أو « الخيار » . وذاك الذى يقود برذوناً يجر عربة بترول ، وهو لا يفتأ يلهبه بالسوط ليتحرك ، لأن هذا البغل إنما يضيق بالحر ويتخاذل به بالاصالة عن نفسه وبالنيابة عن صاحبه . حبذا لو جزت بشارعنا فى تلك الساعة وسمعت من حناجرهم ذلك الصريخ ، لتشفق على النوام من سكان الأرض والايقاظ من سكان المريخ ، ولجزمت من أن واحد من هؤلاء لو كان يستشعر قيظاً أو يحس حراً ، ما استطاع دفعاً ولا استطاع جراً ، ولكان جهده نفثاً ، وصياحه لهثاً ! آمنت بالله المعين !

مصايف

على أن الله الذى قدر الأرزاق على بعض عباده قد مد لهم أسباباً من المتاع والسلوى والتفرج من كد الأيام . و إن للمعسرين من أهل القاهرة وغيرها من كبريات المدن لمصايف جميلة لا يكلفهم غشيانها من النفقة جليلا ، بل إن شاءوا لا يجشمهم فتيلا . وحسبك

أن تسلك فى ساعة الغروب من أيام الصيف هذه « الكبارى » التى تصل بين شقى القاهرة ، لترى أفاريزها تموج موجاً بالواقفين المطلعين على النيل ، المتنسمين نسيمه العليل . وأكثرهم من الشباب وأكثرهم هؤلاء تجدهم chacun avec sa chacune! ومن سنين يسيرة كنت ترى جميع هذه « الشاكينات » ملففات فى الملاء . أما الآن ، فترى كل ملاءة قد إنحسرت عن فستان أو شبه فستان !

وقلت لك إن هذه المصايف لا تجشم الرواد شيئاً ، فالرجل هى المركب فى الغدو والرواح . والمرتع ظهر « الكوبرى » فاذا أتحفت « الشكينة » من الحلوى بما يساوى « تعريفة » ، فحبذا الهدية الثمينة والتحفة الطريفة !

وأخيراً فانى لا أحب أن أنصرف عن هذه الخواطر العجلى دون أن أثبت ملاحظة ، أو على الأصح ، دون أن أدل على ظاهرة طبيعية اختص الصيف بها مصر دون سائر بلاد الله .

هذه الظاهرة العجيبة أن هناك اتفاقاً وثيقاً لا شك أنه أوثق من اتفاق دولتى المحور ، بل إنه لأشد وثاقة من الاتفاق بين إنجلترا وفرنسا القائم فى هذه الأيام . وهذا الاتفاق الوثيق المتين معقود بين الطبيعة و «وابورات» الثلج فى مصر . ومقتضاه أنه بمجرد ارتفاع درجة الحرارة إلى الحد المرهق تنكسر « وابورات » الثلج من تلقاء نفسها كسرا لا يجبره إلا اعتدال الجو وابتراد الهواء . و برغم أصحاب تلك « الوابورات » و برغم الثلاجين المساكين يرتفع ثمن « اللوح »

إلى العشرين والثلاثين والأربعين ، ولا حــول ولا قــوة إلا بالله العلى العظيم .

أصدقت الآن أن هذا الاتفاق أوثق خمسين مرة من الاتفاق بين من ذكرنا من الدول !

وحاشا أن يبلغ اتفاق الساسة مهما كانوا من الأبرار ، إتفاقاً تعقده الطبيعة وتبرمه الأقدار !

فى التليفون

لقد أدركنا من صدر نشأتنا جمعيات كانت هنا وهناك من أحياء القاهرة وغيرها من المدن الكبرى . وهذه الجمعيات كان يغشاها كل من يشاء ، إذ تلقى فيها الخطب ، وتعقد المناظرات ، يتولى أطرافها فى الغالب ، متقدمو الطلاب ، وحديثو العهد بالتخرج من المعاهد والمدارس .

ولعل أهم الأغراض من قيام تلك الجمعيات ، إذا لم أقل غرضها الفذ ، إنما كان التمرين فى الخطابة ، وتعويد الألسن الانطلاق فى المجامع والمحافل . فكنت تسمع المحاضرة فى منافع الهواء ، وفى مزايا الشمس ، وفى فضل الماء على الخليقة مثلا . كما تسمع المناظرة فى المفاضلة بين السمك واللبن ، ولا تنسى « فيض المنن ، فى تفضيل السمك على اللبن » ، والموازنة بين القطار والتلغراف « السلك والوابور » .

وأرجو أن تصدقنى إذا زعمت لك أنه كانت تعقد المناظرات أيضاً فى المفاضلة بين العلم والجهل ؛ على أنه كان يتقدم للكلام فى تفضيل الجهل على العلم من يظن أنه أنطق المتناظرين لساناً ، وأطلقهما بياناً ، وأسطاهما قولا ، وأحضرهما حجة . حتى إذا ما ظهر على خصمه ،

وأدحض على فضل العلم دليله ، كان ذلك دليلا على فضله هو وسبقه فى حلبة البيان ! وما ضر مادام الغرض التمرين فى الخطابة ، وشحذ ملكة الجدل ، والتماس وجوه الأدلة على صحة الرأى واقعاً حيث وقع من الصواب والسداد ، أو من البطلان والفساد ؟

وبعد ، فلا ريب فى أنه أصبح سمجاً كل السمج بكاتب أن يقول اليوم فى منافع التليفون ، وما يوفر من الوقت فى الكثير من قضاء الحوائج ، وما يسرع بالأسعاف فى الكوارث ، ويعين على ضبط الأمن وكف العوادى ، ويؤذن بالأسعار ، لوقتها ، فى التجارات الهامة فلا يغبن بائع ولا شار ، وييسر المشافهة بين الأقرباء ، والأصدقاء ، والأحباء ، على بعد المسافة ، وطول المدى ، الخ . الخ . الخ .

إذا كان سمجاً بكاتب أن يعرض لمثل هذا فى الزمن الذى نعيش فيه ، فما أحسب أنه سمج بأحد أن يشكو التليفون ، وما يبلغ من أعصاب الناس هذا التليفون !

ولعل قائلا يقول : ما بال فلان يعبر عن هذه الأداة بكلمة « تليفون » ، ولا يعبر عنها « بالارزيز » التى اختارها المجمع اللغوى؛ وهو أول الناس باتباع ما يقر المجمع من تسميات ؟

وفى الحق ، لقد كانت هذه الكلمة شؤماً على المجمع ، وكانت مفتاحاً لكل ما أمطر من تندر وتقليس لا أشك فى أنهما كادا يعوقان سعيه ، إذا لم يكونا قد عاقا منه بقدر عظيم أو يسير ؛ إذ المجمع برئ ، برئ ، برئ ؛ فلا هو أطلق على التليفون إرزيز ، ولا هو نظر قط فى لفظة « إرزيز » ، ولا عرض ، ولا عرض ، إلى هذه الساعة ،

لتسمية التليفون وكيف يدعوه . وكل مافى الأمر أن للمجمع مجلة يصدرها طوعاً لحكم المرسوم الصادر بانشائه . وهذه المجلة مقسومة إلى قسمين : قسم رسمى ، وينشر فيه مايصدره المجمع من قرارات ، وما ينتهى إليه رأيه فى التسميات والتعبير عن المصطلحات . وقسم غير رسمى يكتب الكاتبون فيه من أعضاء المجمع وغيرهم مابدا لهم من بحوث لغوية ، ويقترحون فيه مايشاءون من تسميات ومصطلحات ولا يعد المجمع مسئولا ، ولا يمكن أن يعد مسئولا عن شئ من هذا ، ولا يقال إنه صادر عنه بحال . وكلمة « الارزيز » ، خيبة الله عليها ، هى من هذه المقترحات فى القسم غير الرسمى ، لا أكثر ولا أقل ، أما « شاطر ومشطور وبينهما طازج » وأخواتها ، فهى من بدع النكتة ، ومن خلق المقلسين !

نعود ، بعد هذا ، إلى التليفون ورزاياه ، بعد أن آمن كل الناس بمنافعه ومزاياه :

التليفون : عصمك الله من كل مكروه ، كما تعرف ، أداة سريعة للتخاطب ، سواء فى قضاء الحوائج ، أو فى دفع الكوارث ، أو فى الاستنجاد فى الأحداث ، أو نحو ذلك ؛ على أن الكثيرين منا نحن المصريين ، والسيدات على وجه خاص ، لا يفرضون له ذلك ألبتة ، بل إن بعضهم وبعضهن لينظمونه فى جملة الآلات الموسيقية ، كالعود والقانون والبيان ، كما دعاه المجمع اللغوى ، والكمان مثلا . فاذا أنعم الله على سيد أو سيدة من هؤلاء بالتليفون فى دار صديق أو غير

صديق ، جعل يتحدث ويتحدث ، ما يكل ولا يمل ، ولا يتعب ولا ينصب ولا تقفه شهقة ، ولا يختلج له فك ، ولا ينقطع له نفس ، بل لعله فى لذته واستمتاعه أمرح من مستمع إلى عود صناع ، أو قانون ضارب حسان !

ومما حدثنى به الثقة الصادق أن سيدة من صديقات أسرته ، تختلف إليها للزيارة فى أكثر الأيام ؛ وما بلغت الدار قط إلا عدلت من فورها إلى التليفون ، فتكلمت ثم تكلمت . حتى إذا أذن الله للكلام بختام ، رفعت السماعة ثانياً ، وافتتحت مع آخرين حديثاً آخر ، وهكذا حتى إذا تمت لها ثمانية أحاديث أو عشرة ، قامت فجلست إلى صواحبات الدار ، وما إن تفرغ من شرب القهوة بعد السلام وبث الأشواق ، وما إلى ذلك ، حتى تهرع إلى التليفون أيضاً ، فتعيد مابدأت ، وتستأنف من الأحاديث ماقطعت ، وهكذا ! . . .

قال صاحبى : ولقد أقبلت هذه السيدة ذات يوم ، وأنا جالس فى غرفة قريبة من آلة التليفون ، بحيث أسمع برغمى الحديث فى يسر ، فأنا أشد الناس كراهة للتسمع على الناس ، ورحت أعد « النمر » التى تطلبها ، فاذا هى ست عشرة ، قد استهلكت جملة الأحاديث فيها مايقرب من الساعتين . وأنى أستطيع مطمئناً على دينى وضميرى أن أحلف لك ، بكل ما يحلف به البار والفاجر ؛ على أنه ما سقطت إلى أذنى من كل ذلك كلمة واحدة تدعو إليها ضرورة ، أو تبعثها حاجة ، أو تنفع فى أى شئ ، أو تضر فى أى شئ ، أو يترتب عليها فى يوم من الأيام أى شئ !

وحدثنى صديق من الظرفاء قال : كنت جالساً فى مقهى (كذا)، وكان ذلك فى شهر يوليه ، وكان اليوم شديد الحر ، وبدا لى أن أتحدث فى التليفون إلى صديق فى شأن عاجل ، فاذا مقصورة التليفـون مشغولة برجل يتحدث جاهداً ، ويهز رأسه هزاً عنيفاً ، كأنما يوقع به على نبر الـكلام ، أو يمسك « الواحدة » على تعبير أصحاب الموسيقى . وانتظرت طويلا عله ينتهى ، فلم ينته ، فعدت إلى مجلسى حتى مضى نصف ساعة أيضاً ، ثم نهضت فنقرت له على الزجاج أتعجله فالتفت إلى ، وإن كان فمه لم يلتفت ، وجمع أطراف أنامله ، وأشار إلى بالتمهل ، فأمهلته ، حتى سمعته يحيى صاحبه تحية الختام ، ثم لم يرعنى إلا أن يستأنف الحديث فيقول لصاحبه : « إلا قل لى » ويمتد الحديث شوطاً اخر ، فاذا أذن الله وسمعت منه « نهارك سعيد بقى » مثلا ، فتنفست الصعداء ، كما يقولون ، عاد فقال : « لـكن ماقلتليش على كذا » ، وهكذا حتى كدت أخرج من جلدى ، ولم يغظنى أكثر من أن أسمعه يقول فى وداعه لمحادثه : « بكره إن شاء الله نتقابل فى محل كذا » ، فاقتحمت عليه المقصورة ، وقلت له : « يا أخى! لقد سرقك الـكلام ، فلقد صرنا بعد بكرة ! »

ولا تظنن أن هذا الرجل وتلك السيدة من الشواذ فينا نحن المصريين ، وأرجو ألا يغيب عنك أن هذه الاطالة التليفونية قد تجر أحياناً إلى أخطار ، بل لقد تجر إلى أشد الأخطار . فلقد يطلبك قريب أو صديق ، أو أى إنسان بينك وبينه عمل ، ليحدثك فى أمر عاجل ، فلا يصل إليك ، حتى يفوت الوقت وتفلت الفرصة ، وتضيع المنفعة أو تقع المضرة !

ولقد يحدث لبعض أهل الدار حادث من جرح ينزف الدم ، أو يكسر العظم ، أو تسمم ، أو نحو ذلك ؛ فيلتمس طبيب الأسرة فى المقهى الذى اعتاد أن يقضى فيه بعض الليل ، فاذا التليفون يئز الساعات الطوال ، مايسكن فى أثنائها لحظة ولا ينقطع ، ذلك بأن « دُغْـفاً » من زبائن القهوة يحدث صديقاً . . . فاذا شاء الله ، وبدا له أن ينتهى ، تلقفه منه آخر من طرازه وضربه . وهكذا . . .

هذه بعض رزايا التليفون من ناحية الاطالة فى الحديث فى غير جدوى ولا ضرورة أبداً .

وهناك رزايا أخرى ، نعرض نماذج يسيرة منها ، والله المستعان :

لقد يدق جرس التليفون فى الصباح الباكر ، وأهل الدار نيام، فى السادسة إذا كان الوقت شتاء ، وفى الخامسة إذا كان صيفاً ؛فيهبون مذعورين ، وقد جفت قلوبهم ، وزاغت أبصارهم ، وتداركت أنفاسهم لأن التليفون ، فى مثل هذه الساعة ، لا يمكن أن يفضى بخبر ، بل قل أن يفضى فيها إلا بالشر الكبير ، والعياذ بالله . ويتقدم أشجع أهل الدار ، ويتناول السماعة بيد مرعشة ، ويقف سائرهم وقفة منتظرى الحكم فى الجنايات الخطيرة . ثم إذا هم يسمعون : « لا ، النمرة غلط » ، فينصرف كل منهم إلى سريره ، أو إلى بعض شأنه ما يتكلمون ، فقد عقد الذعر ألسنتهم ، واشتف دماءهم ، فما يقوى أحد منهم على الكلام .

وكل ذلك لأن البارد السمج الذى يطلب التليفون ، فى هذا

الوقت ، لا يجشم نفسه التحرى عن الرقم المطلوب ؛ ثم إدارة الآلة طوعاً له ، فيكفى الآمنين كل هذا البلاء !

ولقد يدق جرس التليفون ، فتجيبه ، فيجرى الحديث هكذا :

— أنت س عطوة ؟

— لا !

— أمال أنت مين ؟

— أما مش س عطوة وبس !

— طيب ما تقول أنت مين ؟

— يا أخى ! أنا لست س عطوة الذى تطلبه و كفى !

— ده مش محل فلان ؟ (ويعين متجراً أو مصنعاً .)

— لا يا سيدى ، هذا منزل !

— منزل مين ؟

— منزل لا شأن لك به يا سيدى !

— أما شئ بارد ! أما ابن . . . صحيح ! ويسرع إلى قطع طريق الحديث . والحمد لله !

ولقد يطلبك الطالب ، فيسألك : أأنت فلان ؟ فاذا سألته اسمه ، أبى أن يجيبك ، أو تبدأ أنت أولا بالجواب عما سأل ، وتراجعه فى هذا فيلح ويأبى ، إذ العرف واللياقة يقضيان بأن يفضى باسمه هو أولا ، ليدع لك الخيار فى حديثه أو الانصراف عنه .

ومما يتصل بهذا المعنى أن يطلبك طالب ، فاذا سأله الخادم عن اسمه ، كان جوابه :

— بس قل له واحد عايزك . ولا يأذن باسمه أبداً !

ومما يتظرف به الكثير أن يطلبك بعضهم ، وقد تكون مشغولا جداً ، فاذا استوثق من شخصك ، بدأك بالتحية ، فتحييه بأحسن منها أو مثلها ، ثم كررها على ألوان وصور شتى ، ولا يسعك إلا أن ترد عليه التحية بالتحية ، ثم ما يروعك إلا أن يفاجئك بهذا السؤال :

— طيب أنا مين ؟

— يا سيدى ، قل لى حضرتك مين !

— بقى مش عارف أنا مين ؟

— بماذا تأمر يا سيدى ؟

— لازم تقولى أولا أنا مين !

— لعل خللا فى أسلاك التليفون يغير من صوتك ، فاعمل معروف وقل لى من أنت ؟

— طيب افتكر كده !

ولا يزال يلون لك هذا العذاب ، أو تخبره من هو ، أو بعبارة أخرى لتلقنه اسمه ، وتقدم إليه شخصه ، وتعرفه نفسه !

وكيفما كان الحال ، فقد أضاع وقتك ، وأثار أعصابك ، وأفسد تفكيرك ، وأحبط سعيك ، وحال بينك وبين معاودة عملك ، وهكذا يكون التظرف ، وكذلك يكون الظرفاء !

أما حوادث الخدم ، إذا كنت غائباً عن الدار ، أو كان متعذراً

عليك الوصول إلى التليفون لوقتك — أما حوادثهم فى تسجيل أسماء المتكلمين فى ذاكراتهم ، وفى تسجيل رسائلهم ، وفى التبرع بالأجوبة عنك ، فأيسرها ما يكدر بين الأخوين ، ويفسد ما بين الصديقين ، ويحبط ما عسى أن يكون لك من سعى ، ويبطل ما عملت من عمل ، لعلك نطت به أعظم الأمل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وبعد ، فاذا كان لى أن أسأل الله لمجموعنا شيئاً ، فانى أسأله أن يعلمنا كيف نمشى فى الطرق الحافلة بأسباب الدوس والصدام ، وأن نلتزم فى التليفون القصد والدقة وأدب الكلام .

وما ذلك على الله بعزيز !

كيف نمشى فى الطرق

من الملاحظات ، أو التشهيرات التى كان يتحفنا بها اللورد كرومر فى تقاريره السنوية ، أن أكثر الركبان فى المدن (يعنى ركاب الدواب من الجمال والحمير) إنما يسيرون على الطوار (الرصيف) .

أما الرجال (الذين يمشون على أقدامهم) فلا يحلو لأكثرهم السعى إلا فى وسط الطريق !

ولو قد بسط فى عمر اللورد إلى هذه السنين ، لرآنا قد برئنا ، والحمد لله ، من نصف هذه العلة ، وليس بمستنكر على الله أن يبرئنا من النصف الآخر فى بضع سنين !

وإذا كنت أعرض للأخطار التى يستهدف لها السابلة ، فى القاهرة على وجه خاص ؛ فليس معنى هذا أننى أعفى الساقة ، على اختلاف آلاتهم ، من المسئوليات ، فهذا سائق سيارة يطير طيراً ، لا يبالى أحداً ولا يبالى شيئاً ؛ كأن الله تعالى قد بسط هذه الأرض كلها وحده ، وصقل له وجهها مستقلا ، فلا تعترضه حفرة ولا نتوء ، ولا يعوقه شجر ولا حجر . وما تقوله فى ساقة السيارات تقول أشنع منه فى قادة « الموتوسيكلات » . وأما الغلمان الذين يجلون بالدراجات فأولئك ندع حديثهم إلى القول فى سالكى الطرق على وجه عام .

أما الترام ، وما أدراك ما الترام ؛ فكثيراً ما يرى «الكمسارى» بعينيه الرجل ، وقد يكون شيخاً كبيراً ، وقد يكون رجلا مريضاً ، وقد تكون امرأة حاملا ، وقد يراها تحمل طفلا ، وتأخذ بيد آخر ؛ قد يرى بعينيه أحداً من هؤلاء يهم بالصعود إلى المركبة ، إذ رجله الثانية لما تزل ثابتة على الأرض ، فيسرع إلى النفخ فى صفارته ، وسرعان ما يتحرك القطار ، وأنف أرواح الناس ، وسلامة جوارحهم من البتر والتهشم ، راغم !

ودعنا من سائق السيارة يضرب بجهد سرعته فى زحمة الناس ، إذ هو مقبل بالحديث على من يجانبه أو مولٍّ ظهره وجه الطريق ، مستغرقاً فى الحديث مع من فى داخل العربة .

هذا كله معروف مشاهد ، لا نرى محلا للاطالة فيه ، و إقامة الأدلة عليه ، وما لهذا سقنا الحديث ، إنما سقناه لهذه الكثرة الكثيرة التى لا يحلو لها السعى إلا فى وسط الطريق ، برغم احتشاده بالمهلكات المتلفات .

ولقد يلتمس ملتمس لهؤلاء عذراً بأن الطوارات (الأرصفة) فى القاهرة أكثر حفراً من وسط الطريق ، فهى أدنى إلى عثرة القدم ؛ ولعل آخر يلتمس العذر فى أن طواراتنا دائماً أشد وساخة وأكثر قاذورات من عرض الطريق ؛ وهذا ، مع الأسف العظيم ، مالا أحسبه يقع فى بلد آخر ! وكيفما كان الأمر ، فان هذا وهذا لا يصلح عذراً للتعرض ، على هذه الصورة ، لكل ذلك البلاء الحيق !

و إذا تمثلنا هذه الكوارث التى تقع كل يوم فى شوارع القاهرة

وجوادها ؛ فان من الظلم الواضح أن نضيفها كلها إلى جنون السائقين، أو إلى عجلتهم ، أو إلى قلة كفايتهم ؛ بل إن من الانصاف أن نفرض قسطاً كبيراً من أسبابها إلى أولئك الساعين على الأقدام ، وإلى أولئك الذين يجلون بالدراجات فى مزدحم الطريق .

وبعد ، فلعل بعض قراء « الثقافة » ما برحوا يذكرون أننى ختمت مقالى السابق « فى التليفون » ، بالابتهال إلى الله تعالى أن يعلمنا كيف نمشى فى هذه الطرق الحافلة بأسباب الدوس والصدام ، كما يعلمنا فى التليفون القصد والدقة وأدب الكلام . والآن أعرض نماذج مما يجرى فى طرقاتنا وبعضها مما « يشيب الطفل من قبل المشيب » .

ولقد عرفتَ ، بل لقد رأيت ، إن كنت من سكان القاهرة أو ممن يغشونها كيف يهجر الساعون مع أقدامهم الطوارات ، ويتدفقون فى عرض الطريق تدفقاً ، ما يبالى أكثرهم ما عسى أن يعتريه من قدامه أو من وراء ظهره ، أو من يساره ، أو من يمينه من تلك الفواتك بالأعمار ، والمفرقات للأعضاء ، والمحيلات للأجسام الصحيحة فى لحظة إلى أشلاء بجانب أشلاء !

ولقد ترى الماشى بين شريطى الترام ، وهو يسمع دويه من وراء ظهره ، إذ السائق جاهد فى دق الجرس وموالاة هذا الدق ، وصاحبنا لا يعدل ولا يتحول ، كأنه استحال هو أيضاً تراماً لا يستطيع السير إلا على الشريط ؛ وفى اللحظة الأخيرة ، اللحظة التى يعقبها البلاء الفاتك ، يسمح حضرته بالتحنس فى تثاقل عظيم ، ثم تراه يعود إلى سبيله ، وهكذا ! . . .

وكثيراً ما ترى ناساً يمشون فى يمنى الطريق وتقبل السيارة فى جريها ، من ورائهم ، والسائق ينبههم جاهداً إلى إخلاء السبيل بالاعتصام بالطوار ، أو على الأقل ، بالمشى بجانبه ، ينبههم جاهداً بالبوق مرة ، و« بالكلاكس » مرة ، فلا يسمعون ولا يحفلون ، إذ السائق المسكين أحياناً ، بين ثلاث : إما أن يسرع إلى وقف السيارة فجاءة ، وقد تنقلب فى هذه الحالة ، وخاصة ، إذا كانت مسرعة ، وفى ذلك هلاكه وهلاك من معه من الراكبين ، وإما أن يعدل هو عن الطريق مفاداة لهذه العمد الساعية على الأرض . وقد يصطدم بجدار أو حامل مصباح ، أو يدوس من لا جناية له من السائقين ؛ وإما أن يتوكل على الله ويدوس فى طريقه من يدوس من هذه العمد . ولعل هذا أرفق الحلول ، إذا لم يكن من إحدى تلك الحالات الثلاث محيص !

ولقد أذكر أننى كنت ذات صباح شاخصاً إلى الجيزة ، فاذا الترام مزدحم جداً ، وأكثر زاحميه من الطلاب الذاهبين إلى مدارسهم ومعاهدهم هناك ، فلم أصب لى مكاناً إلا وقفة بجانب السواق . ولم يرعنى ، ونحن فى بعض الطريق ، إلا أن أرى رجلا مقبلا على الترام من قدامه ، وقد تحرى المشى بين الشريطين ، والسائق يجهد فى دق الجرس له ، وهو لا يعدل ولا يتحرّف ولا ينثنى ، حتى إذا اقترب منه الترام ، أو على الأدق ، حتى إذا اقترب هو من الترام ، اقشعر جسدى ، وقف شعر رأسى ، فأسرعت إلى المفتاح ، ورجعته فى عنف ليقف القطار ، فالتفت إلى السائق وقال لى ، فى شئ

من الغضب : ما الذى دعاك إلى هذا ؟ قلت له : ألم تر كيف أن الرجل كان عازماً على أن يدوس القطار فى غير إشفاق ! فاشكر لى أن نجيتك كما نجيت نفسى وسائر الركب من هذا الخطر العظيم !

أما الذين يحاولون قطع الشارع من العبر للعبر ، فأولئك شأنهم أعجب وأغرب ، وصنيعهم ألذ وأطيب . ومن الظواهر التى تسترعى النظر حقاً فى هذا الباب أنك تجد هؤلاء دائماً مستعجلين جداً ، وشجعاناً مقاديم ، لا يهابون أشنع الموتات فى سبيل . . . لا شئ مطلقاً من الأشياء ! . . .

يريد أن يعبر الشارع ، فسرعان ما يعبره ، ما يجشم نفسه الالتفات ذات اليمين ولا ذات الشمال ؛ ولعل أكثرهم يفحص عينيه من وقت العبور ، لكيلا يرى الفواتك الجارية من هنا ومن هنا ، وهذا ممكن ، ولعله فى بعض الأحيان حسن . على أن هناك أمراً غريباً ، لا بد أن يكشف العلم عن سره فى يوم من الأيام . ذلك بأن الانسان يستطيع أن يفحص عينيه لكيلا يرى ، فهل ترى لآذان هؤلاء الناس جفون أيضاً ، يستطيعون أن يطبقوها لكى يستريحوا من استماع دوى الترام وجرسه ، وزمر الأتومبيل وكلاكسه ؟

وإنك يا سيدى القارئ لترى فى كل شارع ، فى كل يوم ، وفى كل ساعة ، وفى كل دقيقة ، من لا يرضون أن يطمئنوا فى مواقفهم حتى يجوز الترام ، أو تجوز السيارة ، مهما تكن سرعتها وقربها منهم ؛

بل لا بد من القفز أمامها وقطع الشارع فوراً . ولماذا ينتظر المرء دقيقة أو بضع ثوان ، والوقت كما تعرف من ذهب ؟

ولقد كنت فى يوم من أيام الأسبوع الماضى أمشى فى شارع قصر ابن العينى ، على الطوار طبعاً ، وإذا الترام القادم من ميدان الاسماعيلية يجرى بآخر جهده ، وإذا شيخ مرسل اللحية ، محفوض الشارب ، يضع على قبائه (قفطانه) معطفاً ، وعلى رأسه طربوشاً ، وفى يمينه عكازة ، وفى يساره مسبحة تتلقط أنامله حباتها دراكا . وأنت خبير بما تفعل مع ذلك شفتاه ، أما ما يشغل القلب فلا يعلمه إلا الله ! — أقول وإذا هذا الشيخ يقفز من بين يدى الترام قفزة عنيفة نجا بها ، والحمد لله ، وإذا كان ظله القصير لم ينج من وطء العجلات الأولى ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

ولقد لحقت به ، وقلت له :

— يا عم ! قد يجوز أن يكون حسابك دقيقاً مضبوطاً فى قياس سرعة الترام ، ومقدار المسافة التى عليك أن تقطعها بين يديه ، ومدى جهدك فى القفز ، والمدة التى تحتاج إليها فى ذلك . لقد يكون حسابك فى كل أولئك دقيقاً مضبوطاً ، ولكنك لم تدخل فى هذا الحساب عثرة الرجل مثلا ، أو اعتراض سيارة مفاجئة من شطر الطريق الذى تطليه ؛ فكيف كانت تكون الحال ؟ فأقبل على وقال :

— أى والله يا ابنى ! صدقت . ولكن . . . ربنا يستر ! . . . آمنت بالله ! . . .

وأرجو ألا تنسى أن هذه الكلمة « ربنا يستر » ، هى فى هذه

البلاد شعار كل ملق بنفسه إلى التهلكة ، أو بغيره إلى الهلاك .

ومن بضع عشرة سنة ، كنت أركب الترام ، وكان مجلسى خلف السائق مباشرة ؛ وبينا كان يجرى بأقصى سرعته فى شارع كلوت بك ، إذا فتى يجوز من أمامه ، ولولا أن السائق أسرع فضبط العجلات « بالفرامل » ضبطاً عنيفاً رج الركب رجاً عنيفاً ، وأزعجهم إزعاجاً شديداً ، لصار هذا الفتى (المستعجل) للحظته أنقاضاً على أنقاض .

إذاً لقد وقف القطار ، ومر الفتى لم يكلم أى عضو من أعضائه كلما ؛ بل لقد امتاز على هؤلاء الراكبين بالدعة ، فما وجف له قلب ، ولا نبض فيه عرق ، ولا امتقع لونه ، ولا جف ريقه . ولقد بدا لى أن أنزل فأتبعه لأرى ما الذى أعجله من جلى الأحداث العالمية ، حتى خاطر بحياته بهذا القدر المرعب المهول .

وأتبعه حتى بلغ الطوار الثانى ، فاذا هو فتى متشرد من هؤلاء الفتيان المتشردين ، خلق الثوب ، حافى القدم ، وسخ الوجه والقفا ، ثم وقف بحذاء دكان تبيع الشمال[1] ، وجعل يحك قفاه بيده ، ثم قبض على دابة ، قصعها بين ظفرى إبهامه. ثم انكفأ يريد الطوار الثانى ، فقلت فى نفسى: لا بد أن يكون قد صدر قانون بتوقيع أشد العقاب على من يقصع الـ . . . على غير هذا الطوار !

---

(١) الشمال : جمع شملة ، بفتح الشين : ما يتلفع به ويقال لها فى العامية « التلفيحة » .

بقى الحديث فى راكبى الدراجات ، وأكثرهم ، كما ترى ، من الغلمان الحفاة . وهو ، ولا ريب ، حديث يطول . ولا يعود يحتمله هذا المقال ، بعد كل الذى مضى من الكلام . ومبلغ القول فيهم أن الغلام الحافى من هؤلاء ما يكاد يحصل على « قرش تعريفه » يهيئ له استئجار دراجة ساعة أو بعض الساعة ، حتى يفرض أن شوارع القاهرة وجوادها وميادينها ، وحواريها ، وأزقتها ، ومسالكها ودروبها ، قد أخليت له إخلاء كاملا ، ونفض من فيها من الناس والدواب وسائر وسائل المواصلات نفضاً . فاذا لم يكن هذا متيسراً ، فلا أقل من أن يقف كل سائر ، ويتربص فى مكانه كل عابر ، ويجمد كل متحرك ، حتى يجوز هو بسلام ، ما تكلف أن يدق جرساً ، أو يرفع بالتنبيه والانذار صوتاً !

ولقد ترى الحافى من هؤلاء راكبى الدراجات ، وقد اعترضته فى سبيله سيارة من نوع « البويك » أو « الأستوديبكير » ، أو «الدملر» بل « الرولز رويس » ، وهى تجرى فى سرعة عظيمة ، إلا بسط إحدى ذراعيه إلى سائقها يشير إليه بالوقوف أو بالتمهل ، على الأقل حتى يجوز هو ، فله حق التقدم على كل حال بها ، وسنده رجله الحافية بلا نزاع ولا جدال !

وكثيراً ما يفسد هؤلاء الغلمان الأمر على السائقين ، ويوقعونهم فى الحيرة والارتباك ، لقد يفضيان أحياناً إلى الأخطار الجسام .

وبعد ، فانى أعود فأرغب إلى الله تعالى أن يخلصنا من هذه الآفاق ، ويعلمنا ، بفضله ، كيف نحسن السعى فى الطرقات . آمين .

الانتقام اللذيذ

لقد تعرف أن من أسماء الله الحسنى « المنتقم » ؛ ولكن إياك أن تظن أن انتقام الله تعالى كانتقام الخلق : أخذ بالثأر ، وإرضاء للحقد ، وشفاء لغلة الصدر ؛ فلقد تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . بل إن المراد من الانتقام بالاضافة إليه ، جل مجده ، هو لازمه من التأديب ، وبسط العقاب المستحق ، وإطلاق العبرة البالغة .

والانتقام قد يكون من الأناسيّ ، وقد يكون من الحيوان ، وقد يكون مما لا يعقل ولا يحس من سائر الأشياء ؛ وأرجو ألا تعجل بالعجب ، فستعلم نبأ هذا بعد حين !

وأحب ، يا سيدى القارئ ، أن أؤكد لك أننى بحمد الله تعالى ، ما انطويت قط على حقد ، ولا بت قط على ضغن ، ولا سرتنى قط مساءة إنسان ولا حيوان ؛ فلقد وقى الله بفضله ، صدرى من هذا الداء ، ونجانى ، برحمته ، من ذلك العناء .

على أننى ، ولا أكتمك ، أجد فى بعض الانتقام ، وأعنى انتقام الله تعالى ، لذة وطرباً ؛ نعم ، لقد أحس لبعض ألوان الانتقام لذة لا أكاد أحسها للفرج بعد الضيق ، وللين بعد الشدة ؛ بل لا أكاد أحسها وقد جلست فى ساعة اطمئنان النفس وهدوء البال ،

للاستماع إلى غناء حلو يلتقى ببارع النبر على عود حسان صناع .

إذاً فمن الانتقام ما يلذ ويطرب ، كما أن من الانتقام ما يروع ويهول !

ولقد تقدمت إرادة الله ، فى هذه الأهوال العالمية المهولة ، بانتقامين بديعين لذيذين ، لا أخفيك أن نفسى قد أصابت منهما قسطاً كبيراً من الراحة والمتاع .

أما أول هذين الانتقامين البديعين فمن بعض الناس ، وأما ثانيهما فمن بعض الأشياء . وإليك البيان .

١ – لقد جرت عادة الكثيرين من الموسرين وأنصاف الموسرين من سكان القاهرة وغير القاهرة أن يقضوا أشهر الصيف فى رمل الاسكندرية ، كما جرت عادة أصحاب الدور فى هذا الرمل ، ومن فى حكمهم من مستأجرى دورهم للمدد الطويلة ، أن يشتطوا فى الأجور ، ويبالغوا فيها مبالغة لم يكن يعبأ بها المصيفون بجانب استراحتهم إلى المصيف ، واستمتاعهم وأولادهم بماء البحر وتنسم الهواء العليل ، بعد ما عانوا فى عامهم ، كبيرهم من كد السعى والعمل ، وصغيرهم من كد الدرس والاستذكار ؛ فلا بأس مع هذا بأن ينفق المرء فى كراء البيت ضعفى ما يستحقه ، ولا بأس بأن يشترى الخبز ، واللحم ، والسمك واللبن ، والفاكهة ، والجبن ، والبصل الخ ، بأكثر مما يعلم أنه جاره الاسكندرى يشترى به بحجة أنه غريب « مصيف » ينبغى أن يستغله التجار والباعة بعض الاستغلال !

بل لابأس على ساكن القاهرة مثلا إذا قال للفاكهانى الاسكندرى

بكم الوقة من هذا التفاح ؛ وأرجوك أن تقرأها بكسر الواو ، وبابدال القاف بالهمزة (على نطق أهل القاهرة) لا بأس على ساكن القاهرة إذا وجه إلى الفاكهانى فى هذا السؤال ، فكان جوابه : « بعشرة جروش » . ثم يهبط اسكندرى فيسأله : « بكم الوجة » ؟ فيكون الجواب : « باربعتاشر جرش « يعنى تعريفه » ، يعنى سبعة قروش صاغ لا أكثر !

لا بأس بهذا كله ، فهو استغلال رقيق محتمل على كل حال !

أما الذى به كل الناس ، والذى استحق من الله كل هذا الانتقام البديع اللذيذ ، فهو أن ملاك الدور فى الرمل ما كادوا يطمئنون إلى أن أحداً من المصريين لا يستطيع قضاء الصيف هذا العام فى أوربا ، حتى أعلنوا تأرجهم فى الأجر واستطاطهم فى الكراء إلى الحد المرهق المضنى ، فمن لم يطلب فى كراء داره أربعة أضعاف ما كان يقتضيه فى الأعوام السابقة ، اقتضى ثلاثة أضعاف ، أما أشدهم قناعة وزهداً فمن يرضى بالضعفين والنصف !

سكان القاهرة وغيرهم مضطرون ، هذا العام ، إلى اتخاذ المصايف المصرية ، لأنهم لا يستطيعون تخطيها إلى البلاد الأجنبية ، ويالها من فرصة عظيمة تؤتى الغنى ، وتجلب الوفر العاجل ! أليس لنا البحر وشواطئه البديعة ؟ أليس الله قد ورثنا نسيمه العليل ؟ فما لنا نبذله ، فى غير شئ ، لهؤلاء الفارين من حر القاهرة وغير القاهرة ، وطالبى الاستجمام فى هذا الجو المريح بعد العناء والكد فى العام الأطول ؟ ما لنا لا نقتضيهم عن روحة الموجة ، وهبة النسمة ،

ولو عصرناهم عصراً ، وبعناهم النظرة إلى الأفق شبراً فشبراً ؟

هكذا شاءوا ، وعلى هذا جمعوا النيات والعزائم . وهكذا نسوا دورة الفلك الدوار . ونسوا أنهم يقدرون فتضحك الأقدار !

ولقد علمت أن المصريين جميعاً وأعنى مياسيرهم ومتوسطى الحال منهم ، قد أمسكوا عن الشخوص إلى الاسكندرية هذا العام ، نزولا على أمر الحالة الحاضرة ، ودور الرمل المهيأة للتأجير خزيانة تنظر ! بل لقد علمت بعد هذا أن كثرة سالكيها ممن تضطرهم هذه الحالة الحاضرة إلى الهجرة إلى الريف ، حيث يؤدون هم أجور السكن كارهين مرغمين !

أرأيت عدلا أحلى من هذا العدل ، وانتقاماً ألذ من هذا الانتقام ؟

٢ — هذا ما كان من أمر الانتقام ن بعض الناس . أما ما كان من الانتقام من بعض الأشياء فاليك الحديث : أنت ، ولا ريب ، تعلم أن القاهرة هى أجمل المدن المصرية ، بل هى أجمل مدن العالم كافة ، ولعلى لم أحسن التعبير من الواقع تماماً ، فأى جو غير جو القاهرة خانق يفر منه ، وينبغى لبس القناعات الواقية فيه على الأقل ؟

وإذا كنت فى شك من هذا الكلام ، فارجع إلى شأن تسعة وتسعين فى المائة ، أو تسعمائة وتسعين فى الألف من موظفى الحكومة فى الأقاليم تجدهم يصلون الليل بالنهار جادين جاهدين ، فى التماس النقل إلى القاهرة . فمن لم يسع له أبوه عند كبار الحكام سعت له

أمه عند نسائها ؛ وهذا أم فلان تبكى حتى تستعبر بين يدى زوج الحاكم أو بنته أو أخته ، فيرد عليها غربة ولدها المسكين الذى لا طاقة له بالغربة ، فلم يألفها فى حياته ولم يعرفها .

ولا تجد أحداً منا ، نحن الموظفين ، يعدم الحجة على طلب النقل إلى القاهرة ، فمن ليس له أولاد فى المدارس ، فان له ، بحمد الله ، أباً فى « الاسبتالية » . ومن ليس له أم ضربها الفالج فان له أخوة تربى على العشرة ... وهكذا ! ...

وأما النقل من القاهرة فمصيبة دونها عندنا ، نحن الموظفين ، جدع الأنف ، وفقء العين ، وصلم الأذن ، وقطع اليد اليمنى التى نأكل بها ونشرب ونكتب ، ونتناول بها أهم الأسباب ، ونبسطهم لمصافحة الأهل والصحاب ! ...

وصدقنى إذا قلت لك إن هذه الغربة تبتدئ عندنا نحن معشر المصريين من قليوب إلى الاسكندرية شمالا ، ومن الجيزة إلى الدر جنوباً ، كلها غربة تستدعى الحسرة ، وتثير الزفرة ، وتبعث العبرة ، بل لا أكتمك إذا قلت لك إن بعض من نقلوا من الأرياف إلى شبرا مثلا استأنفوا السعى لينقلوا إلى دائرة قسم عابدين ...

أصدقتنى الآن فى أن كل جو غير جو القاهرة ، بل سرة القاهرة ، خانق وجدير بالفرار ، أو لبس القناعات الواقية ، على الأقل ، كما ذكرت ؟

والآن ، أين الريف يا عالم ؟ ومن لنا به ؟ وكيف السبيل ، واحسرتاه ، إليه ؟

الريف البديع هواؤه ، العذب ماؤه ، الجميل رواؤه ، من لنا به ؟ من لنا به ؟

أعوذ بالله ! ما أنكر وجه القاهرة ، وما أخبث مناخها ، وأوخم هواءها ، وأعكر ماءها ، حتى نورها الكهربائى لقد أصبح ثقيلا يرمش له الجفن ، ويجهد النظر !

أرأيت كيف كانت حكمة الله الباهرة ، وكيف انتقم للريف المسكين من هذه القاهرة ؟

بين الصفارة والريف

مما يجرى على ألسنة المصريين فى دعاء بعضهم على بعض « رُوحْ بجتَك غارة ! » وكنا نحسب أن القدر كان يرد هذا الدعاء أولا فأولا ، فلا يحل فى موضع الاستجابة أبدا .

وها نحن أولاء نرى الآن أننا ، فى هذا الحسبان ، كنا جد مخطئين ، فأن القدر ، فأن القدر إنما كان يجمع هذه الدعوات ويحفظها ، ولا يرد واحدة منها ، حتى إذا حل الوقت المقسوم ، استجاب دعوة الجميع على الجميع !

كل يوم عواء صفارة ، ينذر بمقدم الغارة ؛ فعلينا ، ونحن نجنى ثمرات دعائنا بعضنا على بعض ، أن نثبت ونتجلد ونصبر ، فان الله مع الصابرين .

وفى الحق إن صوت هذه الصفارات كريه جداً ، وثقيل على الأسماع جداً ، ومضعضع للأعصاب جداً ، حتى ليؤثر المرء وقوع الغارة نفسها على هذا النذير ، فى صوته المزعج النكير .

وقد لا يحق لنا أن نطمع فى أن تشد الحكومة إلى حناجر هذه الصفارات أوتار عود أو قانون ، أو أن تقيم فى كل حى فرقة موسيقية ، أو أن تطيف بالبلد ، كلما جاء النذير بمقدم الغارة ، كبار المغنيات

والمغنيين ، يهيبون بنا ، بأصواتهم العذبة ، على النبر الحلو والتنغيم البديع ، أن احذروا ، والتمسوا المخابئ ، واطلبوا النجاة بقدر ما تستطيعون !

ولكن ألا من سبيل إلى التخفيف من هذا النكر ، ولو بعض الشيء ؟ أو الاستغناء عن هذه الصفارات ، والتعويض عنها بالكثير ممن نسمع ، فى هذه السنين ، من مغنيات ومغنين ؟

وإذا زعمت أن من هؤلاء من هو أقسى حنجرة وأنكر صوتاً ، فلا يذهب عنك أن آذاننا قد ألفت هذا الغناء من بضع سنين ، ولا شك أن الالف والاعتياد يلطفان كثيراً من موقع الأهوال الجسام!

بقى أن نراجع أنفسنا ، فى شئ من الصفاء والدعة ، وهما موفوران فى عامة النهار ، والحمد لله ، نراجع أنفسنا ونسألها ، أمن الحق أن صوت هذه الصفارات كريه بهذا القدر ، مزعج إلى هذا الحد ؟ أم أن اقترانه بتوقع الأحداث المزعجة ، هو الذى يخلع عليه هذا الوصف ، ويحله من الأعصاب فى هذا المكان ؟

إن شئت الانصاف فى القول ، والعدل فى الحكم ، رأيت لهذا التعليل نصيباً من الحقيقة غير يسير ؛ بدليل أنك لا تجد للصوت المؤذن بانتهاء الغارة من الاستكراه والنبو على الأذن ، وشدة شك الأعصاب ، ما تجده فى الآذان بقدم الغارة ؛ إذ الصفارة واحدة ، والحلق الذى ينطلق منه العواء واحد ! . . . إذاً فللظروف والملابسات دخل فى الأمر كبير . ولو أن الصوت فى الحالين نكير نكير نكير .

إذاً فلا مفر من الفرار ، ولا من صفارات الانذار ، وطلب السلامة للأعصاب ، من كل هذه الأوصاب ، وأين ، لعمرى ، يلتمس الفزع والملجأ الحصين ، إلا فى ريف مصر الجميل الأمين ؟

وإذا كان أصحاب الأعمال فى المدن لا يستطيعون أن يتركوا أعمالهم ، فلا أقل من أن ينزح آباؤهم وأمهاتهم وزوجاتهم وأولادهم ، فلا تنالهم ، فى الغالب ، الغارات ، ولا تؤذيهم النذر بالغارات ، وبعض الشر أهون من بعض .

وكذلك أشخص من أحملهم من الأهل والولد إلى الريف ، يتقدمهم ما يحتاجون إليه فى عيشهم الجديد ، من المتاع والعتاد .

ويشاء الله الكريم ألا تضيق صدورهم بالوحدة ، ففى مكان قريب أهل وأصهار وأولياء كرام . كما شاء تعالى ألا يستوحشوا ، إذا جن الليل عليهم ، فالريف ينام من العشاء الأولى ، فآنسهم بالراديو ، يغنيهم ، ويفاكهم ، ويحاضرهم ويسامرهم ، وينبئهم مختلف الأنباء . فالقرية ، على دقة جرمها ، وقلة سكانها ، تستصبح لحسن الحظ ، بالكهرباء ، يبعثها « وابور » كبير أقامه المجلس القروى هناك ، فالحمد لله الذى قرن ما أجرى من القضاء بلطفه ، وأردف ما قدّر من البلاء بكرمه وعطفه ، وصدق المثل العامى القائل : « قبل ما يبلى يدبر ! »

ولا بد لى من أن أراهم وأشهد مثواهم ، وأشركهم فى عيشهم الطريف ولو حيناً بعد حين . وأتوكل على الله ، فأشد الرحال إليهم ،

لا بل أستقل من القاهرة القطار السريع . وبعد جَرى غير طويل ، أنقلب إلى القطار البطئ . وسواء أكنت فى هذا أم فى هذا ، فلقد كان شغل عينى وشغل نفسى طول الطريق ، هذه السيارات الكبيرة والصغيرة التى تقل المهاجرين من المياسير وغير المياسير ، وسيارات النقل الكبيرة تحمل أمتعة النازحين . بل عربات « الكارو » يجرها جواد ، وقد يجرها حمار ، لا يعلم إلا الله مبلغ جهده فى هذا السفر الطويل الثقيل !

أما إذا كان هذا الحمار عاشقاً قد شفه الوجد ، وبراه طول القلى والصد ، فقد أولاه المبيت فى العراء خير ما يسعد العاشق المهجور على بلواه ، ويبرد من حرقة جواه ، بمناجاة النجم الساهر ، وشكوى صد الحبيب الغادر . فاذا تعذرت عليه رؤية الحبيب وقد قلى ، فهو ولا شك رائيه فى صفحة البدر إذا تجلى . ولقد يحمل البدر رسالة الوله والشوق إلى الأتانة ، والبدر خير من يبلغ الرسالة ويؤدى الأمانة .

أليس فى هذا بعض الفرجة من ذلك الضيق ، والتلطيف من تلذيع سوط السائق طول الطريق ؟

وكيفما كانت الحال ، فلقد يستطيع الشاعر أن يشبه السكة الزراعية بعقد ، وإن كان متلاحم الحبات ، فانه لم تنظمه يد جوهرى صناع : فهذى لؤلؤة صغيرة ، إلى جانب خزفة كبيرة . وهذى حبة من ذهب ، تليها أخرى من خشب ، وسبحان مقسم الحظوظ والأرزاق !

وكيفما كان الأمر ، فسرعان ما أحضرنى هذا المشهد قول المتنبى ، رحمة الله عليه :

وهجانٍ على هجان تُواتيـ ـك عديدَ الحبوب فى الأقواز
صفها السيرُ فى العراء فجاءت فوقَ مثل الملاء مثل الطراز

حقاً ، لقد انتفضت القاهرة انتفاضة عنيفة ، فتطاير عنها أهلها (تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض) وراحوا يطلبون المثوى ذات اليمين وذات الشمال . ولعل بينهم من لم يتخيروا المأوى ، ولعل منهم من لا يعرفون الوجه ، وإنما هم يهيمون هياناً حتى يأذن الله لهم بالمستقر والمقام !

هذه ، ولا ريب ، حالة جد مؤلمة ، وخاصة إذا كان هؤلاء النازحون ممن يجرون بأيديهم غلمانهم ، أو يحملون على أكتافهم أطفالهم الصغار ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !

على أنه بقليل من التسامح ، ويسير من التضحية ، يمكن إيواء كل هؤلاء الفارين ، وإنالتهم المأمن ، ومعونة المحتاج إلى المعونة منهم ، (والناجى يأخذ بيد أخيه) .

هذه شدة عامة ينبغى أن تتظاهر على دفعها الأيدى عامة . فمن كان فى بيته سعة ، فلا ضير عليه فى أن يؤدى إليه من لا يجد المأوى ، ومن كان فى حالة فضل ، فلا بأس عليه إذا رزق من فضل ماله بعض من لايجد إلى القوت سبيلا . وإذا كان عدد هؤلاء كثيراً ، فان عدة سكان القرى ، واللاجئين من الموسرين ، أكثر كثيراً .

على أن ترك المعونة للمصادفات والحظوظ ، ليس من الحكمة فى شئ . بل لا بد من الأعداد والتنظيم المحكم ، فلا يتعذر المثوى على لاجئ ، ولا يسرف الجوع على أحد من المهاجرين .

نعم ، إن أهل الريف هذه السنين ، فى بؤس ظاهر ، وفقر بين . على أنه لن يتكاءد أعيانهم ومتوسطى الحال منهم أن يخرجوا لهؤلاء العائذين بالريف ما يمسك الرمق ويعصم الحياة . فاذا بسطت الحكومة ولو يسيراً من المعونة لهم ، أينما كانوا ، فقد هان الخطب ، وكفيت البلاد الشرور الكبار .

وإذا كان لى ما أقترحه فى هذا الباب ، فانني أرى التعجيل بفرض ضريبة على تجار الريف ، لا يعفى منها كبارهم ولا صغارهم . على أن ما يجئ من ذلك يرصد لتلك المعونة . فتجار الريف أصبحوا يجنون من الربح ، بفضل النازحين من الموسرين وأنصاف الموسرين ، ما لم يكن يدخل منهم فى الحسبان !

وبعد ، فلقد كنت أحب أن أتحدث عن الريف ، وهذين اليومين اللذين قضيتهما فى الريف . ولكن لم يبق فى مساحة المقال متسع . فلنرجئه إلى مقال آخر ، إن شاء الله رب العالمين .

الأفندى

لا أحسب أن كلمة صارت من أعز العز إلى أهون الهوان كما صارت هذه الكلمة فى مصطلح الزمان !

وقبل كل شئ لعلك تعرف أن كلمة « أفندى » معناها السيد ، وهى من ألفاظ التشريف التى انحدرت إلينا عن سادتنا القدماء ، أعنى الأتراك . وعلى الرغم من أننا خلعنا عنا ، أو خلعت عنا السيادة التركية ، وعلى الرغم من أننا قد ظفرنا باستقلالنا ، فان أكثر ألقاب التشريف فى بلادنا ما برحت تركية ؛ « فأفندى » تركية ، و « بك » تركية ، و « باشا » تركية أيضاً !

وكل ما صنعنا فى هذا الباب ، عند ما اختلعنا من سيادة تركيا ، أننا أصرنا ، فى توجيه الخطاب ، هذه الألقاب إلى النهج العربى ، أما جوهرها فباق كما هو ، تركى وابن تركى . فبدلا من أنه كان يقال مثلا : « عزتلو أفندم » ، أصبح يقال : « صاحب العزة » ، وبدلا من أنه كان يقال : « سعادتلو أفندم حظرتلرى » ، أصبح يقال : « حضرة صاحب السعادة » ، على أن تلحق الأولى بلقب « بك » ، والثانية بلقب « باشا » .

أما « أفندى » فلقد علمت أن معناها السيد ، وأما الميم التى

توصل بها أحياناً فهى أداة الاضافة للمتكلم ، « فأفندم » معناها « سيدى » . ولهذا كان ولى الأمر إذا وجه الخطاب إلى رئيس « النظار » ، أو إلى من يقوم مقامه ، فى المناسبات المختلفة ، لا يكتب مطلقاً : « دولتلو أفندم » ، أو « عطوفتلو أفندم » ، بل يكتب : « دولتلو باشا » ، أو « عطوفتلو باشا » ، لما تعلم من أنه أجل محلا من أن يدخل فى سيادة أحد على أى وجه من والوجوه .

ونعود إلى كلمة « أفندى » ، فنقول إن أصحابها الترك كانوا يضنون بها أعظم الضن ، ويغلون قدرها أيما إغلاء ، وذلك على العكس من كلمة « بك » ، فان كل رجل هناك يكاد يكون « بك » ، وأرجو أن تنطق بالكاف ياء ، فذلك هو المنطق الصحيح . أما «أفندى» فكانت لقب ولى عهد المملكة العثمانية ، ووارث منصب الخلافة الاسلامية ، كما كانت لقب أعضاء البيت المالك هناك ، كذلك كانت لقب شيخ الاسلام .

ولما كان منصب قاضى القضاة فى مصر لا يتولاه إلا تركى ، بحكم السيادة العثمانية إلى سنة ١٩١٤ ، كان يقال له أو عنه « قاضى أفندى » ، وقد نضح العرف هذا اللقب على القضاة المصريين أيضاً ، وأعنى بالضرورة القضاة الشرعيين . على أن هذا اللقب ظل محصوراً فى دائرة هذا القضاء . ولا أدرى أبقيت منه بقية إلى الآن ، أم عفى عليه فيما عفى هذا الزمان ؟

نعم ، لقد كان يدعى المخاطب فى درج الحديث « بك أفندى » ،

ولكن « أفندى » مطلقة لا تكون ، كما أسلفنا ، إلا لأمثال من ذكرنا من سادة السادات وأعظم العظماء .

أما فى مصر ، وأعنى فى العصر الذى شهدنا أطرافه ، فان لقب « أفندى » ، وإن لم يكن له هذا الخطر ولا بعضه ، فلقد كان له حظ من الاجلال غير يسير ، فهو فى الغالب الكثير لقب الموظف فى الحكومة ، وناهيك بالموظف الحكومى فى تلك الأيام ! لقد كان هذا « الأفندى » موضع إجلال أهل الحق وإعجابهم . وكان أكثرهم يعود من « الديوان » وقد رشق قلمه البسط رشقاً أفقياً فى أعلى أذنه اليمنى أذاناً للناس بما صرف من الأمر ، وما قضى فى حقوق الرعايا وأرزاقهم ، إذاً فانه يقضى فى دمائهم وأعناقهم . ولهذا كنت تراه يمشى متمهلا متتايهاً ، يتلقى نظرات الاحترام والاعجاب .

ولم يكن حى من أحياء القاهرة تخلو رقاعه الكبيرة من بيت « ست أم الأفندى » ، وبيت « ست أم الأفندى » هذا كان شرعة الرائدات ، ومثابة القاصدات . إليه يحج نساء الحى ، وله يطلبن . لا يرحل الناس إلا نحو حجرته ، كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل وكان لسائر البيوت الصوى والمنار ، فاذا استخبرت سيدة عن أحد المنازل ، دلتها صاحبتها عليه ببيت « ست أم الافندى » ، فتقول لها مثلا : اجعلى بيت « ست أم الانندى » على يمينك ، ثم انعطفى فى أول زقاق على يسارك وعدى من اليسار بيتين ، الثالث هو البيت الذى تطلبين .

ولقد كان هناك أيضاً بيت « ست أم البك » على أن هذه البيوت

كانت نادرة جداً ، بحيث لا يقع فى الحى كله إلا اثنان منها أو ثلاثة على الأكثر .

وكيفما كان الأمر ، فاننى أرجو ألا يميل بك الظن إلى أن « ست أم البك » كنيت بذلك لأن ابنها « البك » موظف فى الحكومة كشأن « ست أم الافندى » . العفو ! العفو ! وهل كان يبلغ الموظف مرتبة « البكوية » فى الحكومة وأمه لا تزال على ظهر هذه الأرض ؟ يحسبه أن يسعى سعادته سعى الأحياء ، وإن ضربته السنون بمائتى داء ! « فست أم البك » إذاً لم تكن أم موظف ، ولكن كانت فى الغالب مرضعاً لولد من أولاد الذوات ! ولكى تزداد علماً بموضع كلمة « أفندى » من جمهرة الشعب ، أذكر لك ما روى لى ، من أنه من نحو خمسين سنة ، أراد بعضهم أن ينشئ فى حى الحسين ، رضى الله عنه ، « قهوة » فخمة عصرية (مودرن) ، تليق بمجالس الخاصة والمترفين من الناس ، فلم يجد أكرم ، ولا أعظم ، ولا أفخم من أن يدعوها ويكتب على جبينها بالخط الطويل العريض الجميل « قهوة أفنــدية » !

وبعد ، فذلك بعض العز الذى ناله لقب « أفندى » فى الزمان الطويل . أما الآن ، فكفاك الله شر الهوان ، وعصمك من الاستكانة بعد السلطان ، وحفظ مجدك من غدر الزمان !

أفندى ! وهل أصبح يطيقها موظف أو طالب أو فتى يعيش بفضل إرث ، أو شاب تجرى عليه وظيفة من وقف ؟ فاذا دعوت

أحدهم « بالأفندى » تجهم لك ، وانعقد ما بين عينيه ألماً وغضباً . وربما ابتدرك من القول أو الاشارة بما يسوءك . فاذا هو قبلها منك لشأنك ولموضعك ، فهو إنما يتجرع ولا يكاد يسيغ !

لقد أضحى الجميع يتداعون بلقب « البك » ، صغارهم وكبارهم فى هذا بدرجة سواء ! ولا بأس بهذا وليكن شأننا فيه شأن إخواننا الأتراك .

بقيت « الأفندى » التى ذلت فى هذا العصر وهانت ولم يبق لها من أمل تعيش عليه إلا فى جماعات الحجاب والسعاة فى الدواوين ، فهم الذين يرضونها ، ويطمئنون بها ، ويستريحون إليها دون سائر المطربشين .

أستغفر الله ! فلقد نسيت عسكرى الدورية ، وهل يستطيع حوذى من أى صنف ، أو بائع من هؤلاء المترفقين بأبدانهم ، أو نحو هذين ممن يرهبون سطوة جندى النوبة ، أو يدعوه بيا عسكرى ، أو يا جاويش إنهم جميعاً ليدعونه « بيا أفندى » وكثيراً ما تكون هذه الدعوة المحببة سبباً فى الاغضاء ، أو التلطف فى القضاء !

أرأيت كيف صحت العبارة العامية فى هذه الكلمة : « يقطع من هنا ويوصل من هنا ! »

ولا أرى ، قبل أن أختم هذه الكلمة ، بدّاً من الاشارة إلى كلمة أخرى ، بعثها السعد من الأرض وعلا بها على السحاب ؛ فأضحت لأجل أصحاب المناصب أجل الألقاب .

لا أدرى إن كنت تدرى أو لا تدرى أن ألقاب التشريف كانت تجرى صعداً على النحو الآتى : حميتلو « بتشديد الياء » . وهذه لأصغر طبقات الموظفين . فرفعتلو ، فعزتلو ، فسعادتلو ، فعطوفتلو ، فدولتلو . وترجمتها على الولاء : صاحب الحمية ، صاحب الرفعة ، صاحب العزة . . . الخ .

فترى أن هذه الرفعة قد طارت من هذا المكان ، وحلقت حتى أمست أعظم تشريف لرئيس الحكومة ولرئيس الديوان !

آمنت أن من الألقاب ما يهبط ومنها ما يصعد ، ومنها ما يشقى ومنها ما يسعد ، (وكذلك الدهر حالا بعد حال) ولله الأمر من قبل ومن بعد .

فى الضمير العام

يعتريك البياع من هؤلاء البياعين المضطربين فى الطرق بسلعهم فيطرحها لنظرك ، وقد تجيلها يده بين ذقنك وفخذك إن كنت جالساً حتى يحك بالوعاء : صندوقاً أو عدلا أو سلة ، صدرك . وقد تنازعك نفسك إلى أن تشترى ، فتسأله الثمن ، فتراه يحلف لك مبتدئاً مرتجلا ، متبرعاً محتسباً ، ولم تكن قد باديته بشك فى قوله أو جرح فى ذمته . يحلف لك بكل مؤثمة من الأيمان أنه إنما اشترى بعشرة قروش ، ولا يطمع فى أكثر من قرش واحد أو نصفه ربما لا يقوم بشئ من طول سعيه وكده ؛ وإنه لا يتحرج من أن يدخل فى يمينه الطلاق ، وفقد الولد ، وذهاب البصر ، وبطلان الشق بضربة الفالج الخ . . . ! وتعرض عليه ثلاثة قروش مثلا أو ما دونها ، فيتأبى ويتعذر ، وقد يتركك ويمضى مهرولا مغذاً ، ليدخل فى وهمك أنه لم يكن غالياً فى عرضه ولا متأرباً ، فان راجعته وإلا ظل فى هرولته حتى يغيب عن نظرك ؛ ثم لا يلبث أن ينقلب إليك ، فيحط الثمن إلى ثمانية ، فالى ستة ، وهكذا لا يزال يتدلى حتى يصل إلى ما عرضت عليه أول الأمر . وكذلك تعقد الصفقة فى سراح ورواح !

إن ما يستدعى البحث حقاً ، بل إن ما يثير الفزع حقاً ، أن

يحاول هذا الرجل أن يغشك ثم لا يلبث أن تنكشف محاولته وأن يحلف بكل ما يحلف به ، وسرعان ما يظهر كذبه ومينه وحنثه . ومع هذا وهذا لا يبض جبينه بقطرة واحدة من خجل أو حياء ؛ بل إنه ليقاومك فى ألوان من الحديث كأن لم يحمل وزراً ولم يقترف إثماً ، ولم يأت أى شئ مما يعاب به الناس !

وإن مما يستدعى العجب الأعجب ، بل إن مما يثير الفزع الأفزع أن أكثر الناس ، حتى المتعلمين المثقفين منهم ، لا ينكرون هذا على أولئك الباعة ولا يزجرونهم ، ولا يظهرون الاشمئزاز منهم ، ولا ينهونهم عن العودة لمثله !

وإن اطراد ذلك من جمهرة الباعة ، واطراد هذا من جمهرة المشترين ، ليبعث على الحكم ، مع الخجل الشديد ، بأن الغش ، والكذب ، والحنث بأغلظ الأيمان ، هو من العرف المعروف فى هذه البلاد .

ومن الحق الذى لا يعتريه شك ، الحق المؤلم الموجع ، أن هذه الطبقة الدنيا فى بلادنا ، على وجه عام ، لا تشعر ألبتة بشئ يدعى الضمير ؛ يغشك البائع فى السلعة ، وإذا استطاع طفف الكيل أو أخسر الميزان . ثم تراه يكذب فى القول ، ويحنث فى اليمين ، ما يجد لشئ ومن ذلك ألماً ، ولا يحس له خجلا ولا ندماً ، إنه لا يحس شيئاً من ذلك ألبتة ، بل إن نجاحه فى غشه وزيفه واستراحة الناس إلى كواذب أيمانه لما يبعث فيه عجباً وأريحية . حتى إذا خلا إلى أمثاله وأكفائه ، جعل يباهى بذلك ويكاثر كما يتبارون

هم أيضاً فى التباهى والتكاثر بما وقع لكل منهم من مثله !

هذا هو الخطر الأعظم ، يجرم المجرم ولا يرى أنه أتى شيئاً ، ولو قد شعر ، حتى أضعف الشعور ، بأن فى الجرم إثماً ، وأنه أمر مكروه لا يليق بالانسان أن يقارفه ، فانه ولا ريب مما ييسر السبل إلى إصلاح هذه النفوس ، فان بعث الضمائر من الوقود أهون على الداعين من خلقها من العدم . قلت إن غش الباعة وحنثهم بأغلظ الأيمان هو من العرف المعروف فى هذه البلاد ، وأذكر أن من قرابة ثلاثين سنة ، إذا كان موسم الخيار وأقبل الليل ، صف باعته عرباتهم بجوار مسجد السيدة زينب رضى الله عنها . وعلى كل منها مصباح كبير ، وجعل كل منهم يصيح مل‌ء لهاته بسمع مأمور القسم ومن قبله من رجال الشحنة : «بالحلال خمسة وبالحرام ستة ، يا جمع العصارى يا لوبية» .

ولقد رأيت هذا بعينى وسمعته بأذنى ، وإنما خصصت هذا المكان لأن حى السيدة هو الحى الذى نشأت فيه ، ولا بد أن الأمر كان كذلك فى سائر الأحياء .

بالحلال خمسة وبالحرام ستة ! ولست بحاجة إلى أن أبين أن المراد بالحرام الوزن الناقص . ومعنى هذا أن إخسار الميزان مما يجوز أن يقع عليه التعاقد بين البائعين والمشترين ! وأحسب أن هذا مالا يقع له شبيه فى أى بلد آخر من بلاد الله .

وأغلب الظن أن إمساك الباعة الآن عن عرض التصافق على الحرام إنما مرجعه إلى خوف العقوبة القانونية التى تغلظ عليهم هذه السنين فى النقص من الموازين .

ولقد أبرزت فى هذا الحديث جماعات البياعين ، لأنهم يطالعون الناس فى كل ساعة ويعترضونهم بكل سبيل ، على أننا لو بسطنا فى آفاق النظر لراعنا أن نرى ما نرى من أكثر جماعات الصناع ومن يعالجون ألوان الحرف فى هذه البلاد ؛ أما خلف المواعيد فهذا قدر مشترك بين الجميع .

وأما استبدال مادة رديئة بأخرى جيدة (وهى المتفق عليها فى عقد الصفقة) ، وأما قلة العناية بتجويد صنعة ، وعدم التأنق فيها طوعاً لمطالب الفن ، فهذه الخلال يقع فيها الاختلاف بين جماعات الصانعين .

وهذا الاختلاف يرجع فى الغالب إلى يقظة المستصنع من جهة ، وإلى كفاية القائم على شأن الصناع ومبلغ حرصه على السمعة من جهة أخرى . أما الضمير ، الضمير وحده فلاغرو عليك إذا أسقطته من الحساب !

وبعد ، فان العلة الحقيقية لمعظم ما نشكو من التدهور الخلقى هى شيوع الكذب ، وإن شئت الدقة قلت هى أننا ، على الجملة ، لا تنزل الكذب المنزلة الحقيقية به من الأفكار والاستفظاع ، ولا نحتفل للنهى عنه ، فضلا عن المبادرة بالعقوبة عليه .

وشيوع الكذب ، مع الأسف العظيم ، ليس مقصوراً على الطبقة الدنيا من الناس ، بل لقد عدا على الكثير ممن أخذوا بحظ من العلم والتهذيب ، حتى لقد ترى الرجل أو الفتى يكذب فى غير حاجة ملجئة

إلى الكذب ، أو لدفع ما إن دفعه بالصدق والصراحة لم يمسه من غوائله شر كبير ولا صغير ! ولو أننا ننزل الكذب منزلته التى مهدتها له قواعد الأخلاق ما أسفناه فى هذا اليسر العظيم !

وأثر الكذب وعدم الاكتراث بالأقدام عليه يختلف باختلاف الناس ، وحظ كل منهم من التربية والتفكير والنظر إلى عواقب الأمور . ولهذا تراه فى بعضهم يسهل ارتكاب أفظع الجرائم إذ هو لا يعدو فى سواها إلا على التافه من المخالفة لقواعد الأخلاق ، وبين هذين الحدين مراتب تتفاوت طوعاً لتلك الخلال فى الناس .

البيئة عندنا لا تحارب الكذب ، بل لا تكاد تنكره . وإنى لأكره أن أقول إن كثيرين من الآباء والأمهات فى بلادنا يحملون الولد عليه ، وقد يضطرونهم إليه .

وإذا قدرت أن قوام عيش الجماعات هو الثقة ، فانظر كيف يعيش معشر لا ثقة لأحد فيهم بأحد ، لأنهم بين كاذب ومكذب لا يركن من صاحبه إلا على حذر وارتياب !

فالنجدة ، النجدة ! يا معشر القائمين على تربية النشء وعلى حراسة الأخلاق .

فن الاعلان

وهل بقى من لا يؤمن بأن الاعلان أصبح فناً له كسائر الفنون ، قواعد وأصول ؟ بلى ! هو فن له أثر وله خطر ، يتدارسه طلابه ويستذكرون مسائله وقضاياه ، ويراجعون الأساتيذ فى ما يَتَبَهَّم عليهم من تلك المسائل ، ويتبارون فى حذقه وتجويده ، حتى يبلغ بعضهم فيه رتبة العبقرية والنبوغ .

وما لفن الاعلان لا يكون له هذا الشأن وأجل من هذا الشأن ، وهو الوسيلة الفذة إلى تحريك التجارات ونفاق الأسواق ، وإيثار الفتى ، وذهاب الصيت فى كل مكان . بل لقد يكون إحسان الاعلان أهم الداعيات إلى ميل جماعات الدول إلى دولة ، وصفو قلوب الأمم إلى أمة ، واضطغانها على عدوها مهما يكن خطبه . ومن شأن هذا العطف وهذا البغض أن يبعث على الامداد بألوان المعونة المادية من جهة ، والكيد بالمنع والمضارة من الجهة الأخرى ، مما يسعد على النصر ، ويعجل للخصم الغلب والقهر .

وروى أن سائلا سأل المثرى العظيم المستر فورد صاحب مصانع السيارات المعروفة باسمه : لو تجردت من الغنى ؛ ولم يبق فى يدك إلا ألف جنيه ، فما عسى أن تصنع ؟ فقال : أخرج منها أولا

سبعمائة وخمسين للاعلان ، وأستأنف السعى فى الحياة بالباقى !

ولقد أدركت مصر حظ فن الاعلان وأثره البعيد فى المطالب الخاصة والعامة ، فجعل سكانها ، أو من يعنيهم الأمر من سكانها ، يتبارون فى تجويد الاعلان ومد رواقه ، وبسط آفاقه ، حتى بذوا الأمريكان ، وكانوا مضرب المثل فى هذا الشأن !

وأرجو ألا تتعاظمك هذه الدعوى ، فتعجل بالحكم علىّ بالتزيد أو الغلو ، فسأقيم لك الدليل ، إن شاء الله !

ولنمض أولا فيما كنا فيه من أثر الاعلان ، سواء فى استخراج الأموال ، أو فى استدراج العواطف بشتى الأساليب . ولقد تكون ماضياً فى طريقك ، ما بك أن تشترى أى شئ ، فيميل بصرك إلى معرض من معارض بعض الدكاكين (الفترينات) ، فيستهويك بعض السلع المعروضة بجمال شكلها ، بل بجمال وضعها ، فى بعض الأحيان ، فتتقدم لابتياعها ، مهما يجشمك الثمن . وهذا كما أسلفنا من أثر جودة الاعلان .

ولست بحاجة إلى من يقول لك إن جميع مدن المملكة المصرية ، لا فرق بين كبيرها وصغيرها ، دانيها وقاصيها ، أصبحت تزخر بفنون الاعلانات . فهذه الصحف السيارة ، والمجلات الدورية وغير الدورية ، تسيل أنهارها بالاعلان . وهذه جدران المبانى العامة والخاصة لا يكاد يعرى متر مربع فيها من الاعلان ، بين مطبوع على الأوراق ، أو مكتوب على الحائط ، أو متألق فى أعلى المبانى بنور الكهرباء . دع آلاف الاعلانات التى يلقاك بها الموزعون فى كل سبيلها . والاعلانات

الصوتية (الميكرفون) التى تجول بها السيارات فى الطرق والأسواق الخ ...

ومن أظرف ما يذكر فى هذا المقام أن للحكومة معهداً كبيراً، يقع على شارع من الشوارع الرئيسية فى قلب القاهرة، وسور هذا المعهد يمتد إلى مسافة كبيرة من جانب الشارع . وقد بدا للقائمين على تكليسه (بياضه) أن يبالغوا فى تزيينه وتبهيجه ، بتقسيمه إلى مربعات متساوية المساحة . ولم يمض على هذا التزيين والتبهيج بضعة أسابيع ، بل بضعة أيام ، حتى كانت جميع هذه المربعات محلاة بالاعلانات المختلفة ، ما خلا مربعاً واحداً لا أدرى لماذا ترك المسكين عريان ، لا أثر للنقش ولا للكتابة فيه !

فهناك المهلك ، والمبيد ، والبظ ، وورنيش العمدة ، وطربوش النسر الخ . . . ومن العجيب أنها كلها مكتوبة بالحبر الأسود وبأردأ الخطوط ، حتى يخيل إليك أنها منضوحة بوعاء الحبر نضحاً لم تجر بها أنامل ، أستغفر الله ، بل أكف الكاتبين !

وطال الزمن على هذا ثم طال . وأخيراً يظهر أن القائمين على شأن هذا المعهد الحكومى قد عز عليهم أن يبقى ذلك المربع فذاً بين سائر المربعات ، فاستخاروا الله وكتبوا فيه : «ممنوع لصق الاعلانات» .

ولقد زعمت لك أن مصر قد برعت أمريكا ، فضلا عن أوربا ، فى فن الاعلان ، واستنظرتك الدليل . فهاكه الآن .

لعلك تعرف ، ولعلك لا تعرف أن الأطباء لا يعلنون عن شأنهم بأية وسيلة من الوسائل فى بعض البلاد الأوربية . ولا شك فى أن

هذا من الجهل بفن الاعلان الناشئ عن الجهل بفوائد الاعلان ، فاذا أحلت الأمر على أن القانون فى تلك البلاد يحظر الاعلان على الأطباء ، فما كان عسيراً عليهم ، لو أرادوا ، السعى إلى إلغاء هذا القانون ، ليفيدوا ، ما شاء الله ، من طيبات الاعلان .

أما عندنا ففوق إعلانات الأطباء والمحامين فى الصحف السائرة وغير السائرة ، فلقد ترى « اليافطة » الطويلة العريضة مرفوعة على ساريتين تطاولان السحاب ، وهذه على جانب الشارع الرئيسى ، ثم أخرى على مدخل الشارع الفرعى ، ثم ثالثة على ناصية المنعطف ، ثم رابعة على صدغ العمارة ، وكلما انعطف بك السلم رفعت لبصرك « يافطة » ، وهكذا حتى تبلغ باب العيادة أو المكتب ، فاذا هو مرصع بجمهرة من « اليافطات » المختلفة الأشكال والخطوط والأحجام .

ولا يبعد أن يتقدم فن الاعلان فى بلادنا حتى يخترع شباكا سحرية تصطاد الزبائن ، وتسحبهم فى لطف ودعة ، حتى تصل بهم إلى العيادة أو المكتب فى أمان ، وما شاء الله كان !

وأبدع من هذا وأبرع ، أن يعلن الطبيب أنه إذا لم يكشف من المرض فى ٤٨ ساعة فقط ، فانه يرد إلى العليل ما دفع من النقود .

أرأيت مثلا أبلغ من ذلك فى الكفاية ، والثقة بالنفس ، والتمكن من الفن ، والقدرة المستيقنة على شفاء العلل ، مهما تعاصت فى ٤٨ ساعة لا تزيد ولو دقيقة واحدة من الزمان ؟

ولولا فضل الاعلان ما تسنى للذين ضربتهم العلل ، وقست عليهم الأسقام ، وألحت الأوجاع والآلام ، أن يبرأوا عن عللهم ،

ويتخلصوا من آلامهم وأوجاعهم فى مثل هذا الزمن اليسير ، والشفاء مكفول ، وإلا فالمال مردود ، وموف غير منقوص .

ومن الآيات التى تشهد لمصر بالبراعة والفوقان ، فى فن الاعلان ، أنك ترى صاحب مصنع الأثاث مثلا ، يجلو صورته هو بدل أن يجلو عليك صورة كرسىّ ، أو سرير ، أو ثريا ، أو صندوق ، أو منضد « ترابيزة » ، فإن الانسان ، من غير شك ، أكرم وأشرف من كل ما على وجه الأرض من صنع الانسان . ثم أنه ، من غير شك أيضاً ، أحسن خلقاً وأجمل شكلا من كل ما أخرجت مصانع الشرق والغرب ، من فاخر السرر والكراسى والصناديق والثريات والأنضاد . أليس قد قال الله تعالى فى كتابه الكريم : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم »[1] ، صدق الله العظيم .

أما التبريز فى العبقريات ، وإصابة غاية الغايات ، ففى التفات صاحب المطعم عن أن يصور فى إعلانه عن طعامه حملا مشوياً ، أو أرنباً برياً ، أو ديكا رومياً ، أو سمكا طرياً ، أو « طاجناً » فرنياً ، أو ثمراً جنياً ، أوكامخاً شهياً ، أو نحو ذلك مما يزعمون أنه يبعث الشهوة إلى الطعام ، ويحفز المعدة للازدراد والالتقام . بل تراه يلتفت فى إعلانه عن هذا الكلام الفارغ ، ويصور شخصه هو وعلى ثغره ابتسامة أحلى وأشهى من كل ما أنضجت الأفران من حلوى وسمك ولحمان ، ومن كل ما حملت الأغصان من فاكهة ونخل ورمان !

أصدقت ، بعد هذا ، أننا قد بذذنا الأمريكان فى فن الاعلان ؟

---

(١) سورة التين .

التأمين على الموت

وسيأخذك العجب حين يقع بصرك على هذا العنوان ، وستوجه الأمر على الخطأ ، فتظن أننى أردت أن أقول : « التامين على الحياة » فقلت : « التأمين على الموت » ، فبين الحياة والموت تضاد ، والتضاد من أقوى العلاقات . وقد يتبادر إليك الظن بأننى أعبث أو أمزح بقلب المعنى ، والدلالة بالنقيض على النقيض !

وإنى أؤكد لك ، يا سيدى القارئ ، أننى لم تلحقنى خطأ ، ولم يزلقنى غلط ؛ فقد تحريت هذا القول تحرياً ، وتعمدته تعمداً . وأؤكد لك ثانياً أننى لا أقصد إلى عبث ولا إلى مزاح ، فالأمر أجل من ذلك وأعظم . وستعلمن نبأه بعد حين !

فاذا استشرفت نفسك إلى علالة تبل بها الصدا ، أو لحة (تصبيرة) تشد بها المتن حتى يأتى الوقت المقسوم للبيان ، فلا بأس علىّ بذلك ، إذاً فاعلم ، علمك الله الخير وحجب عنك المكروه ، أنه لن يطوى من الزمن طويل حتى تقوم فى مصر شركات « للتأمين على الموت » بجانب شركات « التأمين على الحياة » !

ولأول مرة تسبق مصر العالم جميعاً فى ابتكار هذا اللون من النظم المالية ، بل إنها ستتأثر بهذا النظام دون العالم جميعاً !

وبعد ، فلقد تعلم أن فى مصر أزمة زواج تشتد عاماً بعد عام ؛ وهذه الأزمة تنحصر فى المدن ، لم تطرق القرى والحمد لله !

ولقد زعمت فى بعض مقامات الكلام (لا أدرى أفى الراديو أم فى بعض الصحف أم فيهما كليهما) زعمت أن هذه الأزمة ترجع إلى أسباب عدة ، أهمها ما أصبحت تقتضى حياة الزوجية ، فى هذا العصر ، من جليل النفقات .

كانت البنت من أوساط الناس إذا تزوجت لا تكاد تجشم الزوج أو أولياءه شيئاً ، فطعامها من طعام أهل الدار ، وكسوتها إزاران ورداءان فى العام ، وما حاجتها إلى حذاء وهى حِلس خدرها طوال الأيام ؟ إذاً فى الكوث (الشبشب) على رأى أستاذنا العلامة الشيخ مهدى خليل ؛ إذاً ففى الكوث والقبقاب غنى وكفاية .

ثم إنها توفر على الأحماء أجور الخدم وسائر تكاليفهم بما تقوم به من العجن والخبز ، والطهى ، وغسل الثياب ، وكنس الأرض ، ونفض الأثاث ، وتقديم القهوة للزائرات ، وصنعها للزائرين ، وخدمة الطفل الصغار الخ . . .

والآن لا تحسن البنت الحضرية شيئاً من هذا ، وقد لا تعرفه ، وإن عرفته وأحسنته لا ترضى بأن تعالجه أنفة وحفظاً للكرامة ، ودعنا من الأنفة والكرامة ، وحدثنى بعيشك ، متى تضطلع البنت أو الزوجة الحضرية بهذا أو ببعضه ، ولا بد لها كل يوم من غشيان السينما وغيرها من دور التسلية والترويح ؟ ولا بد لمن يسهر الليل

من أن ينام صدراً من النهار . ولقد يتصرم سائره فى الاختلاف إلى الخياطة ، ومتاجر الثياب والزينة ، وزيارة الأصدقاء والأتراب ، والتفرج فى المتنزهات فى صحبة الزواج أو بعض ذوى الأرحام ، واستقبال الضيفان . وناهيك بما يستهلك من الوقت ، بعض النهار ومهبط الليل ، فى التجمل والتزين ، وتصفيف الشعر طوعاً لآخر بدع (مودة) ، سواء جرى ذلك فى البيت أو فى دكان الحلاق . ولا بد أن يكون لقراءة الروايات من مساحة اليوم حظ غير قليل .

ثم إن هذا وهذا لقد ضاعف نفقات الزوجية أضعافاً كثيرة ، فللسينما وسواها من دور التسلية أجر ، وللركوب فى الغدو والرواح أجر ، ولتنظيم شعر الرأس coiffure أجر . ولا تنس تشذيب أصابع اليدين وصبغهما manucure ، فلذلك كذلك أجر .

وإياك أن تسقط من الموازنة بين نفقات المعيشة اليوم ونفقاتها بالأمس ، إن تلك المخدورة فى الدار طوال الأيام فى غير حاجة إلى الاستكثار من الثياب ولا تعديد الألوان ولا الاغلاء فى الأثمان . أما سيدة اليوم وفتاته ، فان موجبات الأناقة ، أو على التعبير العامى الشائع « الشياكة » لتقتضيها ألا تختلف عليها الأنظار وهى فى ثوب واحد ، بل لو استطاعت لاتخذت كل يوم من الثياب والأحذية جديداً ، ولبست مستحدثاً طريفاً ، بل إن من السيدات لمن تأنف أن تضع عليها من الثياب فى الليل ما وضعت بالنهار .

والحاصل أنك إذا جمعت هذه النفقات الهائلة إلى الخسارة المالية الناشئة عن هجر السيدات للقيام بتدبير المنزل ، ونفورهن من الاضطلاع

بشئون البيت — تجلى لك وجه العذر فى إعراض الشبان عن الزواج فى هذه الأيام . وكيف لهم بالمال الذى يكافئ هذه النفقات الجسام ، فوق ما تجشمهم تكاليف السكن ونفقات الطعام ؟

نعم ، لقد أعرضت عن الزواج كثرة الشبان الذين يجرون على عرق من التثقيف والتهذيب ، لأن عائداتهم — أو مواردهم بالتعبير الحديث — لا تفى بحاجاتهم الكثار الثقال فى هذا الزمان . فاذا فكر أحدهم فى تحصين نصف دينه اقترن هذا التفكير بالتماس الزوج ذات المال ، لتعينه بمالها على شأنه ، وتضع عنه بعض حمله ، فاذا لم يكن لها مال حاضر فحسبه غنى الأب أو الأم وإنهما إذا لم يعينا فى الحاضر ، ففى ميراث أحدهما أو كليهما عزاء وشد للمتن ، وعون على موالاة السير فى طريق هذه الحياة .

وإنى أعرف أن كثيرين من الشبان لم تطلب نفوسهم بتوثيق عقدة الزواج إلا بعد أن أخرج لهم الأحماء حجج أملاكهم ، إن أطياناً زراعية ، وإن أبنية قائمة ، فاطمأنوا إلى صحتها واستيفائها لشروط عقود الملكية . وربما مضى أحدهم فى سر من أولياء الفتاة إلى المحكمة المختلطة ، فاستخرج الشهادات العقارية الدالة على خلو الأعيان من كل رهن أو اختصاص أو امتياز ، حتى يقبل مطمئن الضمير على الزواج .

ولكن ! . . . آه ولكن ! . . . ولكن من ذا الذى يضمن أن تقصر آجال هؤلاء الأصحاء ، لتحق التعزية ويعجل المقدور بالرجاء ؟

وما يدرينا لعل أعمارهم تطول وتطول ، حتى يقيموا هم المناحات على البنات وأبناء البنات ؟

إذاً فينبغى أن يضاف إلى الاطمئنان على صحة عقود الملكية الاطمئنان إلى أن الرجل قد أسن وهرم ، وتزاحفت عليه العلل من كل جانب . ليضمن العريس أن أيام حميه فى الدنيا غير محدودة ، وأن خطاه إلى الضريح أصبحت إن شاء الله معدودة !

وإنى لأعرف رجلا واسع الغنى ، ذا وقار ودين ، له بنت أوفت على غاية من الجمال والرشاقة وحسن الأدب . وقد أخذت بحظ من علوم العصر وفن تدبير المنزل . وأسرة ، هذا الرجل على استنارتها وقوة ثقافتها ، ما برحت تحافظ على جميع التقاليد التى تحرص عليها كل أسرة تشعر بالكرامة والاحترام فى هذه البلاد .

ويتقدم شاب موظف فى الحكومة لخطبة الفتاة ، وترضى الأم ، فى سرّ من بعلها ، باخراج أسانيد الملكية للخاطب ، وأنت خبير بلهفة الأمهات على تزويج البنات . وبعد إجراء اللازم من فحص هذه المستندات ومراجعة دفاتر المحكمة المختلطة ، والاطمئنان إلى أن الأعيان نظيفة لم يعلق بها شئ من الحقوق وحينئذ صرف عنان السعى إلى تفقد صحة حميه العزيز .

وأول مابدا له من هذا أن يجعل لاحدى خدم الدار جعلا على أن تريه مناديل البك التى فى طريقها إلى الغسل . فتظاهرت الخادم بالرضا ، وواعدته زماناً ومكاناً ، ومضت من فورها إلى سيدتها فأخبرتها الخبر . فأشارت إليها أن افعلى ، وحذرتها مطالعة سيدها بذلك .

وما أشد خيبة المسكين ، إذ يبسط المناديل كلها ظهراً وبطناً ، ويجد النظر فى خيوطها خيطاً فخيطاً ، حتى يكاد من شدة التحديق ينقض نسجها نقضاً ، فلا يرى فى أيها أثر الدم من نفثة صدر .ولاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وما له يأس ؟ وما له يقنط ؟ أفكتب على الناس ألا يموتوا إلا بذات الصدر ؟ وإذا كان السل معجلا للآجال ، فلا شك فى أن السكر والزلال من حبائل عزرائيل .

وهنا تقوم مشكلة . فان أخذ النماذج (العينات) من بول الرجل لتحليلها يقتضى ولابد علمه ورضاه فليس للأبوال شأن المناديل . إذاً لم يبق إلا إتخاذ الصراحة . ولا شك أن كل زواج لا تقوم وسائله على الصراحة لا خير فيه . بل قل" أن يكفل له بقاء . وما كاد الرجل يسأل فى هذا حتى ثار ثائره ، وجن جنونه . وهم بالبطش بالرسول ، لولا أن أسعفته ساقاه بالفرار . وأرسل البك فى دعوة ابن أخيه غير المتعلم ، وعقد له على بنته لساعته .

وبعد ، فليس كل الناس بقادر على أن يرغم ابنته على الزواج من قريبه ، واقعاً شأنه فى الحياة ومن هوى الفتاة حيث وقع ، وليس كل الناس بقادر ، إذا طاب له ، على أن يعضل ابنته حتى تشيخ وتعنس . وليست الآجال بأيدى الخلق ، حتى يعجل الآباء الموسرون بآجالهم ، ليتقدم لبناتهم الخاطبون من شباب هذا الزمان .

إذاً لم يبق إلا حل واحد لهذه الشكلة الاجتماعية التى تعانيها

مصر فى هذه السنين . حل واحد يستدرج الشبان للزواج ، ولا بأس به على البنات ولا على آباء البنات . بل إنه فوق هذا وهذا ليفسح فى النظام الاقتصادى ويضيق من مساحة العطلة فى البلاد .

وهذا الحل الفذ الذى لا حل قبله ولا بعده ، هو أن تؤسس فى مصر شركة أو شركات للتأمين على الموت تقوم بجانب شركات التأمين على الحياة . وهذه شركات التأمين على الموت ، وقاك الله البليات ، وعصمك من خطبة الشباب للبنيات ، تجرى فى معاملاتها على عكس ما تجرى عليه شركات التأمين على الحياة ، وإليك البيان .

يؤمن الشاب الخاطب على موت حميه الموسر أو حماته الموسرة بمبلغ معين ، يؤديه هو للشركة إذا حم القضاء ، وحل إرث الأحماء . وذلك لقاء قسط شهرى أو سنوى معين ، تؤديه الشركة للشاب المؤمن . وهذا القسط يقل ويكثر طوعاً لمبلغ التأمين من جهة ، وصحة الحم العزيز أو الحماة المحبوبة من جهة أخرى . وبهذا النظام يكفل اليسر العاجل للشاب ، والمغنم الآجل للشركة . فى حين لا يوتر المرحوم أو المرحومة فى زيف ولا صحيح ، اللهم إلا وهو ملحود فى الضريح . وإن من قد دس فى التراب ، لفى شغل بحساب غير هذا الحساب !

ولعلك قد وقفت على هذا النظام المالى البديع ، فى غير حاجة إلى من يزعم أن أحسن « زبائن » الشركة وأولاهم بالأغلاء فى الأقساط وأجورهم بعدم المبالغة فى مقدار التأمين ، هم الذين شاعت فيهم الأسقام وألحت عليهم العلل ، ومن خنقتهم الذبحة

أو أبطلهم الشلل . فاذا كان فى البول سكر أو زلال فقد تراءت المنى وتدانت الآمال . وإذا كان مع السكر أستون **acétone** فالحظ مكفول مضمون . وإذا كان فى الزلال سلندر **cylindre** ، فذلك السعد الذى لا يقدر . إذاً فقد حق اليسر والبسط ، وهبط التأمين وارتفع القسط . والله يرزق من يشاء بغير حساب ، ولو من طريق العلل والأسقام والأوصاب !

فليبتهل إلى الله من شاء من ذوى اليسار ، أن ينعم عليه بالعلل التى تقصف الأعمار ، حتى يفرح بالأكفاء الظرفاء من الأصهار ، دون أن يؤثر من درهم ولا دينار ، فاللهم قنا الغنى فى الدنيا وقنا فى الآخرة عذاب النار .

شركة تنشيف الريق

أكثرت الصحف فى هذه الأيام من ذكر مقابلات لحضرة صاحب المعالى وزير الأشغال ، خاصة بتخفيض ثمن المياه فى القاهرة ، كما تردد خبر اجتماعات اللجنة المؤلفة لهذا الغرض من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان! ولقد زعم لى زاعم من المؤرخين أصحاب الاحصاء ، أن اجتماعها الأخير كان الاجتماع الـ ٤٧١٩٨٥٠٣٩٦٢٢٤٩٠٣٢٢٩٤١١ !

فترى هل آن أن ينجح المسعى ، وتحط الشركة من أثمان الماء ، فقد مضى على سكان القاهرة ستون عاماً ، وستون عاماً غير قليل ، وهم يغصون بماء النيل . وكأن الشاعر كان ينظر بلحظ الغيب إلى القاهريين وما يعانون من شركة المياه حين قال :

نفر إلى الشراب إذا غصصنا ... فكيف إذا غصصنا بالشراب ؟

ترى هل ينجح السعى هذه المرة ، ويحق لساكن القاهرة أن يتمثل بقول الشاعر :

فساغ لى الشراب وكنت قبلا ... أكاد أغص بالماء الفرات ؟

يا قومنا : أقسم لكم بالله تعالى ، غيرحانث ولا آثم ، إن الشركة

ليست تأتينا بالماء من إفيان ، ولا من إكس ليبان ، ولا من فيشى ولا من بلاد اليابان حتى يلتمس لها العذر ، بنفقات النقل فى البر والبحر ، وأجور الحزم واللف والتعبئة والصف ، والتأمين خوف الغرق والحريق ، وما عسى أن يدركه من العطب فى أثناء الطريق . وناهيكم بحساب ماقد يكسد فى الأسواق منه ، وما قد يبور فى المتاجر بانصراف الهواة عنه . ومن يدرى فلربما ظهرت « ماركة » ماء جديد ، « موديل » سنة ١٩٣٨ أو ١٩٣٩ فيها من المزايا ، ليس فى هذا الماء ، فى رى العطاش وبل صدى الظماء !

ليست تجئ بشئ من هذا حتى تغلو هذا الغلو فى الأسعار ، توقياً للنفقات وتوقياً للخسار . إنما تدفع إلينا الماء من نيلنا الذى يشق مدينتنا ، والذى يجرى بين أيدينا ، والذى طالما طغى وزاد ، حتى أغرق البلاد ، وأهلك العباد وأتى على اليابسة والخضراء ، وألقى بربات الخدور إلى متن العراء . بل إن من يرى متدفقة فى دمياط أو فى رشيد ، ليحسب أنه ماض لرى العالم القديم والعالم الجديد . وتراه يغذو فى شمالنا وجنوبنا ألف ترعة ، فاذا جاز بنا ضيقت الشركة ذرعه ، وباعتنا ماءه « بالشربة » والجرعة ! حتى أصبحنا ، ونحن نغدو على حفتيه ونروح ، نتناشد قول الشاعر :

يا سرحةُ الماء قد سدّت موارده أما إليك طريقٌ غير مسدود ؟

حقاً يا سيدتى الشركة ، لقد سامتنا « عداداتك » رهقاً وعذاباً ،

وجرعتنا من نيلنا علقماً وصاباً ، وكان من قبل سكراً مذاباً ، وكان شهداً وجلاباً ، لقد ساغ ورداً وحلا شراباً !

حقاً يا سيدتى الشركة ، إنك لتروقين الماء ولكنك تعكرين النفوس ، وتملئين الآنية ولكنك تخلين الجيوب حتى من الفلوس !

يا سبحان الله ، يا شركة ! تعطيننا الماء وتقتضين الذهب ، ولو كان مالنا نيلا لجف يا شركة من كثرة النزع ونضب !

إرحمينا ، يا شركة ، واعملى معنا بالمثل الذى قالته العامة من قديم الزمان : « الميه ماتفوتش على عطشان » !

وبعد ، فعندى ، يا سيدتى الشركة ، أكثر من هذا . ولكن فى فمى ماء وهل ينطق من فى فيه ماء ؟

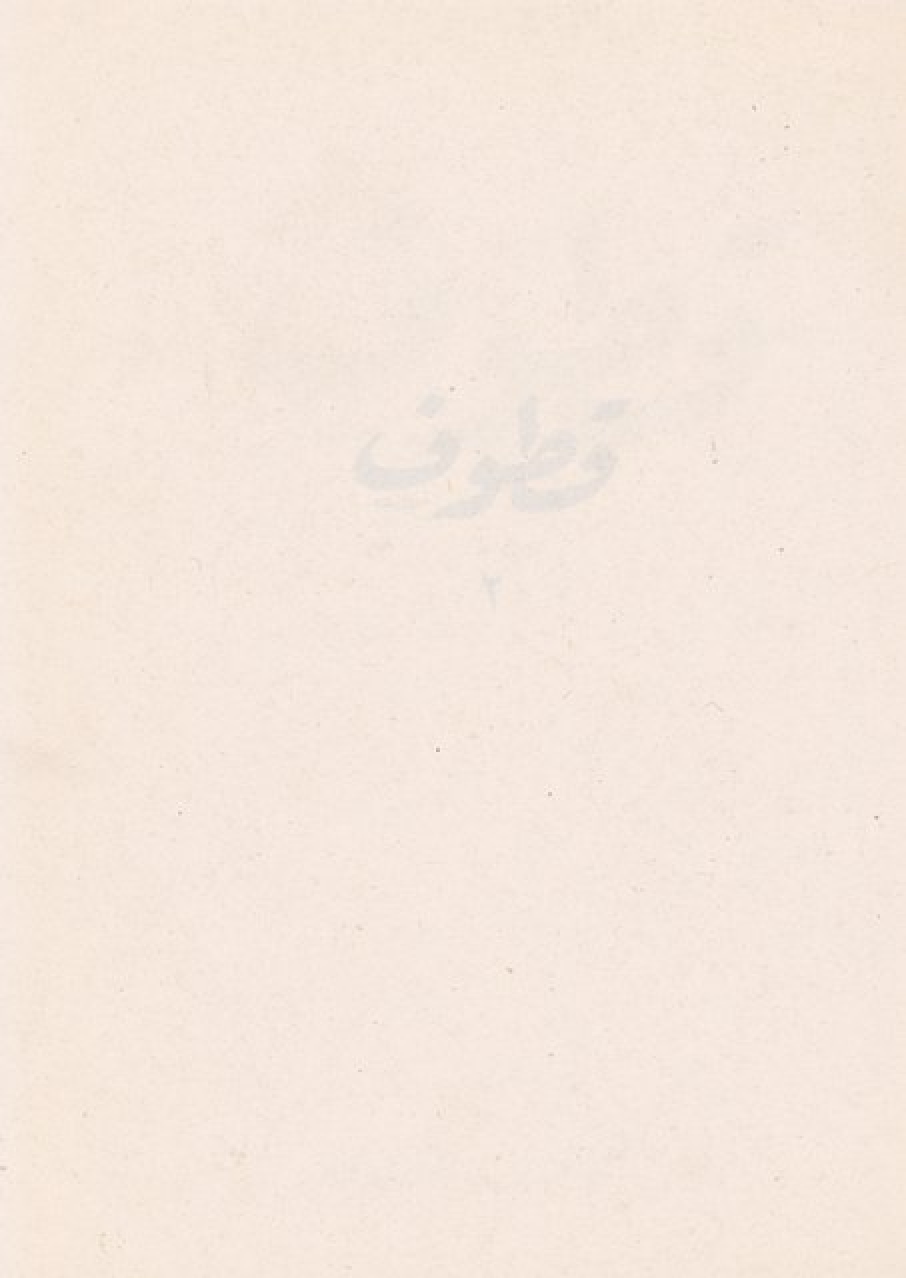
ونرجع إلى سياقة الحديث فنقول : أما آن لوزارة الأشغال أن تنجز الوعود ، ولشركة المياه أن تعدل عن دلها المعهود ، فتترفق فى ثمن الماء ، وتخفف عن كواهلنا ما يهددها من الأعباء ، فقد اعترانا الداء من ناحية الدواء . ولله در شاعر الغبراء :

من غصّ داوى بشرب الماء غصّته
فكيف حالُ الذى قد غص بالماء ؟

فان فعلت ، وإلا فقد طابت الهجرة إلى البرارى والقفار ، لنتعوض عن ماء النيل ماء الآبار والأمطار . وإنى لأخشى أن تلاحقنا الشركة هناك ، وتبسط علينا سوط الاشتراك ، بعد أن تحوز ماء

الغمام فى مواسير ، وتختم بالعداد على كل بير . فالشركة وراءنا ولو تعلقنا بالسحاب ، أو تدسسنا فى التراب ، وأمرنا إلى من له المرجع والمآب !

أرجو أن تنصفينا ، يا شركة المياه ، وتفرجى عنا من هــذا الضيق ، وإلا لاضطرنا إلى أن ندعوك « شركة تنشيف الريق » والسلام .



قطوف

٢


قطوف
٢



عبد العزيز البشري



٢

دار الكاتب المصري

الطبعة الأولى . . . ديسمبر ١٩٤٧

فهـــــرس

صفحة

فهرس

بين الأدب والحرب

لا غرو علىّ إذا زعمت أن الأدب ليس مديناً لشئ من الأشياء بقدر ماهو مدين للحروب . هو مدين لها فى قوته وازدهاره ، وسعة آفاقه ، وكثرة تصرفه فى فنون المعانى وتقلبه فى شتى الأغراض .

لقد دخل حديث الحروب وأسبابها وما يتصل بها فى أكثر أبواب الأدب ، واحتل منها المكان الأرفع ، بماله من شدة القول ، وجزالة اللفظ ، وتلاحم النسج ، وإشراق الديباجة ، ورقة التشبيه ، وبراعة التخييل . ولك أن تقلب النظر فى أبواب الأدب لتدرك كيف أمد حديث الحروب وغذى ، وكيف أعز وأغنى ، وما ولد من المعانى ، واستحدث من الصيغ ، وأجد من رائع الكلام . وإنك لتجرى هذا الحكم بدرجة سواء على أبواب الوصف ، والفخر وما إليه من الحماسة والمديح ، والرثاء والهجاء ، حتى الغزل . وأى شئ لعمرى وراء ذلك من أبواب الآداب ؟

ولم يقتصر تصرف البلاغات الحربية على أحد الفنين ، بل لقد شاعت فى النظم والنثر جميعاً . وكان فى الذروة بالضرورة منها ماجاء به القرآن الكريم ، ويأتى بعد ذلك كلام النبى عليه الصلاة والسلام .

وبعد ، فلقد قالت العرب ، وقال المستعربون ، فى وصف الحروب

وجياد الخيل ، والسلاح ، ووصف الشجعان ، والخوارين الجبناء ، كما قالوا فى الصبر والأقدام ، والمكيدة فى الحرب ، والتحفظ من العدو ، وناهيك ما تفاخروا به من الشجاعة وتكاثروا ، وما تذاموا به من الجبن وتعايروا . وما مدحوا به الكماة فأبدعوا فى الثناء ، وما رثوا به قتلى الحروب فأفلقوا فى الرثاء . وذلك إلى ما أثر فى هذه الأبواب من حكم الحكماء ، وما سار من أوامر القادة ووصايا الأمراء الخ . . .

وإذا كان استقصاء ماقيل فى الحروب وأسبابها وما يتصل بها مما يتجاوز جهد الطاقة ، وإذا كان الإتيان على ماجاءت به كتب الأدب والتاريخ والسير مما لا يحتمله مقال ، بل إن محله الأسفار الضخام – فان من الحق علينا أن نأتى بألوان من النماذج فى هذه الأبواب . ولنبدأ ببعض ما ورد فى القرآن العزيز :

بسم الله الرحمن الرحيم

« وأعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُم مِن قوَّةٍ وَمِن رِبَاطِ الخيلِ تُرهِبُونَ بهِ عَدُوَّ اللهِ وعَدُوَّكُم وآخرِينَ مِن دُونِهِم لاتَعلَمُونَهُم اللهُ يَعلَمُهُم . »(١)

وقال جل وعلا : « كُتِبَ عَليكُمُ القِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُم ، وعَسَى أنْ تَكرَهُوا شَيئاً وَهُوَ خَيرٌ لَكُم . وَعَسَى أنْ تُحِبُّوا شَيئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُم . » (٢)

---

(١) سورة الأنفال . (٢) — البقرة .

وقال : « فَلْيُقاتِلْ في سَبيلِ اللهِ الَّذِين يشْرُونَ الحيَاةَ الدُّنْيا بالآخرَةِ . ومَنْ يُقَاتِلْ في سَبيلِ اللهِ فيُقْتَلْ أوْ يَغْلِبْ فسَوْفَ نُؤْتِيهِ أجراً عَظِيماً . »(١)

وقال : « والَّذِينَ هاجروا في سَبيلِ اللهِ ثمَّ قُتِلوا أوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللهُ رِزْقاً حسَناً . وإنَّ اللهَ لهُوَ خيرُ الرَّازقينَ . »(٢)

وقال : « وَلا تَقُولوا لِمَنْ يُقْتَلُ في سَبيلِ اللهِ أمْوات بَلْ أحْياءٌ ولكِنْ لا تَشْعُرُون » ، « وقَاتلوا في سَبيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقاتِلونكُمْ ولاتَعْتَدوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المعْتَدِين . واقْتُلوهُمْ حيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ (٣) وأخْرِجُوهمْ مِنْ حيْثُ أخْرَجوكُمْ . » (٤)

وقال : « فَقَاتِلْ في سَبيلِ اللهِ لا تُكَلَّفُ إلا نَفْسَكَ ، وحرِّضِ المؤْمِنينَ ، عَسَى اللهُ أن يَكُفَّ بَأسَ الَّذِينَ كفَروا ، واللهُ أشَدُّ بَأساً وأشدُّ تَنْكيلا . » (٥)

« إنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلونَ في سَبيلهِ صَفاً كأنَّهُم بُنْيَانٌ مَرْصوصٌ . » (٦)

---

(١) سورة النساء . — (٢) الحج . — (٣) صادفتموهم وظفرتم بهم .
(٤) سورة البقرة . — (٥) النساء . — (٦) الصف .

« يأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة . » (١)

« يأيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم . » (٢)

« فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم . »

« ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم . »

« فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم (٣) فشدوا الوثاق ، فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها . » (٤)

« يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار . ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة فقد باء بغضب من الله . » (٥)

« فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم

(١) سورة التوبة . — (٢) التحريم . — (٣) أثقلتموهم بالقتل والجراحات . — (٤) سورة محمد . — (٥) الأنفال .

لَعلَّهُم يَذَّكرونَ . وإمّا تخافنَّ مِنْ قوْمٍ خِيانةً فانْبِذ إليْهِم على سَواءٍ . إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ الخائِنين . »(١)

« إذْ يُوحِي رَبُّكَ إلى الملائكةِ أنّي معَكمْ فثبِّتوا الّذينَ آمنُوا ، سأُلقِي في قلوبِ الّذينَ كفروا الرُّعْبَ فاضرِبوا فوْقَ الأعْناقِ واضْرِبوا منهُمْ كلّ بنانٍ . »(٢)

« يَقولونَ لوْ كانَ لنا منَ الأمرِ شيْءٌ ماقُتِلْنا هاهُنا ، قل لوْ كنتُمْ في بُيوتِكمْ لبرَزَ الّذِينَ كتِبَ علَيْهِمُ القتْلُ إلى مَضاجِعِهِمْ . »(٣)

« إن يَمْسَسْكمْ قرْحٌ فقدْ مَسَّ القَوْمَ قرحٌ مِثْلُهُ ، وتِلكَ الأيامُ نُداولُها بينَ الناسِ » (٤)

« وأطِيعُوا اللهَ ورَسولَهُ ولا تَنازَعوا فتَفشَلوا وتَذهَبَ رِيحُكمْ ، واصبِرُوا إنَّ اللهَ معَ الصّابرينَ » « يَأيُّها الّذينَ آمَنوا اسْتَجِيبُوا للهِ وللرّسولِ إذا دَعاكمْ لِمَا يُحْييكمْ ، واعْلَموا أنَّ اللهَ يَحُولُ بيْنَ المرْءِ وقلْبِهِ . » (٥)

« يأيُّها الّذينَ آمَنوا اذكروا نِعمةَ اللهِ عَليكم إذ جاءَتكمْ جُنُودٌ فأرْسلْنا علَيْهِم ريحاً وجُنوداً لم ترَوْها ، وكانَ اللهُ بِما

(١) سورة الأنفال . — (٢) آل عمران . — (٣) آل عمران .
(٤) آل عمران . — (٥) الأنفال .

تَعمَلونَ بَصيراً . إذ جاءُوكم مِنْ فَوقِكمْ ومِنْ أسْفَلَ مِنكم وإذ زاغَتِ الأبْصارُ وَبلَغَتِ القلوبُ الحَناجِرَ وتظنُّونَ باللهِ الظُّنونا . هُنالكَ ابتُلِيَ المؤْمِنون وزُلزِلوا زِلزالاً شَديداً . »[١]

ونختم ما أوردنا من آى الجهاد بما وصف القرآن به جياد الخيل فى الغارة ، قال جل مجده وتعالى ذكره : « والعادِياتِ ضَبْحاً[٢] . فالموريات قدْحاً[٣] ، فالمُغِيراتِ صُبْحاً[٤] . فأثَرْنَ به نقعاً[٥] ، فوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً . »

الله أكبر ! هذه بلاغة تنقطع دونها علائق الأقلام . وليت شعرى هل يعدل كلام الله كلام !

فى الشجاعة والإقدام

والآن ننتقل إلى ماقيل فى الشجاعة والإقدام . ونبدأ بما كان من خير الأنام ، عليه الصلاة والسلام :

روى الإمام البخارى بسنده أن رجلا سأل البراء بن عازب رضى الله عنه : أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

---

(١) سورة الأحزاب . — (٢) العاديات : الخيل التى تعدو فى الغزو ، والضبح صوت أنفاسها إذا عدت . — (٣) الموريات : القادحات . والإيراء : إخراج النار . والمراد ما ينقدح من حوافرها . والقدح : الصك . — (٤) المغيرات : الشديدات العدو فى الغارة . — (٥) النقع : الغبار . والمراد غبار الحرب . ويقال له أيضا : الرهج بفتحتين .

قال نعم ! لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر . ثم قال : لقد رأيته على بغلته البيضاء ، وأبو سفيان آخذ بلجامها ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : أنا النبى لا كذب . وزاد غيره : أنا ابن عبد المطلب قيل فما رؤى يومئذ أحد أشد منه . إلى أن قال : فلما التقى المسلمون والكفار ولى المسلمون مدبرين . فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته نحو الكفار .

وعن على رضى الله عنه قال : إنا كنا إذا حمى البأس ، واحمرت الحدق ، اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى صلى الله عليه وسلم وهو أقربنا إلى العدو وكان من أشد الناس يومئذ بأساً . وقيل : كان الشجاع هو الذى يقرب منه صلى الله عليه وسلم إذا دنا العدو لقربه منه .

وقال له أبى بن خلف حين افتدى يوم بدر : عندى فرس أعلفها كل يوم فرقاً من ذرة أقتلك عليها . فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : أنا أقتلك إن شاء الله !

فلما رآه يوم أحد ، شد أبى على فرسه ، على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاعترضه رجال من المسلمين ، فقال رسول الله : هكذا . أى خلوا طريقه ، وتناول الحربة من الحارث بن الصمة ، فانتفض بها انتفاضة تطايروا عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض . ثم استقبله فطعنه فى عنقه طعنة تدأدى منها عن فرسه مراراً . فرجع إلى قريش يقول : قتلنى محمد . وهم يقولون : ألا بأس بك . فقال : لو كان

مابى بجميع الناس لقتلهم ! أليس قد قال : أنا أقتلك ؟ والله لو بصق علىّ لقتلنى .

وهلك الخاسر فى قفول قريش إلى مكة .

ومن أبلغ ماقال الشعراء فى الشجاعة ، قول العباس مرداس السلمى :

أشد على الكتيبة لا أبالى أحتفى كان فيها أم سواها

وقول المتنبى :

شجاع كأن الحرب عاشقة له إذا زارها فدته بالخيل والرجل

وقول البحترى :

معشر أمسكت حلومهم الأر ض وكادت لولاهم أن تميدا
فاذا الجدب جاء كانوا غيوثاً وإذا النقع ثار ثاروا أسوداً
وكأن الاله قال لهم فى الـ حرب كونوا حجارة أو حديداً

وقول آخر :

قوم شراب سيوفهم ورماحهم فى كل معترك دم الأشراف
رجعت إليهم خيلهم بمعاشر كل لكل جسيم أمر كاف
يتحننون إلى لقاء عدوهم كتحنن الآلاف للآلاف
ويباشرون ظبى السيوف بأنفس أمضى وأقطع من ظبى الأسياف

وقول آخر :

الضاربين بكل أبيض مخذم والطاعنين مجامع الأضغان

فى الجهاد والصبر على الشدائد

ومن أحسن ماقيل فى فضل الجهاد ، والصبر على شدائده ، قول النبى صلى الله عليه وسلم : « الروحة والغدوة فى سبيل الله أفضل من الدنيا وما فيها » و « الجنة تحت ظلال السيوف » و « والذى نفسى بيده لولا أن رجالا من المؤمنين لا تطيب أنفسهم أن يتخلفوا عنى ولا أجد ما أحملهم عليه ، ما تخلفت عن سرية تغزو فى سبيل الله . والذى نفسى بيده لوددت أن أقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ثم أقتل، ثم أحيا ثم أقتل ، ثم أحيا ثم أقتل » .

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه يوم صفين ، وقد قيل له : أتقاتل أهل الشام الغداة ، وتظهر بالعشى فى إزار ورداء ؟ فقال : أبالموت تخوفوننى؟ فوالله ما أبالى أسقطت على الموت أم سقط الموت علىّ ! بقية السيف أنمى عدداً . وقيل له : إن درعك لا ظهر لها ، فقال : إذا استمكن عدوى من ظهرى فلا يبق !

وقال خالد بن الوليد عند موته : لقيت كذا وكذا زحفا ، وما فى جسدى موضع إلا فيه طعنة برمح ، أو ضربة بسيف ، أو رمية بسهم. وهأنذا أموت على فراشى حتف أنفى كما يموت العير . فلا نامت أعين الجبناء !

وقال عبد الله بن الزبير ، لما بلغه قتل أخيه مصعب : إن يقتل فقد قتل أخوه وأبوه وعمه . إنا والله لا نموت حتفاً . ولكن قعصاً بأطراف الرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف !

وقيل للمهلب بن أبى صفرة : إنك لتلقى نفسك فى المهالك ! فقال : إن لم آت الموت مسترسلا ، أتانى مستعجلا . إنى لست آتى الموت من حبه ، وإنما آتيه من بغضه . وتمثل بقول الحصين ابن الحمام :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد ... لنفسى حياة مثل أن أتقدما

وهى قصيدة مشهورة منها :

فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا تقطر الدما
نفلق هاماً من كرام أعزة ... علينا وهم كانوا أعق وأظلما

وقال جرير :

قل للجبان إذا تأخر سرجه ... هل أنت من شرك المنية ناجى

وقال حبيب بن أبى أوس الطائى :

فأثبت فى مستنقع الموت رجله ... وقال لها من تحت أخمصك الحشر
وقد كان فوت الموت سهلا فرده ... إليه الحفاظ المر والخلق الوعر
غدا غدوة والحمد نسج ردائه ... فلم ينصرف إلا وأكفانه الأجر
تردى رداء الموت حمراً فما أتى ... لها الليل إلا وهى من سندس خضر

فى وصف الحرب

ومن أبلغ ماقيل فى وصف الحرب : مشت الفحول ، مشى الوعول فلما تصافحت السيوف ، فغرت المنايا أفواهها . وقول الشاعر :

كأن الأفق محفوف بنار وتحت النار تزير

وقول الآخر :

ويوم كأن المصطلين بحره وإن لم يكن جمر وقوف على جمر
صبرنا له حتى تجلى وإنما تفرج أيام الكريهة بالصبر

وقول حسان :

إذا ما غضبنا بأسيافنا جعلنا الجماجم أغمادها

وقول التنوخى شاعر اليتيمة :

فى موقف وقف الحمام ولم يزغ عن ساحتيه وزاغت الأبصار
فقنا تسيل من الدماء على قنا بطوالهن تقصف الأعمار
ورءوس أبطال تطاير بالظبى فكأنها تحت الغبار غبار

وقول الشاعر :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أوقطرت دما

وقول بشار :

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهادى كواكبه

ومن أبدع ما وصف به السيف قول البحترى :

يتناول الروح البعيد منـاله عفواً ويفتح فى الفضاء المقفل
ماض وإن لم تمضه يد فارس بطل ومصقول وإن لم يصقل
يغشى الوغى فالترس ليس بجنة من حده والدرع ليس بمعقل
مصغ إلى حكم الردى فاذا مضى لم يلتفت وإذا قضى لم يعدل

وقول ابن المعتز :

ولى صارم فيه المنـايا كوامن فما ينتضى إلا لسفك دماء
ترى فوق متنيه الفرند كأنه بقية غيم رق دون سمـاء

ومن أبدع ماقيل فى الرمح قول ابن تمام :

أنهبت أرواحه الأرماح إذ شرعت فما ترد لريب الدهر عنـه يد
كأنها وهى فى الأوداج والغة وفى الكلى تجد الغيظ الذى تجد
من كل أزرق نظـار بلا نظـر إلى المقاتل ما فى متنـه أود
كأنه كان خدن الحب مذ زمن فليس بعجزه قلب ولا كبد

ومن أروع ماقيل فى الحرب ، قصيدة أبى تمام التى مطلعها :

السيف أصدق أنباء من الكتب فى حده الحد بين الجد واللعب
بيض الصفائح لأسود الصحائف متونهن جلاء الشك والريب

وهى مشهورة ومنها :

لقد تركت أمير المؤمنين بها　　للنار يوماً ذليل الصخر والخشب
غادرت فيها بهيم الليل وهوضحى　　يشله وسطها صبح من اللهب
حتى كأن جلابيب الدجى رغبت　　عن لونها أو كأن الشمس لم تغب
ضوء من النار والظلماء عاكفة　　وظلمة من دخان فى ضحى شحب
فالشمس طالعة من ذا وقد أفلت　　والشمس واجبة من ذا ولم تجب
تصرح الدهر تصريح الغمام لها　　عن يوم هيجاء منها طاهر جنب

فى الجبن والفرار

ومن أحسن ما ورد فى صفة الجبن ، والتعيير بالفرار والذعر ، قول حسان بن ثابت ، رضى الله عنه :

إن كنت كاذبة الذى حدثتنى　　فنجوت منجى الحارث بن هشام
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم　　ونجا برأس طمرة ولجام

وقال المتنبى :

يرى الجبناء أن الجبن حزم　　وتلك خديعة الطبع اللئيم

وقال غيره :

يفر جبان القوم عن عرس نفسه　　ويحمى شجاع القوم من لا يناسبه

وقال آخر:

وضاقت الأرض حتى إن هاربهم إذا رأى غير شئ ظنه رجلا

وقال جبان يتحدث عن نفسه :

قامت تشجعنى هند فقلت لها إن الشجاعة مقرون بها العطب
لا والذى منع الأبصار رؤيته مايشتهى الموت عندى من له أرب
للحرب قوم أضل الله سعيهم إذا دعتهم إلى نيرانها وثبوا

وقيل لجبان فى بعض الوقائع تقدم ، فقال :

وقالوا تقدم ، قلت: لست بفاعل أخاف على فخارتى أن تحطما
فلو كان لى رأسان أتلفت واحداً ولكن رأس إذا زال أعقما

وقال مثله :

تمشى المنايا إلى قوم فأبغضها فكيف أعدو إليها عارى الكفن

وقيل لأعرابى : ألا تعرف القتال ؟ فان الله قد أمرك به ، فقال : والله إنى لأبغض الموت على فراشى ، فكيف أمضى إليه ركضاً ؟

وقيل لزيد : إن النبى صلى الله عليه وسلم قال : إذا رأيت شخصا بالليل فكن للاقدام عليه أولى منه عليك . فقال : أخاف

أن يكون قد سمع الحديث قبلى فأقع معه فيما أكره . وإنما الهرب خيراً .

وقالت عائشة رضى الله عنها لله إن خلقاً : قلوبهم كقلوب الطير ، كلما خفقت الريح خفقت معها . فأف للجبناء ، أف للجبناء !

ولقى غلام أعرابياً فاراً من القتال فقال له : كيف تفر يا عم من لقاء العدو؟ قال : يابن أخى ، كيف يكونون لى عدواً وما أعرفهم ولا يعرفوننى ؟

وعير آخر الفرار فقال : لأن يقال : فر لعنه الله ، خير من أن يقال : قتل رحمه الله !

وكان أبو حية النميرى من أجبن الناس وأكذبهم . وكان له سيف يسميه (لعاب المنية) ليس بينه وبين الخشب فرق . روى بعضهم أن جاز لأبى حية حدثه فقال :

دخل ليلة إلى بيته كلب فظنه لصاً . فأشرفت عليه وقد انتضى سيفه (لعاب المنية) وهو واقف فى وسط الدار ، وهو يقول : أيها المغتر بنا ، المجترئ علينا ، بئس والله ما اخترت لنفسك . خير قليل . وسيف صقيل . لعاب المنية الذى سمعت به ، مشهورة ضربته ، لا تخاف نبوته . أخرج بالعفو عنك ، قبل أن أدخل بالعقوبة عليك . إنى والله إن أدع قيساً إليك لا تقم لها ! وما قيس ؟ تملأ والله لفضاء خيلا ورجلا . سبحان الله ! ما أكثرها وأطيبها ! فبينما هو كذلك إذا الكلب قد خرج ، فقال : الحمد لله الذى مسخك كلباً ، وكفانى حرباً !

فى الغزل

ومن أجود ما أوصف صور الحرب إلى الشعراء فى باب الغزل ما قال المتنبى :

يابنت معتنق الفوارس فى الوغى   لأبوك ثم أبر منك وأرحم !

وقال ابن هانئ الأندلسى :

فتطاف لحظك أم سيوف أبيـك   وكؤوس خمر أم مراشف فيك ؟
أجلاد مرهفـة وفتك محاجر   لا أنت راحمة ولا أهلوك !
يابنت ذى البرد الطويل نجاده   أكذا يكون الحكم فى ناديك؟

وقال الشاعر :

رمتنى وستر الله بينى وبينهـا   عشية آرام الكناس رميم
رميم التى قالت لجـارات بيتها   ضمنت لـكم ألا يزال يهيم
ألا رب يوم لو رمتنى رميتهـا   ولكن عهـد بالنضال قديم

وقال عنترة :

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   منى وبيض الهند تقطر من دمى
فوددت تقبيل السيوف لأنهـا   لمعت كبـارق ثغرك المبتسم

هذه نماذج يسيرة جداً جداً إذا أضيفت إلى ما قيل فى الحرب وآلاتها وسائر أسبابها . على أنها ، فيما أرى كافية حق الكفاية فى الأبانة عن مبلغ ما أجدت الحروب على الآداب .

وبعد ، فلقد قال السابقون فى الفوارس المعلمة ، والخيل المسوقة ، والقس الموتورة ، والسهام المنصولة ، والقنا الخطية ، والسيوف الهندوانية ، كما قالوا فى خزف المقاليع ، ورمى المجانيق . وذلك كل ما شهدوا فى زمانهم ، وأدركوا من آلة حربهم وقتاً لهم . ومع هذا فقد أطالوا وأكثروا ، وأبدعوا فيما خيلوا وصوروا ، وانتظموا البديع من الفصح ، وآتوا بالعاجب من الصيغ . فضاعفوا ثروة العربية ، وأبعدوا آفاقها إلى غاية المدى .

فهل لنا أن ننظر من كتابنا وشعرائنا اليوم مثل هذا ، وقد أجد العلم للحرب ما أجد ، مما لا يكاد يحصيه عد ، ما بين مزمزمات فى جو السماء ، ومدمدمات على متن الغبراء ، وغائصات فى جوف الماء ، وسابحات على وجه الدأماء . وقاذفات من اللهب بأمثال الشهب وناضحات بالغاز الخانقة ، وراميات بالقنابر الناسفة والخارقة الخ . . . ما أعد المعلم المجرم ولا كراته ، من أهوال تشهد العالم أهوال القيامة .

عبرة العبر

هذه الشمس تطالع العالم بجفنيها من جانب الأفق . وما تلبث أن تسلل منه رويداً رويداً ، حتى يستوى إطارها على متنه . وما تزال فى خلال ذلك تضاعف ما ترسل على وجه الأرض من خيوطها العسجدية . وكذلك ما تزال تمطل فيها وتبسطها من الشرق إلى الغرب . وهكذا تظل تحبو فى مدرجها إلى قبة الفلك . وكلما خطت بالزمن خطوة ، رأيتها تشتد وتترعرع ، ويسطع ضوءها ، ويحمى وهجها إلى أن تبلغ الندوة وتسوى على أعلى الأوج .

وأنت خبير بأنه ليس بعد الصعود إلى الهبوط ، فهذه سنة الله تعالى فى كونه ؛ وكذلك تجرى سنته على هذا الكائن العظيم ؛ فليس بعجيب أن يدعو الفلكيون هذه اللحظة ، أعنى لحظة استواء الشمس فى أعلى الأوج بالزوال ، إذ كان بدء الزوال ، هو غاية الكمال !

وهذه الشمس تمشى إلى الغرب فى منحدرها كذلك رويداً رويداً ، كما تتداخلها الشيخوخة فالهرم رويداً رويداً ؛ حتى إذا كان اصفر لونها ، وبرذت السن من جرمها ، جعلت تتدلى فى قبرها من مغرب الأفق مستمهلة مستأنية ؛ وهكذا تغيب فى لحدها ، غير تاركة من التراث إلا صبابة من الذهب المذاب ، سرعان ما تتبخر

فى حلك الظلام ، وقد تترك تراثها الغض على صفحة القمر ، يرفد العالم به بعض ليالى الشهر .

تلك سيرة الشمس كل يوم : ميلاد فترعرع ففتوة ، فشباب وفراهة وقوة ، وكهولة فشيخوخة فهرم ، فتدس فى النهاية تحت الرجم . وسبحان الحى الذى لا يموت !

على أنها فى جميع مراحل حياتها ، عاملة جادة جاهدة ، لا تنى عن السعى لحظة واحدة . فها هى ذى تستنبت الأرض ، وتزكى الزرع ، وتبسق الشجر وتنضج الثمر ، وتفتح من أكمامه الزهر ، ثم ها هى تى ، فى عنفوانها ، ما تفتأ تجتذب البخار عذباً سائغاً من أجاج البحار[1] ؛ حتى إذا انعقد سحاباً ، سح فأخضل قفراً وأعشب يباباً . وهذه الأنهار الجارية سموتها فى أقطار الأرض ، تبعث أسباب الحياة لكل منتهى للحياة ، وكذلك لا ننسى أنها ما تبرح تعمل عامة النهار ، فى تطهير الأرض مما يعلق بجسدها من الأخباث والأوضار فأى عنصر ، لعمرى ، من حياة هذا العالم يمكن أن يغنى عن الشمس؟ ألا إنها لمصدر الحياة جميعاً ؛ فحق للعالم أن يقول ، إنما الحياة الشمس وإنما الشمس الحياة !

---

(١) كان المعرى ، رحمة الله عليه ، لا يؤمن بهذه القضية : اشتقاق (العذب من أمواه البحار) ، إذ تراه يقول فى بعض شعره :

وقد يجتدى فضل الغمام وإنما من البحر ، فيما يزعم الناس ، يجتدى

كما يقول فى بعض رسائله : أو كالأهواء ، فى مذهب لا أعتقده ، وقول سواى من يسدده ، يجتذب أجزاء البحار ، فيسق من تحته عذب الأمطار !

أيتها الشمس ! ما أحسنك وأجملك ، وما أطيبك وأكرمك ! تعملين لأول الدهر إلى غاية الدهر ، فى غير دنى ولا سأم ، ولا ضجر ولا برم ، ولا صلف ولا استعلاء ، ولا زهو ولا كبرياء . ولو شاء الله لأهلك بحرّك بعض الأقوام ، ولو قد شاء لأهلك بطول حجبك جميع الأنام !

وبعد ، فما أخلق الذين يمسهم حظ من المجد فى هذه الدنيا والذين يمسون صدراً من السلطان فيها أن يبتغوا لسيرهم من سيرة هذه الشمس أعلى المثل . فيعملوا كل فى محيطه للنفع العام فى جد ودأب ، مؤمنين كل الايمان أن الموهبة والسلطان إنما ينبغى أن يكونا ملكا خالصاً للمجموع لا لأحد من الناس ولا لشئ من الأشياء .

على أن مما يفجع حقاً أن كثرة من هؤلاء الذين ينالون مجداً ويولون سلطاناً سواء أكان أقام من ثم لهم هذا فى جماعة أم فى شعب أم فى شعوب — سرعان ما ينسون كل شئ لأن الأثرة قد ملكت من نفوسهم كل شئ . فنفوسهم هى المبدأ ، ونفوسهم هى الغاية . حتى إذا أجالوا الفكر فى منافع الجماعات ، فلا لأنهم يؤثرون لهذه الجماعات نفعاً أو يبتغون لها خيراً ، بل لأنهم إنما يطلبون من هذا السعى مراماً لأنفسهم لا لشئ آخر ، وقد يكون هذا المرام فى أعف الصور هو إحراز المجد . أما ما يقع من خير المجموع ، أو ما يحتمل أن يقع ، فليس أكثر من طريق !

وكيفما كان الأمر ، فانه ما يكاد أحد هؤلاء يحس مجده ويستشعر سلطانه ، حتى يورم أنفه ، ويتداخله من الصلف المخيلة ما يملأ اعتقاداً بأن الرأى فى الأمر ليس إلا ما يرى هو ، وأن ما سواه لاصلاح له ولا خير فيه ، بل لقد يكون كله شرا وفساداً .

ولقد يشتد طغيان هذه الخلة على المرء ، فيرى أن الناس لا ينبغى أن ينظروا إلا بعينه ، ولا يسمعوا إلا بأذنه ، بل إنه ليرى أن من العبث الضار أن يجرى فكرهم بغير ما يجرى به فكره ، وأن تنتهى آراؤهم على غير ما ينتهى إليه رأيه . فاذا خالفه امرؤ إلى غير هذا ، كان بين اثنين : إما ملتاث ممخرق ، وإما معاند مكابر يجب أن يعجل له سوء العذاب !

وفى الحق أن أكثر من يغمرهم هذا الطغيان ، إنما يرون ما يرون ويفعلون ما يفعلون عن ثبات إيمان ورسوخ اعتقاد !

وما ظنك بمن تطبعهم شدة الأثرة على الايمان بأنهم مبعوثون من لدن رب السموات لاصلاح ما فسد فى رقعة من الأرض أو فى رقاع الأرض جميعاً ؟ فاليهم وحدهم عهد الله بالاضطلاع بهذا المهم . وعليهم وحدهم تقع تبعة التقصير فى علاجه ، والراضى فى إمضائه وإكمامه !

وهؤلاء لا يطلبون الأعوان والأنصار ليعاونوهم بصادق الرأى وصالح المشورة ؛ ولكن ليعاونوهم بقوة المظهر وإمضاء ما قضى به الوحى الذى لا يخطئ أبداً !

فاذا تعاظمك ما يختلف على هذا الرأى من عصور العتو والطغيان

تخرب العامر ، وتدمر القائم ، وتقفر الآهل ، وتراق فيها الدماء بغير حساب ، وتزهق النفوس لغير سبب من الأسباب ؛ إذا تعاظمك هذا فى عصور الدهر المتتابعة ، فاعلم أن علته تلك الخلة الفاجرة فى الإنسان !

وأسى ، لقد أتمت دورة الشمس حولا سلكته فى عقد التاريخ أيضاً ، وآذنت العالم بفجر حول جديد .

وإن ذاك العام المدبر ، وهذا العام المقبل ، لها — كما تعلم — من أعوام الهجرة ، هجرة محمد صلى الله عليه وسلم وصاحبه من مكة إلى المدينة ، وقد ساد بها الإسلام ، فعد بسلطانه الأنام .

وبعد ، فلست بحاجة إلى أن أحدثك عما كان قد غشى الأرض من ظلم وفساد ، وتصدع فى النفوس ، وتضعضع فى الأخلاق ، حتى كاد يقضى على الأمم بعدم الصلاحية للبقاء . إلى أن بعث محمد من عند الله حقاً ، فبلغ رسالته إلى الناس ، كما أوحى إليه بها ربه حقاً ، فكان ما شهد التاريخ من ذلك الفتح والاصلاح والاسعاد .

ولا أحب أن أطيل فى وصف ذلك الاصلاح والاسعاد ، فيحسبهما أن تنزل بآياتهما وحى كريم ، من عند الله العلى العظيم .

وإنما أقف وقفة قصيرة عند سيرة من خلفوا محمداً صلى الله عليه وسلم ، ولم يؤيد أحد منهم بوحى سماوى ، ولا حُبى بالعصمة التى حبى بها الأنبياء ، إنما هم أناس مثل سائر الناس .

وإذا كان خلفاء الرسول قد ارتفعوا على سائر الناس ، فبأنهم

إنما ساروا سيرة هذه الشمس التى تطالعهم كل صباح وتغرب عنهم كل مساء . على أنها هى تعمل لعالم الأحياء والأجرام . أما هم فيعملون لعالم النفوس والأرواح .

يعملون جادين جاهدين ، لا يبتغون من سعيهم نفعاً ، ولا يريغون من ورائه فخراً ولا ذكراً لأنهم أشد أمانة من أن يقتطعوا لأنفسهم أو لذويهم شيئاً مما ينبغى أن يجرد كله للنفع العام .

يعملون لا مستبدين بالرأى ولا مستأثرين ، بل مشاورين مصغين مسرعين ، حتى إذا اتسق لهم الرأى الذى يرون فيه منفعة المجموع ، أسرعوا إلى إمضائه ولو جاء من أصغر الجميع .

أما رأى الجماعة ، فشرع عندهم مشروع وقضاء مبرم محتوم .

يعملون صادقين مخلصين لله وللنفع العام . لا كبر ولا مخيلة ، ولا استئثار بمنفعة من المنصب والجاه ، بل ليس عندهم إلا الإيثار والتواضع ، والرقة للضعفاء . وهيهات أن يؤثروا أحداً على أحد إلا بطاعة الله وما قدم من الخير للمجموع .

ولعمرى ، لتلك أعلى صور الديموقراطية التى يحلم بها أجل الفلاسفة من قديم الزمان .

وإذا كان هؤلاء الخلفاء قد انعقد لهم أعظم المجد ، المجد الخالد على الدهر ، فلأنهم لم يريغوه ولم يسعوا إليه ، ولم يشغل هو جزءاً من نفوسهم جليلا ولا دقيقاً !

وبعد ، فلا أشك أن مما أصفاهم لطاب النفع العام ، وتجافى بهم

عن الاستئثار حتى بالنفع الخاص ، هو طول الذكر بالموت ، وكيف لهم بنسيانه وهذه الشمس العظيمة ، باعثة الحياة والحركة فى العالم تموت كل يوم ، بمرأى منهم ، بعد أقوى الحياة ، ولكل شئ نهاية ، ولكل سائلة قرار !

وإذا كانت الشمس تعود كل يوم فتوالى سعيها فى النفع والتجديد والأحياء ، فان زعيما لن يعود بعد موته ، ولو لاصلاح ما عسى أن يكون قد أفسد وتعمير ما عسى أن يكون قد خرب . فما له ، بعد الموت ، بالأمر يدان !

هذا بعض ما يلهمه حديث الهجرة ، وإن فيه لعبرة .

أسعفوا التاريخ

ليت شعرى ، لو سألت ، بعد عشر سنين مثلا ، شاباً ممن سينضحهم العصر يومئذ ، بل لو سألت اليوم شاباً ممن هم فى الثلاثين فما دون — أن يجلو عليك صورة من الحياة المصرية ، وأعنى حياة المدن قبل ثلاثين سنة فقط ، فكيف تراه يقول ؟

أخشى ألا يقول شيئاً قط ، لأنه لا يكاد يعرف منها شيئاً قط !

لقد حالت الكثرة الكثيرة من أساليب حياتنا فى هذه المدة القصيرة بسرعة لا أحسبها كانت مما يدخل فى حساب مؤرخ ولا عالم اجتماعى ، ولا غير هذين من سائر المفكرين . وبحسب المرء منا أن يلتفت بالذاكرة إلى ما قبل أربعين سنة خلت أو ثلاثين ، ويقلبها فى نواحى حياتنا لترجع إليه بصفة قوم غير القوم ، وناس لا يكاد يرتبطهم شبه بهذا الناس !

لقد تغيرنا سريعاً جداً فى أخلاقنا ، وآدابنا ، وأسلوب سكنانا ، وطعامنا ، ولبسنا ، وسمرنا ، ولهونا ، وغنائنا ، وزواجنا ، وأعراسنا ، ومآتمنا ، وسائر أسبابنا . فلم يبق ثابتاً من ذلك فينا إلا الأقل من القليل . ولا شك أنه كذلك فى طريق التطور والتحوير .

وكذلك تختفى من الوجود صورة أمة ، لتحل فى موضعها صورة أخرى ، إذا قدر لحياتنا قرار قريب .

وإذا كان « لكل سائلة قرار » كما يقول الشاعر ، فلا شك فى أننا نسلك الآن برزخاً بين عيشين مختلفين أشد الاختلاف ، مفترقين أبلغ الافتراق ، عيشين لا يكاد يتسع التصور لأنهما لأمة واحدة ، وخاصة فى مثل هذا الزمن القصير !

وليس يتسع هذا المقام ، بالضرورة ، لاستقصاء كل ما تناوله التطور الشديد فى بلادنا ، ويكفينا أن نعرض الآن نموذجاً واحداً يصلح أن يكون مثلا للجميع .

كان نساء الطبقتين العليا والوسطى ، فى هذا العهد القريب ، لا يتدلين فى الطريق إلا مقنعات محجوبات أمنع حجاب . فللرأس غطاء ، وللوجه غطاء ، ولسائر الجوارح غطاء . بحيث لا يظهر منهن إلا العيون من خلل البراقع ، وأطراف البنان فى قبضهن على مصاريع الملاء .

وكانت هذه الأغطية تختلف باختلاف البيئات . فالسيدة أو الفتاة المتوسطة الحال ، تتلفف فى الملاءة الغالية نوعاً ، وقد تكون من الحرير (الكريشة) . وكيفما كان الأمر ، فهى تلبسها على زى خاص لا ترسلها كما ترسلها نساء الطبقة الدنيا . بل إنها لتضيق على مدار الخصر ، وتضفى على ما دونه حتى الكعبين .

وأما قناع الوجه فالبرقع الأسود ، يرسل من أسفل الجبين إلى غاية الصدر ، ويحلى من وسط أعلاه بحلية من الذهب غالباً ، أو من الفضة المموهة بالذهب أحياناً ، وتدعى هذه الحلية « عروسة » البرقع ولا حاجة إلى وصفها ، فلا يزال يضعها بعض « بنات البلد » .

وأما الطبقة « العثمانلى » فيتخذن ، فى العادة ، الحرير (الحبر) وأما الوجوه فيسترنها بقناع أبيض لا « عروسة » له ولا سواها من الحلى ، وربما وضعن بدل القناع « اليشمق » وهذا كان خاصاً بالطبقة الأرستقراطية جداً ، لايشركهن فيه غيرهن ، وربما اتخذ نساء الطبقة الوسطى الحرير (الحبر) إذا دعت بعض المناسبات كحضور الأعراس والزيارات ذات الخطر .

ولم يكن التجمل بالمساحيق وما يؤدى مؤداها إلا نادراً جداً . وأكثر ما يكون ذلك فى الأعراس ونحوها . وكان الإفراط فيه والمداومة عليه معيباً ، وكانت السيدة التى تلزمه موضع حديث السيدات وإنكارهن ، وكثيراً ما يتخذنها موضعاً للأسمار !

وكيفما كانت الحال ، فان هذا الضرب من التبهج (أعنى تلوين الوجوه) لم يكن ليؤذن به قط لفتاة ، بل لست أغلو إذا زعمت أنه كان منكراً من سيدة ليست ذات بعل . وإن فتاة تفعل هذا لهى حقيقة بارسال الألسن وذهاب الأقاويل ، وأقفال بيوت الأشراف فى وجهها ، وانقباض المجالس دونها ، وتحرجها بغشيانها !

والآن ، وبهذه السرعة السريعة ، لقد تجرد نساء هاتين الطبقتين وفتياتهما من أرديتهن الخارجية جملة . ونضون الأقنعة فلا قناع ألبتة . وقصرن الثياب ، وربما حسرن عن الأذرع ، حتى لقد يبلغ النظر أعلى الكتف وأسفلها جميعاً . ولست ترى هؤلياء ولا هؤلياء باديات فى الطرق إلا كذلك ، وأما صقل العوارض ودهانها بالمساحيق البيضاء

وصبغ الشفاة بالأحمر القانى أو الأحمر الضارب إلى الصفرة ، فلقد أصبح هذا وأمسى من ضرورات السعى فى الطريق . بل كاد يصبح ويمسى مما تعاب المرأة بتركه ، وتعير إذا هى تخلت عنه !

ولقد تصادفك البنت فى الطريق ، وهى لما تتجاوز الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ، وقد صبغت شفتيها بالأحمر صبغاً ، ولا أقول دبغتهما دبغاً ! ولقد كثر ذلك وشاع وفشا حتى أضحى لا يلفت من الناس شيئاً من العجب ، وخاصة عند الناجمين الذين لم يشهدوا الأمهات والأخوات منذ بضع عشرات من الأعوام .

ولقد كان التيار جارفاً إلى حد أن سيدة لم تستطع أن تثبت فى طريقه أو تثبت ابنتها ، وأن رجلا مهما يكن محافظاً شديد الحرص على التقاليد ، لم يستطع أن يملك عن جرف هذا التيار امرأته أو فتاته . بل إن بروز المرأة اليوم فى الطريق ملففة مقنعة ، هو الذى يسترعى النظر وقد يستدعى العجب !

بل إنك لقد تجد فى طريقك السيدة وقد ذرفت على الستين أو طعنت فى السبعين ، أى ممن نشأن فى الحجاب ، وتوارين فى شتى الألفاف دهراً غير قصير . لقد تراهن اليوم سافرات الوجوه ، مبديات ما أبقى المقص من شعر الرؤوس ، بارزات الأذرع والنحور ، مقصرات الثياب إلى ما يتجاوز أعلى السوق . وقد بالغن فى التبهج والتجمل بألوان الصبغ والدهان !

وأرجو من القارئ ألا يفهم أننى أسوق هذا الكلام على جهة الأنكار ، أو أننى أبغى وعظاً أو أطلب نصحاً . إنما أنا فى هذا الحديث

مؤرخ واصف لا أكثر ولا أقل . أذكر ما كان فى بعض أسباب عيشنا من ثلاثين عاماً فقط ، وما صرنا إليه بعد هذه الأعوام . وصفوة القول أننا فى هذه المدة القصيرة جداً فى مراحل تحول الأمم قد تطورنا تطوراً شديداً ، وتغيرنا تغيراً كبيراً ، ومع هذا فانه لم تستقر بنا الحال بعد إلى إقرار !

وبعد ، فلقد أصبح من الواجب الحتم ، والحال ما ذكرنا ، أن يشمر جماعة من مشيخة الكاتبين فى تسجيل هذا التاريخ القريب فى مدته ، وقد شهدوه وعاشوا فيه ، وعرفوا الجليل والدقيق من مظاهر الحياة فى إبانه . وإلا عفت معالمه ، ومحت رسومه ، وعز على الناس بعد أربعين أو خمسين عاماً أن يلتمسوه ويتصوروه كاملا واضحاً لأنهم لا يجدون إليه السبيل .

ولقد قلت « القريب فى مدته » لأنه أضحى بعيداً جداً فى شخصه وصورته . وقد أحضرنى هذا المعنى قول متمم بن نويرة فى أخيه مالك :

فلما تفارقنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

اللهم إن أخشى ما أخشاه أن نتهاون قرب العهد بهذا الصدر من التاريخ الذى شهدنا أطرافه ، فيصرفنا هذا التهاون عن تدوينه وتسجيله ووصف مظاهر الحياة المصرية فيه . ثم يلتفت إليه أبناؤنا أنفسهم ، ولا أقول أحفادنا ، فلا يصيبون فى التماسه وتمثله إلا عنتاً كثيراً !

هذا عصر محمد على الكبير وما تقدمه بقليل ، ولا أمعن فى التاريخ متقهقراً إلى عهود المماليك ، فالأيوبيين ، فالفاطميين فمن قبلهم . أقول : لولا بعثة الحملة الفرنسية ، ولولا المستر لين الانجليزى ، ما عرفنا كثيراً من عادات الأجداد ، بل ما عرفنا ماذا كانت تلبس الحدات !

إن إهمال التاريخ ، لقرب العهد به ، كثيراً ما يجنى على حقائق التاريخ ، وخاصة إذا أعقبته رجات وطفرات كهذه الرجات والطفرات التى جازت بنا . وكادت تأتى على كل شئ من أخلاقنا وآدابنا وتقاليدنا وعاداتنا وسائر أسبابنا .

وإن من رحمة الله بهذا التاريخ القريب أن كان فيه « الفوتغراف » يسجل الصور ، وأن قام فيه « الفونغراف » يسجل الأصوات ، وأن شاعت فيه الصحافة فسجلت أهم الأحداث . على أن هذا كله لا يغنى عن التسجيل البيانى يصف ما أخطأته تلك الوسائل ، ويتدسس إلى مالا تسلكه من بواطن الأشياء .

أرجو أن يشمر بعض مشيخة الكاتبين فى هذا ، تفقهاً لأبنائنا ، وبراً بتاريخنا لا ينقطع على هذه الصورة ، وتيسيراً لسعى المصلحين الاجتماعيين .

قبلة

قال لى صاحبى فى بعض حديثه عن خطبه : « . . . لا أدرى أكانت أحلى قبلة أصبتها فى حياتى ، أم كانت أمر ما ذقت فى هذه الحياة جميعاً ؟ أكانت ألذ ما ظفرت به من لذائذ الدنيا ، أم كانت أوجع ما أوجعنى وآلم ما برح بى من كل ما لقيته من الآلام والبرح ؟ أكانت برداً على كبدى وسلاماً أم كانت لهباً وضراماً ؟

« لقد أصبت من جميع ألوان القبل التى يتهيأ للمرء أن يصيب ، قبلت الأم ، وقبلت الولد فى جميع حالاته ، وقبلت الزوجة وغير الزوجة . وقبلت الصديق آب من سفر مخوف بعيد . وقبلته وقد أبل من علة رجحت فيه كفة الموت على كفة الحياة . على أننى لم أجد لمذاق هذه القبلة نظيراً ، ولا لطعمها ، بين كل أولئك ، شبيهاً . هى غير أولئك كله ، وأشد وأعنف من أولئك جميعاً !

« لقد كانت قبلة طويلة ، استغرقت منى كل معاقد الحس ، واستهلكت كل مجامع الشعور ، حتى لو وخزونى بالإبر ، أو لذعونى بالنار ، ما شعرت بشئ ولا أحسست شيئاً !

« ثم لا أدرى ، بعد ذلك ، أبدلت فى هذه القبلة ما كان قد بقى من عصارة كبدى وحشاشة قلبى ، أم ترشفت بها ما عوضنى عما اعتصر من حشاشة قلبى ، وعصارة كبدى ؟

« ثم لا أدرى ، أهى التى شاعت فى نفسى وملكتها من جميع قطارها ، أم أن نفسى هى التى استمالت ، بشدة الوجد ، قبلة من القبل ؟

« ثم لا أدرى ، أكنت أغذو بها حياة أم كنت أستمد منها الحياة ؟

« وسواء أكان الأمر هكذا أم هكذا ، فلم تكن هناك نفس وقبلة ، فلقد صارتا شيئاً واحداً ، لك أن تسميه قبلة ؛ ولك أن تدعوه نفساً !

« يا لها من قبلة هائلة ، ولو كانت أحلى ما التذ به إنسان فى جميع هذا العالم ! »

إلى هنا انتهى صاحبى من حديثه الموجع الأليم . وإذا كنت قد بدأت هذا الحديث من منتهاه ، فاعذرنى يا سيدى القارئ ؛ فلقد أعدانى صنيع قصاص هذا العصر ، فكثرتهم إنما يبدأون القصة من وسطها أو من مآخيرها ، ليبعثوا فى قرائهم غريزة التشوق والاستشراف فأخذت فى رواية هذا الحديث إخذهم ، ونهجت نهجهم .

أما أول القصة ، فان لى صديقاً كريم المنزلة عندى ، أعرف فيه رهافة الحس ، ووضاءة النفس ، وطيبة القلب ، وشدة العطف ، وهو شديد الكلف بأولاده ، عظيم العطف عليهم ، حتى لا يكاد ينتهى منتهاه فى ذلك أحد ، وهو لا يفتأ يدللهم ، ويرفه بكل ما اتسع له الجهد عليهم ، ويسلى بشتى الوسائل عنهم ، وكثيراً ما يستخفه ذكرهم حتى فى المجلس الجامع لمن يتحشم ومن لا يتحشم ، فيروى من أحاديث كبارهم ، ومن لغو صغارهم ، ما يبالى أظن الناس به ولهاً وعطفاً ، أم ظنوا به حمقاً وسخفاً .

ولقد هاجر هذا صاحبي إلى الريف فيمن هاجروا فراراً بنفسهم ، أو على الصحيح ، فراراً بولدهم ، ثم انكفأ بهم إلى القاهرة بعد قضاء الأشهر الطويلة . ولقيته بعد مقفله ، فاذا هو هزيل مغبر الوجه ، فلم أشك فى أنه قد لحقته علة . فسألته عن حاله وما به ، فقص على القصة التى سمعت آخرها ، وهاك أولها :

قال صاحبي كان الله له : « هبطت القاهرة لِأَلى بعض العمل . وتركت ولدى فى أتم خير وعافية ، فرحين بعيش الريف الذى لم يعرفوه من قبل . وقضيت فى مهبطى ليلتين اثنتين ثم عدت وقد حملت إليهم ما أقدرنى الله عليه من التحف والألطاف ، وكنت طول الطريق أتمثل لقاءهم ، ورؤيتهم فى هرجهم ومرجهم ، وما عسى أن أدخل من السرور عليهم . فأجد لذلك لذة لا تكاد تعد لها لذة .

على أننى ما كدت أن أتخطى عتبة البيت ، حتى رأيت جموداً لم آلفه ، ووجوما لا عهد لى به ، فهرولت إلى السلم . وماعرجت بعض الدرج حتى سمعت أنيناً مؤلماً يتخلله صراخ مزعج ، فجعلت أطوى الدرج مثنى وثلاث ، ثم انتهيت إلى مبعث الصوت فاذا صغرى ابنتىّ هى التى تئن وهى التى تصرخ . وإذا من حولها بين باك ينشج نشيجاً عنيفاً ، وبين حاقن للبكاء إلا ما تنتضح به الجفون ، برغمه ، من قطرات الدموع ، وبين واجم شديد الوجوم ، وبين متحير العينيين من شدة الذعر والهلع !

فسألت فى جزع ولهفة عن الخبر ، فأجابنى من قوى على الكلام منهم : لقد شعرت الفتاة فجأة فى أصيل أمس بآلام شديدة فى الجنب

الأيمن ، فظن بادئ الرأى أن ذلك من أثر برد ، وعلى ذلك عولجت بالعلاجات المنزلية المعروفة ، حتى إذا تقدم الليل واشتدت عليها الآلام جئنا من الحاضرة بفلان ، وهو طبيب مشهور ، فظل يعالجها و يحاول تخفيف آلامها ، حتى انجلى عمود الصبيح ، ولم تخب البرح ولا خفت الآلام !

ورأيت المسكينة لا تطيق أن تسكن إلى وضع من الأوضاع ، فهى تسأل أن يجلسوها . فما تكاد تجلس حتى تصرخ . وتسأل إرقادها على الجنب الأيمن ، وسرعان ما تصرخ ، سائلة إرقادها على الأيسر وهكذا ! وهى كلما أنّت أحسست كبدى تذوب شعبة بعد شعبة ، ويتقطر سلاؤها قطرة بعد قطرة . فاذا صرخت أحسست قلبى يتوثب فى صدرى ، كأنه كرة تتقاذفها الصبية .

وهى تفتأ تستغيث بمن حولها واحداً بعد واحد ، كأنها تظن أنهم قادرون على أن يرحموها مما تجد ، ويدفعوا عنها هذا العذاب الأليم ! و إنها لتستنجد بى ، فاذا بى أضرع إلى الله تعالى ، وأسأله أن يحول ما بها إلىّ . ثم أسرع فأستعيذ به تعالى من نزغ الشيطان . فالله أكرم ، وأبر وأرحم ، من ألا يدفع الأذى عن عبد من عبيده إلا إذا قذف به عبد آخر ؛ وأستغفر الله العظيم !

وتفترق جمهرة الأطباء الذين اختلفوا إليه . فمن قائل إنه التهاب فى المصير الأعور (١) ، ومن ذاهب إلى أنه مغص فى الكلية . ومن حائر متردد لا يقطع برأى ولا يرجح شيئاً !

---

(١) المصير : واحد المصران بضم الميم . وجمع الجمع مصارين بالفتح .

وأطمئن إلى الرأى الثانى ، طوعاً لما قيل : إنه لو كان ثمة التهاب فى المصير ، لظهر من أعراضه كيت وكيت ، وشئ من ذلك لم يظهر ألبتة .

وتعالج على هذا أياماً ، وهى لا تزداد إلا برحاً وآلاماً .

وفى ذات ليلة من ليالى آخر الشهر سوداء فاحمة قد اشتد بردها ، وللريح عزيف يزعج ويروع ، أسرنى الطبيب بأن لا بد من نقلها فى الحال إلى الحاضرة ، لادخالها المستشفى ، فالأمر حق خطير ؛ إذ لم يبق عنده ، ما جد من الأعراض الحادة ، أى شك فى صحة الرأى الأول . وأقول له : أليس فى نقلها فى مثل هذه الساعة ، وهى على هذه الحال ، وفى مثل هذا الجو ، وقطعها أكثر من اثنى عشر كيلومتراً مجازفة ؟ فأجاب : لا شك أنها مجازفة خطيرة ، ولكن مبيتها هنا أشد خطراً !

وماذا عسى أن أصنع ، يارب ، غير أن أطيع ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وأعد الذاهبون بها والذاهبات من الأهل عدتهم وجهزوا متاعهم ولم يبق إلا أن تحمل الفتاة المعذبة المذعورة إلى السيارة .

وحين أذّن المؤذّن بالرحيل ، تغايرت فى نفسى فنون من أعنف العواطف ، منها ما ينطف رقة ورحمة ، ويترقرق جوى وإشفاقاً ، ومنها ما يشق الصدر من الأسى شقاً ، ويدق المتن من الجزع دقاً ، ومنها ما يتنظر لى بصور وأشباح تطير الألباب ، وتمزق الفكر ، وتفقد الصواب أرسخ ذوى الصواب !

جمعت شملى ، وشددت ، على التحطم ، عزمى ، حتى ثنيت على السرير صدرى ، وقبلتها قبلة التوديع المهول .اه

وإنما يعنى صاحبى تلك القبلة التى وصفها ، أو التى عجز عن وصفها ، وقد قدمت هذا الوصف فى صدر الحديث .

فاللهم يا من أذكى فى الصدور حب الأبناء إلى هذا القدر ، ووكد الرقة لهم فى الكبود كل هذا التركيب ، إرحم بفضلك الوالدين فانك أنت الرحمن الرحيم .

مأساة

قال لى صاحبى وهو فى بعض حديثه :

. . . ولم يكن سيد عشيرته فحسب ؛ بل لقد كان زعيم الاقليم كله ، وكان رحمه الله ، ألمعياً شديد الفطنة ، بعيد النظر ، صادق الحكم . يظل القوم فى مجلسه يتحاورون ويتناقشون ويتنازعون ، حتى إذا فرغوا من شأنهم جلى موضع النزاع فى يسر ، وحكم فيه أعدل حكم .

على أنه كان عصبياً شديد العصبية ، إلا أنه كان قادراً على أن يأخذ نفسه بالحلم فلا يستفزه شئ . بل لقد كان يضحك أو يتضاحك مما يغيظ أحكم الحكماء ، ولعل ذهنه كان يزخر بالمعانى ، فاذا أراد الحديث تزاحمت على لسانه ، فجعل يضطرب بينها ويتردد حتى ما يكاد يبين !

وداره واسعة متعددة الأبنية ، وهى تقع فى حديقة واسعة جداً ؛ وهذه الدار لا تخلو مطلقاً من عشرات الناس فى ليل أو نهار . فمن طالب رفد ، ومن صاحب حاجة تدعو إلى قوة المسعى . ومن متنازعين على مال أو على منصب يختصمان إليه . وجميعهم يأكل أحسن الطعام إذا جاء وقت الطعام . ومن طلب منهم المنام فله ذلك . فالدار كما

قلت واسعة ، والفرش فيها كثيرة . وهى ، على الجملة ، كرحبة مالك ابن طوق ظلت مضرب الأمثال من قديم الزمان ، وما طالعت هذه الدار ، إلا حضرنى قول مسلم بن الوليد فى بعض ممدوحيه :

لا يرحلُ الناسُ إلا نحو حجرته   كالبيت يفضى إليه ملتقى السبل

واما حكمه بين الخصوم فهو أمضى من أى حكم نهائى تصدره أية محكمة . لأن الخصوم فى ذلك قد يعوقون التنفيذ بشتى الحيل . أما حكمه هو فلا تعويق فيه ولا احتيال ، لأن أحداً فى الاقليم لا يجرؤ على أن يسر لهذا الرجل عداوة ، فضلا عن أن يصارح بها ؛ بل إن أحداً لا يرضى لنفسه أن يسوء رأى هذا الرجل العظيم فيه .

وكان يؤثرنى ويحتى ويعطف على عطفاً عزانى عن فقد الأب أحسن العزاء . ولا يرضى فراق له إلا مكرهاً . ولولا أننى رجل موظف فى الحكومة يؤذينى فى رزقى انقطاعى عن عملى لأمسكنى ، على الدهر ، ولم يرسلنى أبداً ، فاذا طال إبطائى عنه فى القاهرة بعث من يستدرجنى إليه بشتى الوسائل .

وقد بدا لى أنه لا بد كان يلاحظنى وأنا على طعامه لأننى رأيت أنه كلما استطبتُ ألوناً من ألوان الطعام فأكثرت الاصابة منه ، قرب إلىّ فى اليوم الثانى هذا اللون نفسه ، فاذا هو أطيب وأجود . وهكذا حتى يلاحظ إعراضى عنه وإقبالى على غيره .

أحببته أكثر مما أحبنى أو مثل ما أحبنى ، فاننى أشك فى أن حبه لى وعطفه على مما يحتمل المزيد ! . . .

وفى يوم أسود رجعت من عملى بعد الظهر . وما أن بلغت الدار حتى تقدمت باعداد غدائى . وكنت جائعاً متعباً . وفيما أنا فى الانتظار إذ رن جرس التليفون ، وإذا الآذان بأن الحديث من بلدة كذا ، وإذا المتحدث أكبر أولاده . قال فى سرعة : إحضر يا فلان حالا ، فوالدى فى حال شديد جداً ، بحيث لا يجرؤ أحد على كلامه أو الدنو منه . فلعلك أنت ، لوضعك منه ، الذى يستطيع أن يستدرجه لحديث وأرجو أن تفرج عنه بعض الفرج . فقلت له : ما الخبر ويحك ! فقال : إن فلانة ، يعنى صغرى إخوته جميعاً ، قد غابت وانقطع الخبر عنها من ثلاثة أيام . ولم يُجد البحث والتفتيش وقلب البلاد ظهراً لبطن فى طلبها فتيلا . فهتفت من فورى بأهل الدار أن يمسكوا عن إعداد الطعام ويعدوا حالا جعبة السفر ، وأرسلت فى طلب سيارة أبلغتنى المحطة فى آخر لحظة ، وتدليت هناك فاذا سيارة الباشا فى انتظارى ، وبلغت الدار . وما كدت أطلع على الحديقة حتى تعاظمنى منظر هذه الجماهير من الناس ، شغلت كل رقعة ، واحتلت ظل كل شجرة ، وجزت إلى فناء الدار فاذا خلق كثير جداً ، وكلهم جالس مطرق لا ينبس أحد منهم بكلمة ، وقد اغبرت الوجوه جميعاً ، والباشا جالس على طرف دكة لا يشغلها معه أحد . فلما طلعت على المجلس أومأ إلىّ أن أجلس بجانبه ، فجلست ، وما سلمت عليه ولا هو حيانى ، وأطرقت كما أطرق سائر الناس .

ولقد قلت لك إنه ساكت لا يتكلم ، ولكنه كان فى كل فترة يزفر زفرة حرّى ، لقد كانت ولاشك بخاراً من لهيب يتسعر فى الأحشاء .

وجلسنا على هذا يومين ، وفى الصباح الباكر لليوم الثالث أومأ إلى بأن أسافر ، فنزلت على إشارته ، ورجعت إلى القاهرة لأتى عملى فيها ، ولم أتردد لحظة واحدة فى الفكرة التى اعترتنى من اللحظة الأولى ، هذه الفكرة التى يوحى بها أبسط واجبات الحب والولاء وعرفان الجميل لهذا الرجل العظيم : وتلك أن أطلب إجازة طويلة أقضيها فى التقلب فى البلاد ؛ باحثاً مفتشاً منقباً عن بنته العزيزة . ولو دعا الأمر إلى التنكر والاضطراب فى مختلف الأزياء . ولقد اشتد بى الوجد مما دهى صديقى العزيز ؛ وقد علت به السن وتشرف على نهاية العمر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وقبل أن أسترسل إلى غاية هذا الحديث أصف لك وصفاً موجزاً هذه البنت المختفية من بضعة أيام :

لقد كانت سنها بين الرابعة والخامسة ، حلوة جميلة جداً ، بيضاء الجسم ذهبية الشعر ، بالغة غاية الأناقة فى ثوبها الغالى الثمين . تراها فتخالها دمية فرت من معرض نماذج (فترينة) لغالى الثياب . خفيفة الروح حلوة الحديث ، وخاصة إذا عادت ما يلقى عليها من كلام خيالى يراد به الاطراف والاضحاك . ولى معها فى هذا مواقف كلها ضحك وإغراب ! وكانت لذلك تتعلق بى كلما هبطتُ إلى دارهم . وكنت أحبها كحب ولدى الأعزين . وكانت قرة عينٍ لأبيها ، وناهيك بأصغر الأولاد ، وخاصة إذا كانت مثل هذه الدرة فى الحلاوة والنقاء .

هبطت القاهرة ، وقد جمعت النية الصادقة الماضية على ما أسلفت عليك ، وسألت الأجازة لشهر ونصف الشهر . ومضى يومان وأنا فى انتظار الاذن لى فيها ، على أننى أوالى السؤال بالتليفون كل ساعة ، فاذا مصير البنية ما يزال فى الغيب المحجوب . وإذا والدها المسكين على حاله ، ولم يزل يعانى فى ذلك العذاب المضنى الأليم .

وانقلبت إلى الدار فى اليوم الثالث قافلا من عملى ، وتقدمت باعداد غدائى ، فاذا جرس التليفون يرن وإذا ولد صاحبى يدعونى ، فى فرح ظاهر أن أحضر لأهنئ أباه الشيخ ، فلقد عثر على أخته فلانة ، والحمد لله ، فقلت مسرعاً وكيف عثر عليها ، وأنى كان ذلك ؟ قال : لقد أمر وزير الأشغال ، حين انتهى إليه احتمال غرقها ، بتجفيف بحر (كذا) . وكذلك ألفينا جثتها فى الموضع الفلانى (وهو يقع على بضعة أميال من الدار) . وقد أكرمها الله تعالى . فلم ينل من جسمانها السمك كثيراً ولا قليلا .

وأسرعت باعداد جبة السفر ، وخففت إلى لقاء صاحبى ، فاذا جموع كثيرة ، تلغو وتتقاول ، فى مرح واغتباط ، وإذا صاحبى يظهر عليه طيب النفس وانبساط أسارير الوجه . ولم يكد يرانى حتى خف للقائى فى بعض طريقى إليه . وما أن توافقنا حتى عانقنى وجعل يقبلنى وجعلت أقبله وأنا أشعر أن الدنيا لا تكاد تسعه من سرور ومراح !

ثم جعل يحدثنى ، كعادته ، أحاديث هذه الدنيا ، حتى إذا انصرف الناس من مجلسه ، قافلين إلى ديارهم أو ثاوين ، فى داره ،

إلى فرشهم ؛ وحينئذ جذبنى إلى حجرة جلوسه الخاصة ، ودعا بالنرد ، ورحنا نتلاعب به إلى ما بعد انتصاف الليل ، وهو كلما انتهى دست يقبل على بحديث طريف ، على أنه لا يلم بشئ من حديث بنته الغرق لا من قريب ولا من بعيد !

الله أكبر ! الله أكبر ! إذاً لم يكن هذا الوجد كله ، ولا هذا الوله المرعب المهول من أن البنت قد أدركها الغرق أو أنها ماتت على أى شكل من الأشكال ، وإنما الجزع كله من أن تعيش فى ولاية خاطف مجرم من النساء أو الرجال !

ترى ماذا عسى أن يكون مصير الفتاة ؟

هنا تتطاير أشأم الظنون كل مطار . وهنا يغلى صدر هذا الطود غليان القدر ، حتى لتكاد تتصدع الأضلاع ، لولا ما كان يروح عنها من ذلك الزفير ، تتنفس به نار السعير !

لقد أصابها منية . وإذاً لقد سلم الشرف ، وحبه ، فالشرف هو كل شئ فى هذه الحياة !

أكرمك الله ، يا حبيبى ، ميتاً ، كما أكرمك حياً . وأمتعك بملاعبة ابنتك الحلوة فى دار النعيم .

وهنا جعل صاحبى يبكى وينشج حتى لم يعد يقوى على كلام . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . وإنا لله وإنا إليه راجعون !

مسألة

نحن ضعاف ، ما فى هذا شك . والغربيون أقوياء ، وما فى هذا شك أيضاً . وإنا لنبغى أن يكون لنا مثل حظهم ، أو جليل من حظهم من القوة والعظمة ، ولكن كيف السبيل ؟ اللهم إن السبيل واضحة لا عوج فيها ولا أود . هى أن نأخذ إخذهم ، ونسعى سعيهم ، ونحذو فى وسائل الحياة حذوهم . وبذلك نبلغ كثيراً مما بلغوا إذا لم يقدر لنا أن نصبح مثلهم . وأرانا ، بحمد الله ، فاعلين ، بل أرانا فى هذا جادين جاهدين . ها نحن أولاء نتعلم علومهم ، وننقل فنونهم ، ونتروى ما تنتضح به قرائحهم فى آدابهم ، ونمرن أيدينا فى تقليد صناعاتهم . وننهج فى تجارتنا نهجهم ، نستن فى أسبابنا المالية والاقتصادية سبلهم ، ونطبع جيشنا على غرار جيشهم ، ونعد من آلات الحرب ما يعدون لأنفسهم ، ونجرى فى أنظمة الحكم وسياسة الجماعة على طرائقهم ، ونشيد دورنا على طرز دورهم ، ونتخذ لها من الأثاث كل جديد من أثاثهم ، ونتزيى بأزيائهم ، ونتخلق بأخلاقهم ، ونتأدب بآدابهم ، ونصطنع عاداتهم ، ونفكر على أساليب تفكيرهم ، ونسلك فى فنون النقد مسالكهم . والخلاصة ، أننا بتنا نقلدهم فى كل كبير وصغير ، ونترسم أثرهم فى كل دقيق وجليل ،

لا نستثنى على هذا إلا بعض ما تحتمه علينا قواعد ديننا فى زواجنا وطلاقنا ، وما إلى ذلك من أسبابنا ، وإلا مالا تزال تمسك علينا العادات المستأصلة من آلاف السنين ، حتى كادت بذلك تتصل بالخلق ، وتلصق بالطبع . على أنها فى طريق التحول والنصول ، ولا بد لها يوماً أن تحول .

نحن صائرون إلى حياة غربية لا شك فيها . وما لم نأخذه منها لنفعه ، ونحاكيه ابتغاء ثمرته ، أخذناه جرياً على سنة الطبعية فى تقليد الضعفاء للاقوياء ، ومحاكاتهم — بظهر الغيب — لهم دون تمييز بين ما ينفع وما يضر ، ولا نقد لما يسوء مما يسر .

نحن صائرون فى عامة أمورنا إلى هذا العيش ، مالنا إلى غير ذلك حيلة ، وإن شئت قلت مالنا من ذلك بد ! على أن هنا أمراً جليل الخطر ، أو على الأدق من أجل الأمور خطراً ، قد سقط فى هذه الوثبة من حسابنا ، وأخشى إذا هو تخلف أن تكون مشيتنا فى حضارتنا الجديدة عرجاء ، وكيف للأعرج بمسايرة المغذين الأقوياء ؟

فقد رأيت أن كل عناصر الحياة عندنا غربى خالص ، اللهم إلا عنصراً واحداً لا غناء عنه ولا سداد بدونه . ومن ينكر أن اللغة من مقومات حياة الأمم ، فهو كمن ينكر الشمس فى وضح النهار كما يقولون !

كل سبب من أسبابنا أضحى غربياً ، وما لم يستغرب بعد فهو ولا مراء فى طريق الاستغراب ، اللهم خلا اللغة ، فلغتنا ما برحت العربية التى تحدث بها الجاهليون من آلاف السنين !

إذاً ، أبات علينا لكى يتسق أمرنا ، ويستقيم منطقنا ، أن تنضو عنا لغتنا ، كما ينضى الثوب الخليق ، ونتخذ للساننا لغة غربية تستطيع أن تحيا مع هذا العيش الجديد ؟

لست ، علم الله ، أمازح ولا أعابث . فان المقام من الجد الذى لا يحتمل العبث ولا المزاح !

هناك علوم تستعب جميع سبل الحياة . وهناك فنون منها ما يتصل بصلب العيش ، ومنها ما يسعى للتسلية والترفيه والتنعيم وهناك آلات وعدد ، وهناك مصنوعات لا يملكها عدو ، وهناك مالا يحصى من المستحدثات التى أصبح لا غنى عنها للناس ، أستغفر الله ، فانما أعنى المتحضرين من الناس ، لا غنى لهم عنها فى قضاء لباناتهم وتناول جميع أسبابهم .

وهذه العلوم والفنون ، وهذه الآلات والعدد ، وهذه المستحدثات التى لا غنى عنها لأحد ، هذه كلها أصبح طلبها والتفقه فيها وتجويدها كما يجودها أهلها هو همنا وشغل نفوسنا ومرامنا الأقصى ، ومثلنا الأعلى فكيف لنا بها ولغتنا لا تحيط بها ، بل لاتكاد تلم منها بكثير ولا بقليل ؟

لقد كانت لغتنا لغة العلوم والفنون التى جاءت بها حضارتنا ، فلما عفى الزمان على هذه الحضارة عفى على اللغة كما أتى على تلك العلوم والفنون . ونحن الآن إنما نطلبه علوماً جديدة ، وفنوناً حديثة ، ومبتكرات طريفة . ولكل منها فى الافرنجية اسم ، ولكل منها تعبير

يؤديه فى غير عسر ولا التواء . فكيف لنا بهذا كله ولغتنا ، كما عرفت ، فى هذا التقلص والانقباض ؟

لا بد لنا من تناول العلم والفن ، ومن تناول وسائل الرقى والقوة والعظمة جميعاً . وتناول هذا فى غير لغة ضرب من المحال ، وتناوله فى لغة قاصرة من معضل الأشكال !

وهنا تنصدع الآراء ، وتفترق الطرق : فقوم منا يذهبون إلى أخذ العلوم والفنون وسائر حاجات الحضارة فى لغاها ، وتناولها فى أسمائها المعروفة ومصطلحاتها المقسومة فى تلك اللُّغَى حرصاً على سلامة العلوم والفنون ، واختصاراً للزمن ، وتوثيقاً للصلات بيننا وبين ينابيع الحضارة فى بلاد الغربيين . وأرفق هؤلاء من يقولون بالتعريب فى كل شئ ، حتى فيما له تعبير عربى قديم !

ويخالف هؤلاء آخرون إلى وجوب تناول كل شئ بالعربية الصميمة لا أثر فيها لأى استعجام مهما يكن المعنى مما لا عهد للعربية به فى يوم من الأيام .

ينبغى أن يكون كل شئ عربياً مخلصاً . فاذا كان بين أصحاب هذا الرأى مسرف فى المرونة والترخص رضى بأن يصار إلى التعريب إذا عيت وسائل العربية جميعاً باصابة المعنى المطلوب . وهيهات أن تعيا فى ظن الأكثرين .

وهؤلاء إنما يذهبون هذا المذهب ، ويتشددون هذا التشدد إيماناً منهم بأن اللغة من أقوى مقومات الأمة ، ومن أخص مشخصاتها فاذا هى حالت ذهبت الأمة ولم يبق لها بين سائر الأمم كيان . وإذا

كانت الأفرنجية هى لغة العلوم والفنون وسائر أسباب الحضارة ، ولم يبق للعربية إلا تناول التافه فى الأسباب الدائرة بين الناس ، فقل العفاء والسلام ، على لغة القرآن ، لغة الاسلام ! وعلى الجملة ، فاننا لو ذهبنا مذهب أولئك المعربين لأضحت لغتنا والمالطية بمنزلة سواء ، والعياذ بالله !

فى العلوم والفنون والمستحدثات من مختلف الأشياء ، وللنبات والأزهار مئات الآلاف من الأسماء والصيغ والمصطلحات . فاذا نحن عربنا هذا كله طغى أشد الطغيان على سائر اللغة . وأنت خبير بأن ما يدور من صيغ العربية على ألسنة فصحاء الخطباء ، وأقلام بلغاء الكتاب ، وما يتحدث به الخاصة فى مجالسهم ، ويجرى فى مقاولاتهم ومحاوراتهم ، وما تنتضح به رسائلهم — كل ذلك لا يزيد على بضعة آلاف . وكيف لهذا بأن يقوم بازاء ذاك ؟ بل كيف له بأن يعيش بجانبه ، ويحقق ما تحقق اللغات لها من كيان ؟

هذه هى المسئلة كما يقول شكسبير ؛ فليت شعرى ماذا يكون المصير ، فاللهم الطف بنا فيما جرت به المقادير .

كيف كان الشباب يُزَوَّجون

١

أسوق حديثى هذه المرة للخطبة والزواج فى مصر إلى مؤخرات الجيل الماضى . ولقد أعرض عليك صوراً ما برح بعضها قائماً إلى الآن ، وبعضها و إن اختفى فانه ما زال متمثلا للأذهان . وذلك أننى أحب أن أعرض مجموعة كاملة واضحة من صورة الخطبة والزواج قبل أن تحول ، أو تعتريها الأيام بالنصول .

وترانى فى ترجمة هذا الحديث قد عبرت بصيغة البناء للمفعول ، فقلت : « كيف كان الشباب يزوجون » ، ولم أقل : « كيف كانوا يتزوجون » . و إننى لأقصد هذا وأعنيه ، لأن الشباب لم يكونوا يتزوجون ، و إنما كانوا يزوجون ، لا رأى للشاب أو للفتى فى متى يتزوج ، ولا كيف يتزوج ، ولا بمن يتزوج . و إنما يزوجه أولياؤه فيتزوج ، « وكان الله يحب المحسنين ! »

كان الزواج مرحلة من مراحل الحياة لا بد للشاب منها ، مهما تكن الأحوال . كان شيئاً لا بد منه ، ولا محيص عنه ؛ اللهم إلا لنقص داخل على الخلقة ، وهذا من النادر الذى لا يجرى على سياقه الحكم العام .

فاذا ترعرع الفتى وبلغ الحلم ، جعل أهله يفكرون فى أمر تزويجه وأكثر هؤلاء هماً بذلك وحديثاً فيه وتدبيراً له هو أمه . تبادى به أباه ، ولا تنى عن مراجعته فيه ، والالحاح عليه فى التعجيل به . وكلما اعتل عليها بعلة ، أو أنهض لها فى التأخير عذراً ، هونت عليه الصعب ، ويسرت له العسير . فاذا كان العذر فى قلة المال ، وكان هذا هو أبلغ الأعذار وأشيعها ، عرضت بيع أعلاقها وحليها ، فاذا لم يكن فيها غناء ، ففى بيع « حصة » من البيت ، أو فى الاقتراض غناء !

تريد الأم أن « تفرح » بولدها وتزوجه من أى سبيل . وهنا ينبغى أن تعلم على جهة اليقين أن تعلُّم الولد أوانقطاعه عن الدرس، أو نجاحه فى أى ميدان من ميادين الحياة ، أو فشله ، أو اشتغاله بأى عمل من الأعمال ، أو تفرغه أو تبطله — إعلم أن شيئاً من هذا لا يدخل ، ولا يجوز أن يدخل فى حساب تزويجه ، أو يقام له أى وزن فى هذا الباب . ذلك بأن تزويج الشاب أو الفتى ، كما أسلفت عليك ، مرحلة لا بد منها فى اجتياز مراحل الحياة !

ولعل أهم ما كان يسهل أمر زواجه على والديه ، أن الزوجة لا تكاد تجشم أولياءه شيئاً من النفقة ، فهى تسكن فى دارهم ، وتأكل مما يأكلون منه ، وتشرب مما يشربون . فاذا كانت مطالع الأعياد جيئت بكسوة لا تُعيى على رب الدار فى كثير ولا فى قليل !

وكيفما كان الأمر ، فاننا إذا استثنينا مهر العروس ، وما إليه من الهدايا والألطاف ، وإذا استثنينا معه نفقات العرس وأسبابه ، فان

هذا الضيف الجديد لا يجشم وظيفة دائمة ، ولا نفقة راتبة ، أو على التعبير الافرنجى ، لا يكلف أى consommation .

ولا تنس ، مع ذلك ، أنها ستقوم بنصيب جليل فى خدمة الدار ، إن لم تستقل بها جميعاً : كالعجن والخبز ، والطبخ ، وغسل الثياب ، وجندرتها ، وكنس الدار ، ونفض الأثاث ، وصنع القهوة وتقديمها للضيفات الخ . . .

وقد يكون من قسمها أيضاً القيام على خدمة الصغار من أخوة الزوج وأخواته ، إذا كان له أخوة أو أخوات صغار !

الخطبة

وفى النهاية سيرضى الأب بتزويج ابنه وأنفه فى السحاب ، أو أنفه فى التراب ! وسرعان ما تذكى الأم الخاطبات ، محترفات أو صديقات ، فى التماس العروسة الحلوة فى بيوت الأكفاء . حتى إذا عدن إليها بالخبر ، أرسلت إلى أم العروس من تعين معها موعداً لرؤية فتاتها . وفى هذا الموعد تمضى الأم وبنتها المتزوجة وأختها ، وقد تستصحب بعض جاراتها من الصاحبات والمواليات . ولا تسقط من عدة الوافدات الخاطبة المحترفة ، إذا كانت الريادة لخاطبة محترفة ، يمضى كل هؤلاء إلى دار العروس ، وقد أخذن زينتهن ، وتحلين بأغلى حليهن ، وأضفين عليهن برود الحبر ، فاذا لم يكن لهن شئ من ذلك ، استعرنه من بعض الصديقات المترفات .

ويحسن بنا ، وقد بلغنا هذا الموضع ، أن نسلخ بعض الحديث

للفتاة المخطوبة ، قبل أن ينالها الوافدات بالتوسم والتصفح والقياس والتقليب .

قل من كانوا يدفعون بناتهم للتعليم فى المدارس ، بل لم يكن هناك تعليم مدرسى للبنات ألبتة قبل خمسين عاماً ، أى قبل قيام المدرسة السنية ، فالطبقة الأرستقراطية كانت تعلم بناتها فى القصور . أما الطبقة الوسطى ، وهى الطبقة التى ندير عليها الكلام فى هذا الحديث ، فأكثر أهليها كانوا يشخصون بناتهم الصغار إلى « المعلمة » وهذه « المعلمة » امرأة تخيط الثياب لمن شاء من أهل الطبقتين الوسطى والدنيا ، وتتخذ من دارها شبه مدرسة تعلم البنات فيها هذه الصناعة بقدر . فاذا ربت الفتاة وبلغت سن المراهقة كفها أولياؤها فى الخدر تعالج فيه مع أمها شؤون البيت . ولاتزال كذلك فى انتظار «العَدَل» و «العَدَل» بفتحتين ، يعنى به النساء الزوج الكفء ، الذى يكفل ويغنى ، ويسعد ويهنى . ومن هذا الوادى قولهم : « ربنا ما يعطى القحف عدل » . يدعون على الجلف الوضيع الفظ بألا يمكنه الله من جاه ولا سلطان ، لأنه إنما يتخذهما أداة للسلاطة والعدوان !

يتلقى أهل البيت الواردات بأحسن مظاهر التأهيل والترحيب . وقد سبقوا فنظفوا الدار وأحسنوا تنضيض الأثاث . ودفعوا فتاتهم إلى الحمام فأحسنوا جلاءها وصقلوا عارضيها ، وقلموا أظافرها ، ورتلوا شعر رأسها ، ومشطوه ، ونضدوا على الجبين مقدمه ، وضفروا سائره ضفيرتين . ثم ألبسوها أجمل الثياب ، وحلوها ما أصابوا من لبّات وأساور وأقراط وخواتم .

ويبدأ بتقديم « الشربات » تطوف به امرأة أو شابة أو فتاة من فتيات الدار ، أو خادم من خدمة البيت ، أو من خدم الجار .

ثم لا تزال الأنظار تطلع إلى ناحية الباب ترقباً لطلعة العروس . ثم إذا هى مقبلة تمشى على استحياء ، وقد أسبلت جفنيها ، وهى تحمل فنجان القهوة تقدمه إلى السيدة الكبيرة أولا ، ثم تعود بالثانى إلى الثانية ، وهكذا . والأنظار تتناهبها من كل جانب : هذه تتوسم وجهها ، وهذه تتفقد عنقها وصدرها . وأخرى تسرح النظر فى شعرها ورابعة تلاحظ خطوها لعل فيها ظلعاً أو شكا[1] لايدعن فى جسمها رقعة إلا أوسعتها تفقداً وتصفحاً وتأملا . ولا يفوتهن ، مع هذا ، أن يلاحظن مبلغ مهارتها فى حمل فنجان القهوة ، وكان كما تعلم ، يعتمد على ظرف دقيق القاعدة . فاذا أبلغته ولم تسل منه ، على امتلائه ، قطرة ، كان دليلا على المهارة وحسن الخدمة أى دليل !

فاذا فرغن من هذا دعونها إلى الجلوس ، فجلست على طرف كرسى فى طرف الغرفة ، فى خفر بعضه متكلف مصنوع . ثم رحن يستدرجنها إلى الحديث ، لعل فى لسانها حبسة أو عقدة أو رُتّة . أو لعل فى بعض لفظها لثغة ، فاذا اطمأنن على سلامة اللسان ، ونصاعة الأسنان ، ظللن برهة يسيرة يمتدحن فيها جمال الفتاة وحسنها ، ويشدن بأدبها ولطف موردها . ثم استأذن فى الانصراف ، وأقبلن على أمها وسائر من حضرن مسلمات مودعات مقبلات ، وأذكين على الفتاة أدقهن

---

(١) الشك الظلع الخفيف .

حساً وأنفذهن أنفاً ، فانفلتت إليها تحييها وتبالغ فى تدليلها و إعزازها ، و إظهار الحب لها والكلف بها ، وراحت توالبها (تحت هذا العنوان) تقبيلا وضما ، والتزاماً وشما . وهى إنما تفعل فى تمهر لا يخفى زيفه على أحد ، قصداً إلى تشمم فيها لعل فيه بخراً ، وأبطها لعله يفوح دفراً . ولا تألوها لمساً ومساً ، وغمزاً وجساً ، طائفة باليد على جوارح الجسد ، لعل منها ما عراه الرهل أو أصابه الأود !

ولربما طفن من غدهن ببيت فلان وبيت فلان ، ثم بعد غد ببيت فلان وبيت فلان ، حتى يستعرضن السوق كلها وينثلن الكنانة نثلا ، ما يدعن فيها سهماً ولا نصلا !

ولربما رجعن إلى بعض من وردن لاعادة النظر ، أو على الأصح لاعادة الفحص والتنقيب ، والامعان فى الفر والتقليب ، ما يرى أولياء الفتاة بذلك بأساً ، ولا يجدون فى أنفسهم منهم حرجاً !

فاذا أذن الله واجتمع الرأى على فتاة من هؤلياء ، خطبت إلى الأم أولا . فاذا اتفقت الأمان على المهر و إلا صار الأمر إلى الأبوين ومن إليهما من الأولياء . ولربما استعان ولى الزوج ببعض الظاهرين من الجهة على ولى العروس فى سبيل الحط من مقدار الصداق المطلوب . فاذا لم يبق موضع لخلاف من هذه الناحية ، قرأ الجماعة فاتحة الكتاب فى خفوت تبركا واستكمالا لفضل الله العظيم . وكذلك يشيع بين نساء الحى وفتيانه أن فلانة قد قرئت فاتحتها . وليس وراء الفاتحة إلا قبض مقدم الصداق ، فالعقد فى الأعراس . يتخلل هذه الفترة ألوان من الهدايا والألطاف ، تساق الفينة بعد

الفينة إلى دار العروس . وتدعى هذه الهدايا بالنفقة وعلى قدر هذه النفقة يعلق النساء أبلغ الأحكام . ومن أمثلتهن السائرة فى هذا الباب « العريس يبان من نفقته » وهذه الهدايا لا تعدو النقل والحلوى ، والسمك ، والشياه ، إذا طلع العيد الكبير .

ولقد جهد بى ، يا سيدى القارئ ، ولعله قد جهد بك أيضاً ، فلقد طال المقال ، وتجاوز القدر المقسوم له ، فلنرجئ الحديث فى حفلات العرس إلى يوم آخر إن شاء الله .

كيف كان الشباب يزوجون

٢

قد مضى قولنا فى الخطبة وأسبابها ، ولم يبق بين أيدينا إلا العقد فالأعراس ، ويحسن بنا قبل أن نتناول شيئاً من هذا بالحديث أن نعود فنؤكد لك أن البنت ، على وجه خاص ، لم يكن لها أى رأى فى أمر زواجها ، ولا فيمن يتزوجها ، ولا يسوغ لها أن تتطلع ولو إلى مجرد العلم بشئ من ذلك ، إنما الأمر كله إلى أمها وأبيها يزوجانها متى شاءا وممن أرادا .

أما الزوج فيختلف شأنه فى هذا بعض الاختلاف ، فهو فى الكثير الغالب لا رأى له فى الأمر ولا خيار . على أنه قد يعلم عن عرسه الكثير أو القليل عن طريق أمه أو أخته أو خالته ، وإنما يهيئ له الاستماع والاستخبار ما هو مفروض له من جراءة مهما ضعفت فانها لا تصل إلى خفر فتاة عذراء !

وقلت لك « فى الكثير الغالب » لأنه فى القليل النادر قد يكون الولد مدللا مرهفاً ، وحينئذ يكون له فى الأمر رأى ولو بمقدار .

وكيفما كان الأمر ، فلقد كان محظوراً على الخطيبين أن يتراءيا ، حتى بعد العقد ، إلى أن تحين ساعة الزفاف ، بل لقد كانت الفتاة

إذا خطبت إلى ابن عمها أو ابن خالها ، أو ابن عمتها أو ابن خالتها ، ممن نشأت معهم وشبت ولاعبتهم فى صغرها ، أسرع أولياؤها فحجبوها عنه ، وبالغوا فى حجابها إلى يوم الزفاف ، شأن الأجنبية سواء بسواء ، وكان لذلك حكمة لا تخفى على فطنة الفطناء !

وتحل ساعة العقد ، فلا يكون وكيل العروس إلا أباها أوعمها ، عند فقده ، أو أخاها وكّلته أو لم توكل ، تكلمت أو عقد الحياء لسانها عن الكلام .

وبعد أشهر تقضى فى إعداد الجهاز الذى قد يكون موضوع مساومة عنيفة بين أولياء العروسين ، يعين يوم العرس ، أو « ليلة الدخلة » فى تعبير النساء !

وتسير « زفة » الجهاز من بيت العروس إلى بيت العريس تتقدمها الموسيقى ، ومن ورائها حملة التحف والآنية الثمينة باسطين تحتها أيديهم ، فهذا يحمل ديباجة من الحرير موشاة بأسلاك الذهب والفضة ، وهذا يحمل طشتاً وإبريقاً من خالص الفضة ، أو من النحاس المموه بالذهب والفضة، وهذا علبة تنكشف عن بضعة أكواب من الفضة ، وهذا طاس حمام كذلك. ولقد ترى آخر يحمل بين يديه قبقاباً مكفتاً بالصدف والفضة !

ثم يلى هؤلاء رتل من « عربات الكارو » لا يدرك الطرف آخره ، قد بسط الجهاز عليها بسطاً ، ومط فوقها مطاً . فهذه حشية (مرتبة) ، قد خص بها مركبة ، وهذه خمس وسائد ، قد أفرد لها عربة وقائد ، وهذا « كنسول » عليه مرآة ، قد قصرت العربية عليه دون سواه ، وهذا

نضد (ترابيزة) قد شجر بالزهور ، وهذا « دولاب » قدت أبوابه من البلور ، وهذه لحف مبسوطة ، وهذه نمارق مبثوثة ، وهذه أريكة بين يديها شجاب ، وهذان كرسيان قد نشر عليهما ستر باب وهكذا! وهكذا!

ولا تزال هذه العربات تجوز بك وهى فى كلاءة الأحراس ، حتى يختم الموكب ، بفضل الله ، بعربة النحاس . وكان فى عربتين كفاية ، وفى ثلاث فضل . ولكن لا تنسى أن للتباهى حكمة ، وللتكاثر غرمه وغنمه !

ولقد ترى أن شيئاً من هذا لا يزال قائماً إلى الآن ، ولكنه أضحى مقصوراً على الطبقة الدنيا من الأهلين ، وكيفما كان الأمر ، فلعلك لم تنس أننى قلت فى الحديث السابق إننى أحب أن أجلو الصورة كلها قبل أن تحول ، أو يلحقها النصول .

وترسل الدعوة لوليمة العرس إلى الأصدقاء والجيران والمحبين ، وهى رقعة فى حجم الكف تكتب صيغة الدعوة فيها بماء الذهب ، وتبدأ عادة ببيتين أو ثلاثة من الشعر ؛ وكانوا يدعونها الملحق . ولكيلا أشق عليك فى إشاعة تخمينك فيما عسى أن يكتب فى هذا الملحق ، أعرض عليك نموذجاً منه :

من دعى فليجب

ليالى الأنس قد طابت ورقت   وطير الصفو غرد بالسرور
وجاد الدهر بالبشرى علينـــا   وداعى السعد وافى بالحبور
فهيـــا يا أحبـــة شرفونا   بأنســكمو ومنوا بالحضور

بمشيئة الله تعالى ، سيحتفل فلان فى يوم كذا من شهر كذا سنة كذا بتأهيل نجله فلان على كريمة فلان، وذلك بمنزله الكائن بجهة كذا.

فالمرجو التشريف لتتم بكم الأفراح ، وتزول عنا الأتراح . والحضور الساعة ١٠ عربى نهاراً ، والعاقبة عندكم فى المسرات .

وقبل أن أخوض بك فى ليالى العرس ، فكثيراً ما كان الاحتفال بالعرس يستغرق ليالى لا يقتصر على ليلة واحدة — قبل أن أخوض بك فى هذا ، أقرر أن المصريين كانوا دائماً أهل كرم وإيثار ، فما كانوا قط يستأثرون فى أعراسهم ونحوها بأسباب تلذيذهم وتطريبهم ، بل لقد كانوا يبسطونها ويبذلونها فى الطريق العام ، قصداً إلى أن يشركهم فيها كل من شاء من الناس .

ولقد قلت لك إن الاحتفال بالعرس كثيراً ما كان يستغرق ليالى لا يقتصر على ليلة واحدة . وهذه الليالى ، كانت فى الغالب ثلاثاً : اثنتين منها تدعيان بالضُّمَم (بضم ففتح) . أما الثالثة وأعنى بها الأخيرة ، فليلة « الزفة » أو ليلة « الدخلة » ، ليلة تولم الولائم ، ويقرب لجمهرة المدعوين شهى المطاعم .

وأولى هذه الليالى تخص بخيال الظل ، وهو عبارة عن دكة كبيرة تعلو واجهتها شاشة بيضاء تقرب مساحتها من شاشة السينما الآن ، أما جوانبها الأخرى فتحجب بألواح من الخشب يداخل بعضها فى بعض ، وفيها باب لدخول اللاعبين وخروجهم ، وفيها يضيئون مشاعل قوية لتجلو على النظارة ما يعرضون من الصور فى وضوح وجلاء .

أما هذه الصور فلأناس ، ودواب ، وطيور ، وأشياء . وتسوى هذه الصور من الجلد ونحوه ، تصبغ بمختلف الأصباغ لتحاكى ألوان ما يبدو من الأجسام والثياب .

ويمثل خيال الظل رواية قوامها عشق وصبابة بين فتى مصرى صميم ، وفتاة بنت راهب مسكنها مع أبيها الدير ! ويتخلل هذه الرواية صور استعراضية متنوعة . وكل من يحرك صورة من صور هذه الأناسى يجرى الكلام على لسان صاحبها فى دقة وبراعة تقليد ، حتى كأنها هى التى تتحدث بأسماع الناس . فهناك المغربى ، والسورى والبربرى وابن البلد المصرى . ومن هؤلاء ونسمع ما شاء الله من رائع النكت ، وقد يكون بعضها من عفو الارتجال .

ولقد كان أفخم خيال للظل هو الذى يديره المعلم حسن قشاش ، وكان سيد أصحاب النكتة فيه غير مدافع ، هو المرحوم ناجى ، وقد رآه كثير من أهل هذا الجيل ممثلا بشخصه فى الأعراس ، أو فى دور التمثيل فى الفصل المضحك الأخير . أما دور ناجى فى خيال الظل ، فكان تمثيل الغلام بولس شقيق علم ، والترسل بينها وبين صاحبها تعاتير حتى يصل بينهما الزواج . وكان ، رحمه الله ، يرسل بالنكتة بعد النكتة فى خفة روح ولطف إيقاع ، حتى يكاد يشق أضلاع النظارة من شدة الضحك المتواصل بغير انقطاع .

وقد ذهب عنى أن أقول لك إن الطبل البلدى كان له مجلس بين يدى الخيال ليعزف فى أوقات الاستراحة أو ليرقص على توقيعه من يرقص من أشخاص الخيال .

أما الليلة الثانية فيبعث السمر فيها أبو راية ، وأبو راية علم على تلك الفرق التى كانت تمثل بأشخاصها فى مقدمات ليالى الأعراس ، إذ كانت تصف الدكك والكراسى على عذارى الطريق لجلوس النظارة إذ يترك وسطها مسرحاً لاضطراب هذه الطائفة من المفلسين . وكانت هذه الفرق تمثل كذلك روايات إذا أسفت مطالبها وسخفت مغازيها ، فلقد كانت سرية بما يشيع فيها من بارع النكتة . ولقد كانت الحال تدعو إلى ظهور امرأة فى بعض الرواية ، على أن امرأة لم تكن تظهر أبداً ، فكان يتخذ لهذا الدور إما مخناث محترف ، وإما رجل يحسن تقليد النساء .

ولا شك أن سيد هؤلاء المفلسين كان المرحوم الحاج أحمد الفار الكبير ، والعجيب أن هذا الرجل على خصوبة بديهته ، وتدفقه بالنكتة يشق الناس لها ثيابهم من ضحك ومن انبهار ، لم يكن يبتسم أبداً ، بل لقد كان يتكلف الجد إلى حد أنك تراه دائم العبوس .

ومما يحسن فى هذا المقام ذكره ، أن هؤلاء المفلسين كانوا يعتمدون رجلا من صلب أصحاب العرس أو من حواشيهم ، ولعل ذلك كان بالاتفاق معهم ، فيتخذون منه عامة الليل هدفاً للنكتة حتى ما يدعو فيه أديماً صحيحاً ، والناس يضحكون ، والرجل معهم من الضاحكين .

وحسبنا هذا اليوم . وسنفرد ليوم العرس حديثاً خاصاً إن شاء الله .

الأدب الفج

كان من مزايا صديقنا شاعر النيل حافظ بك ابراهيم ، عليه رحمة الله ، مطاوعة البديهة ، وحضور النكتة ، يتصرف فيها ويفتن لكل مقام ، ما تتعاصى عليه ولا تتعثر على لسانه أبداً .

وكان ، إلى هذا ، يحفظ أظرف النوادر وأطرفها وأدعاها للعجب ، وأبعثها للضحك .

وقد سمعت منه ، رحمه الله ، النادرة الآتية ، قال :

قبل أن يوصل ما بين منيل الروضة والقاهرة بالجسور (الكبارى) كان الناس يتخذون الفلك (المعدية) فى طلبهم العبر من العبر .

وجاء رجل من المدينة ليعبر إلى الروضة من ساحل فم الخليج ، وكان الليل قد تقدم ، فوجد الملاحين يغطان فى نوم ثقيل ، من تحشيش الليل وكد النهار ، فما زال بهما حتى بعثهما ، ونهض أحدهما إلى موضع المجاذيف ، وتولى الثانى الدفة ، وأنشأ صاحب المجاذيف يضرب بمجذافيه جبت الماء . على أنه ما كاد يفعل مرتين أو ثلاثاً حتى تبهر وانقطع نفسه ، وانخذلت قواه ، وأحس شدة جفاف الحلق من أثر الحشيش ، فتناول الكوز ، ولم يكن أن زميله كان قد أذاب فيه ملحاً ليعالج به أذنه ، واغترف به من النهر غرفة ،

وأصاب من الماء ، فاذا هو ملح أجاج ، فصاح من فوره بزميله صاحب الدفة :

— يا ريس عويس ! . . .

— هو !

— إيدك ! . . . دخلنا المالح ! . . .

ولقد أذكرنى هذه الحكاية ، بعد نسيانها السنين الطوال ، شأن أبنائنا من رادة الأدب فى هذه الأيام ، وحرصهم على الظفر بالشهرة ، بل بالبطولة والمجد والخلود ، بعد علاج منظوم أو منثور فى بضعة أشهر ، أو فى بضعة أسابيع ، وأخشى أن أقول فى بضعة أيام فى بعض الأحيان !

وقبل أن أخوض فى لجة الموضوع ، أرى من الخير أن أنقل إلى قراء « الثقافة » صدراً من حديث لمتحدث ، أذاعه بالراديو فى غاية الأسبوع الماضى ، كان بعضه يطوف بهذا الموضوع ، قال :

« لا ريب أن ما نسمع الآن من المقطوعات الغنائية إنما هو من النوع الواطى الردئ ، الذى لا قيمة له ولا وزن ، ألفاظ سوقية مبتذلة ، وتراكيب سقيمة مفككة ، ومعان منحطة ، وأخيلة ظاهرة التزييف والترقيع ، فاذا عدت هذه الأناظيم من الأدب ، على أى وجه من الوجوه ، فهى من الأدب الفسل الوضيع . أو على التعبير العامى الشائع من الأدب « الفلصو » الذى لا محل له بين كرائم الآداب .

« وإننى أشك فى أن أكثر هؤلاء الناظمين قد أصابوا حظاً من

اللغة ، أو جروا على عرق ، ولو ضئيل ، من آدابها ، إننى أشك فى أن أيهم حفظ شيئاً من شعر البحترى أو أبى نواس أو أبى تمام . بل إننى لأشك فى أن أيهم شق ديوان المتنبى أو أرسل النظر يوماً فى ديوان ابن المعتز أو فى ديوان مسلم بن الوليد. وما أحسب أحداً منهم طالع ولو بنظرة واحدة ، كتاب البيان والتبيين إذا كان قد سمع باسم الجاحظ ، ودرى بأن لهذا الجاحظ كتاباً يدعى «البيان والتبيين !»

« وما له ، لعمرى ، يقرأ ، وما له يكد النفس ويعنيها فى الحفظ والمراجعة ؛ وما له يستهلك الزمن فى تقليب النظر فى روائع الآداب ، وترشف ألوان البلاغات ، كما يترشف الماء الزلال ذو الغلة الصديان ؟ ما له يعانى كل هذا أو بعض هذا ، ولقب الأديب ولقب الشاعر مكفول له من غير كد ولا مطاولة ولا مقارفة جهاد ؟ » الخ . . .

وبعد ، فلقد يكون فى هذا الكلام شئ من القسوة ، ولكنه لا يعدو الرغبة فى الخير على كل حال ، وصدق الرسول عليه الصلاة والسلام : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى . »

وكيفما كان الأمر فان هذا الضرب من الأدب ، قد انحط فى الجملة ، بل لقد هوى إلى قرار سحيق ، وإن ما تسمع من هذه المقطوعات الغنائية ليشعرك حقاً بأن كثرة هؤلاء الناظمين قد ارتجلوا حرفة الأدب ارتجالا ، وانتحلوها انتحالا ، ما عناهم فى سبيلها جهد ولا تحصيل . وإن من لا يبذل فى سعيه إلا الجهد الرخيص ، لحقيق بأن لا يظفر ، إن ظفر ، إلا بالحظ الرخيص . وليس أدل على هذا

من أن الكثرة الكثيرة من هذه المنظومات الغنائية لا يكتب لها العيش إلى اليوم الثانى . ولا أدرى كيف لا يكون من هذا وحده عبرة لأولئك الناظمين ؟(١)

ولو قد تفقدنا السبب الحق فى تدلى المستوى ، فى بعض أسبابنا ، وأعنى مستوى الأدب ، على وجه خاص ، إلى الحد الذى يضر ويؤذى، لأصبناه فى هذا الطائف الذى يطوف بنا فى هذه السنين ، وهو ضعف العزائم ، وقلة الصبر ، وتعجل الثمرات ، وابتغاء النتائج من غير تقديم ما يحتم المنطق وتقضى الطبيعة بتقديمه من المقدمات !

هؤلاء ناس يحبون المال ، ويشتهون الغنى ، ولكنهم لا يبتغون المال من وسائله ، ولا يطلبون الغنى من طريقه المقسوم ، من حسن القصد ، وموالاة السعى ، والتخفف مما لا حاجة إليه من النفقات ، وموالاة الجمع والتثمير . ولكنهم لا يجدون فى أنفسهم الكفاية من الوسائل المقدرة لإصابة الغاية ، ولا من قوة الصبر والانتظار ، ولا من احتمال الجهد فى سبيل الجمع والادخار ، ولا شئ من هذا الذى يدرك به ، فى العادة الغنى واليسار . إذاً فليقامر ، فلقد يكون إقبال

---

(١) ليس المراد أولا أن تجرى هذه المنظومات الغنائية مجرى جيد الشعر من جزالة اللفظ وفحول النظم ، بل الأمر على العكس فإنه ينبغى سهولة اللفظ ، ويسر التركيب ، بل لقد يقتضى الأمر استعمال العامية فى بعض الأحيان إذا كان لا يحلو إلا بها الكلام ، وكذلك كان يصنع كبار الشعراء والزجالين فيما مضى ، وكذلك كتب لاناظيمهم البقاء إلى الآن . وكذلك يصنع كبار الشعراء والزجالين اليوم . وكذلك يرجى أن تعيش أغانيهم إلى الغد البعيد إن شاء الله .

الدنيا فى القمار . والقمار ، حرسك الله وعصم عليك مالك ، وإن قل ، سبيل ميسرة لكل إنسان . فمن ثقل عليه أن يستوى إلى إحدى موائده الخضراء لهوان شأنه ، وضيق يده ، فلا يثقل عليه أن يخاطر فى حلبة السباق . أليس الجواد (الفلانى) قد أغل الريال عليه مائتى جنيه ؟ ومن ثقل عليه أن يؤدى نصاب الرهان على الخيل فليشارك فى النصاب ، وإلا ففى ورقة اليانصيب متسع للجميع ! وفيها المائة والمائتان والخمسمائة والألف والآلاف ، وهكذا يجئ الغنى عفواً بلا سعى ولا كد ولا عناء ! ثم إذا كف المسكين صفر ، سواء فى آخر الليل أو فى آخر النهار !

وإذا كان هناك فرق بين هذا الذى يطلب الغنى من غير سبيله ، وذلك الذى يشتهى أن يجنى ثمرات الأدب من غير سبيله ، فان الحظ محتمل لذلك ولو بنسبة $\frac{1}{100,000}$ أما هذا فغير مقدور له حظ أبداً !

لا ، لا ، يا بنى ، لا تظن أن المنزلة فى الأدب أو فى غير الأدب تواتى بمثل هذا اليسر كله ؛ فالأدب يغتصبك ، مهما تكن قد رزقت الموهبة ، أن تسهر الليالى فى حفظ الروائع التى جاد بها من سبقوك من أئمة البيان ، وفى تقليب الذهن فى بلاغات من تقدموك من كفاة أصحاب البلاغات ، وشدة المطاولة فى محا كاتهم ، والتشبه بهم فى منازع بلاغاتهم ؛ فاذا تهيأ لك أن تستحدث طريفاً أو تبتدع فى الفن جديداً ، فأنت الأديب الموهوب بفضل الله . أما أن تطلب الطفرة ، وتلتمس النتيجة من غير مقدمات ، فالطفرة ، لو علمت ،

محال . لن تكون أكثر من أديب مرتجل ، أو بالتعبير العامى أديب شيطانى ما دمت تقنع من السعي بأن تنظم كلاماً فارغاً مليحاً ، تلفقه تلفيقاً لا براعة فيه ، من كلمات جمال الطبيعة ، والأشجار ، والأزهار والأطيار ، والعبير ، والغدير ، والهدير ، والقمر والنجوم ، والسحاب والغيوم ؛ فاذا وصلت بسلامة الله إلى « لحف الخلود » فقد أديت « رسالة الأدب » وحق أن يذهب لك صيت وذكر فى التاريخ . وما شاء الله كان !

لا ، لا ، يابنى ، لا يكفى أن تؤلف ، أو على الصحيح أن تلفق من هذه الكلمات ، أو منها ومن سواها ، كلاماً بائخاً مليخاً ، لا طعم له فى مساغ النظام ، ثم تطلع به على مغن حدث أو مغنية حدثة ، لتصك بترديد ، أسماع الناس صكا . لا يكفى هذا فى ابتغاء الرزق من الأدب والمنزلة فى الأدباء .

وسامحنى ، يا بنى ، إذا قلت إنك وأمثالك من أصحاب هذا الأدب الفج (العجر) لتجنون على أنفسكم أولا ، وتجنون ثانياً على الأدب فى هذه البلاد وغير هذه البلاد !

وأرجو ألا تصغى إلى أصحابك ولداتك الذين ينضحونك بالثناء نضحاً ، فيصفونك بالعبقرية ، ويضيقون منظومتك إلى الخلود . وكذلك يرم أنفك . وكذلك يطمعونك فى المنزلة بين السماكين ، وكذلك تقطع كل سبب بينك وبين مساعى الحياة ، إذ كفك صفر ، وإذا أنت لا تزال هائماً فى القفر ، فأنت إذاً « كالمنبت ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، وصدق رسول الله .

أما أن يصدق هؤلاء الناشئون أنهم قد رزقوا الموهبة جميعاً ، فلا حاجة لأحد منهم بسعى ولا تحصيل ، ولا جهد كثير ولا قليل ، فليعلموا أن الناس لا يمطرون المواهب بمثل هذه الفداحة الفادحة وإذا كانت أمثال هذه المواهب مما يباع ويشرى ، لما ابتغت لها معرضاً أليق من سوق العصر .

هذه ، شهد الله ، نصيحة صادقة مخلصة ، يسديها إلى جمهرة الناشئين من الناظمين ، من لا يشعر لهم إلا بعطف الوالد على الولد .

فاذا أصروا بعد هذا ، على أنهم بضربتين من المجذاف « قد دخلوا المالح » ، فأمرهم وأمر الأدب إلى الله .

ذكريات

بيني وبين حافظ ابراهيم

وكنا كندماني جذيمة حقبـة — من الدهر حتى قيل لن نتصدعا
فلما تفارقنا كأنى ومالكا — لطول افتراق لم نبت ليلة معا

وبعد ، فما أدرى ما خير « الهلال » فى أن تريدنى على الكتابة فيما كان بينى وبين شاعر النيل حافظ بك ابراهيم ، عليه رحمة الله ؟

لا أدرى ما خيرها فى هذا ، وما الذى يغريها به ويدفعها إليه ، وكلما اعتذرت ردت الاعتذار ، وكلما حاولت التملص سدت على المنافذ ، وأخذت بين يدى المذاهب . ويا عجباً ! ماذا يكون بينى وبين حافظ إلا ما يكون ، فى العادة ، بين جميع الأصدقاء ، أو بين جميع الأعداء !

كنت أصحب حافظاً ويصحبنى ، وكنت ألقاه ويلقانى . وكنت أسمر معه ويسمر معى . على أننى لم أكن وحدى الذى ظفر بهذا الحظ من حافظ إبراهيم ، فمن صاحبوه ولازموه كثير ، ومن غشوا مجالسه ، واستمتعوا بملحه وطرائفه أكثر . وحافظ لم يكن متحجباً ولا منقبضاً عن الناس ، ولا برما بلقائهم وغشيان مجالسهم وفسح

مجالسه لهم ، والتبسط بألوان الحديث معهم ، بل لقد كان فياضاً ثراً متدفقاً يسمح بطرائفه ، كما يسمح بماله وبطعامه ، ما يضن على أحد بما طالت يده ولا بما يطول لسانه ، ففيم إيثارى بالتحدث عنه ، وفيم اختصاصى بالقول فيما كان بينى وبينه ؟ على أننى ما برحت مفروح الكبد لفقده ، ما ترقأ لى عليه دمعة ، ولا تبرد لى ، كلما ذكرته ، لوعة . فكيف لى ، مع هذا ، بالخوض فيما يروق من شأنه ، وما يعجب وما يسر من حديثه وما يطرب ؟

فى الحق إن تكليفى هذا دون الناس جميعاً عجب من العجب !

وبعد ، فاذا كانت « الهلال » إنما تحرص على إيثارى بهذا لأنها تحسب أننى كنت أوثق أصدقاءه به وأقربهم محلا من نفسه ، فقد خالفها الظن وأخطأها الحسبان .

عاشرت حافظاً وصاحبته ولازمته أكثر من خمس وعشرين سنة متوالية متصلة ، حتى مضى إلى فضل الله ورحمته . ومع هذا لا أدرى أكان لى أصدق الأصدقاء ، أم كان لى أعدى الأعداء ؟ ولا أدرى من جانبى أيضاً ، أكنت له أصدق الأصدقاء ، أم كنت له أعدى الأعداء ؟ وهل كان يحبنى أشد الحب ، ويضمر لى أخلص الود ، أو كان يكرهنى أشد الكره ، ولا ينطوى لى إلا على أبلغ المقت ؟ كذلك لا أدرى إذا كنت أحبه أشد الحب ، ولا أكن له إلا أصدق الود ، أو أننى أكرهه أعنف الكره ، ولا أنطوى له إلا على أقسى الحقد والبغض ؟ أكان يكبرنى ويجلّ موضعى ، وكنت أكبره وأجل

محله ، أم كان يزدرينى وأزدريه ، ويرى ألا فضل لى وأرى ألا خير فيه ؟

وترى أنه كان لا يبغى لى إلا النفع والخير ، ولا أبغى له إلا النفع الخير . أو أنه كان لا يرجو لى إلا الأذى والضر ، ولا أرجو له إلا السوء والشر !

ما زلت ، لعمرى ، بين الأمرين فى أحير الحيرة وأضل الضلال !

كنت لا أستطيع صبراً على فراق حافظ ، وكان حافظ لا يستطيع صبراً على فراق ، ولا أستطيب طعاماً شهياً إلا إذا كانت يده مع يدى ، ولا تطيب له نزهة مفرجة إلا إذا كانت رجلى مع رجله ، وهل مهد لإتيان مجلس غناء أو لهو أو سمر ، فاستوى فيه ، واطمأن إلى موضعه منه ، إلا إذا كان صاحبه معه ، واحتل من المجلس موضعه ، لا يحقن أحدنا عن الآخر سراً ، ولا يكتمه من مداخل أمره أمراً .

ولقد يدعونى بعض الأمر إلى الشخوص إلى الاسكندرية على أن أبيت فيها ليلة ، فيثبط من همتى ، ويدغدغ من عزمى ، ويهون على من خطب طلبتى ، وينطلق يذم الاسكندرية ، ورطوبة الاسكندرية ، وضيق مساحة الاسكندرية ، حتى لتلقى من تكره فى اليوم الواحد عشرين مرة فى الاسكندرية . فاذا أصاب منى العزم والاصرار ، زم متاعه ومضى معى إلى الاسكندرية ، ما يفتر لسانه طول الطريق لحظة واحدة عن لومى وتقريعى ، والأبانة عن سوء رأيى وفساد ذوق . يفعل هذا وهو متجهم الوجه بادى الغيظ ! ولقد تدعوه بعض الحاجة إلى سفرة كهذه السفرة ، نأفعل معه مثل هذه الغفلة . وسرعان

ما أرزم حوائج السفر ، وأمضى معه متى استيقنت من عزمه و إصراره !

وكيفما كان الأمر فانى أعود فأقرر أن حافظاً رحمة الله عليه كان لا يستطيع على فراق صبراً ولا أستطيع على فراقه صبراً ، ومع هذا فانه ما جمعتنا خلوة إلا جعل يصارحنى ببغضه ، وأباديه بمقته . ويذكرنى ما أسلفت من أذاه ، وأذكره ما أسلف من الكيد لى ، ولا نزال على هذا حتى يبدو ناجذ الفتنة ويهيج هائج الشر . ومع هذا لا توسوس لأينا نفسه بالفرقة وطلب الخلاص من هذا البلاء !

لا أذكر أنه ضمنى به مجلس قط ، سواء كان فيه من نعرف أو من لا نعرف ، وكان فيه من فعلى أقدارهم ، و بجل أخطارهم ، أو كان فيه من نتهاون شأنهم ، ولا تضمر أنفسنا إلا استحقارهم والزراية عليهم . لا أذكر أنه ضمنى به مجلس قط إلا جلاله مداخلى وبذل بين يديه أكره مكارهى . فاذا أعوزته المكاره خلقها خلقاء وارتجلها من عفو الخاطر ، ارتجالا !

ولقد يوغل فى الكيد و يمعن فى الأذى ، فيشرك نفسه معى فيما يرمينى به من ألوان التهم ، ولو قد صح أكثرها لأفضت بنا كلينا إلى محكمة الجنايات ، والعياذ بالله . فيقول لما فعلت أنا وفلان كذا ، ولما اقترفنا كذا ، وهكذا . . . وكل هذا ليؤكد على التهمة ويوثق الجريمة . وتراه يضع فى هذا الموضع نفسه ، ويبلغ منها به مالا يبلغ أعدى عدوها ، ليرضى نقمته منى واضطغانه على ، ولا أجر الله القائل :

فاقتلونى ومالكا واقتلوا ما لكا معى

انظر يا سيدى كيف يكون غيظى ، حتى لأكاد أخرج من جلدى ، ثم فكر فيما يرمى به لسانى من منكر القول ، ومستكره اللفظ ، نضحاً عن نفسى ، وشفاء لصدرى ! ثم تدبر ، بعد هذا ، ما يعترينى من الألم ، وما يلحقنى عليه من واخز الندم . ولعنة الله على الغضب وما يفعل الغضب !

ولقد يتوافق رأيانا فى رجل ، فنذكره بما نحسب فيه من ثقل الظل ، أو سدة البخل ، أو الكذب والتزيد ، أو التنفج وعرض الدعوى ، أو غير ذلك مما يكره الناس أن يذكروا به ، فيلقاه فى سر منى ، ويقول له : « إلا فلاناً يرميك بكيت وذيت ، فتعال معى أسمعك بأذنك » . ويواريه فى غرفة مجاورة أو يدسه من حيث لا أرى ، خلف ستار ، أو تحت سرير . ثم يقبل على فيستدرجنى إلى حديثه ، وما عسى أن نكون قد أرسلنا من النكات على خلاله تيك ، فاذا بلغ من هذا كل ما أراد ، سل صاحبنا من حيث كان ، فطلع على مغبر الوجه ، متكرش الجبين ، محمر الحدق ، بارز الناب !

وانظر يارعاك الله ، أى جهد يجب على أن أبذله ، وقد يعيننى حافظ بانقاذ الموقف (كما يقولون) وصرف الأمر كله إلى النكتة ، حتى يسكن غضب الرجل ، ويتفرج غمه ، وتطيب نفسه ، ويشيع البشر فى وجهه ، على أننى إذا خرجت من ثائر شره على سلم واطمأننت منه إلى الأمن ، فانى لأقضى بقية نهارى وسواد ليلى قلق النفس مقشعر الجلد مما عسى أن كان يكون . ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ومن أعجب العجب ، وإن شئت قلت «من بركة العجز» أن هذه الحوادث قد انتهى أكثرها ، إذ لم يكن قد انتهى جميعها ، إلى استيثاق الصلة ، وعقد الإلف بيننا وبين هؤلاء الذين كان يغريهم حافظ بى ، ويثير حفائظهم على بما يسمعهم من حديثى فيهم ، وتناولى لمكارههم . وقد يزداد هذا الإلف على الأيام حتى يصبح صداقة متينة ووداً خالصاً !

وأغلب الظن فى هذا أننا لم نكن نعرفهم حق المعرفة ، ولم نخالطهم حتى نقلب عن يقين حقيقة شأنهم فنسرع إلى الحكم عليهم بما نرى من ظواهرهم أو بما نسمع من خصومهم عنهم . حتى إذا عرفناهم وبلوناهم ، تجلت لنا فضائلهم ومزاياهم . وإذا ما ذهبنا إليه إنما كان أوهاماً فى أوهام ، لم نخرج منها واحسرتاه ، إلا بالمناكر والآثام ! اللهم اغفر لنا خطايانا وتب علينا واعف عنا ، إنك أنت التواب الرحيم !

على أن مما يعزينا فى هذا الباب ، أننا ما تناولنا ، والحمد لله عرضاً ، ولا اتهمنا أحداً فى ذمة ، ولا رميناه بكبيرة . إنما هى الشهوة إلى التندر على الناس والسلام !

ولقد كان حافظ يعرف منى شدة الخوف مثلا من سرعة السيارات ، فيستدرجنى إلى إحداهن لنزهة أو لعدة . ولا أركب حتى أستوثق من أن السائق لا يفعل . وإذا هو قد أوصاه ، وربما رشاه ، فما يكاد الخنزير يبعث عجل السيارة ، حتى يجريها فى سرعة الكوكب

الهاوى ، أو البرق الخاطف ، ما يبالى زحمة الطريق ، ولا مواجهة الترام ، ولا يطامن منه أنه يرق تلعة ، أو يمشى على حافة ترعة . أو نحو هذا مما يغلب توقع التلف فيه على توقع السلامة !

وبعد ، فأرجو ألا تظن أننى كنت أتمثل مع حافظ ، على شىء من هذا ، بالحكمة الرفيقة القائلة : « المسامح كريم » فاننى ما كنت أجزيه إلا شراً بشر وغيظاً بغيظ ، وكيداً بكيد ! ولعلى كنت أخبر الناس بما يخبث نفسه ، ويكدر صفوه ، ويذكى همه وغمه ، ويسود نهاره ، ويقض الليل مضجعه . فما حرمت شيئاً من هذا شهوة الحقد أبداً ، والبادى أظلم !

هذا ولا نتفارق ، لأننا كلينا لا نستطيع على الفراق صبراً .

وإذا أردت أن تعرف بالضبط والتدقيق لون الصلة التى كانت بينى وبين حافظ ، فألتمسها فيما كان يصفنى به ويردده على الأسماع عنى : « فلان ضرر لا بد منه » وكان ذلك رأيى فيه أيضاً . رحمه الله ، وألحقنى به على الايمان إن شاء الله .

وأرجو ، إذا كان فى العمر فسحة ، أن آتى بشىء من التفصيل عن بعض ما كان بينى وبينه من هذا القبيل .

مهم الأديب فى الشرق
أن يكون أديباً شرقياً

ولست أعنى بالأديب كل من يجيد سبك الشعر أو يحسن تزويق الكلام ، إنما أعنى بالأديب ، الأديب حقاً ، وذلك الذى استنارت بصيرته ، ورهفت حسه ، ولطفت مشاعره ، وأضحى له من حد النظر فى بواطن الأشياء وما ينقطع دونه جهد الأنظار . إنما أعنى بالأديب ذلك المفتن الذى يلمح بالنظرة المومضة ما لا أدركه أنا ولا أنت ولا يقع عليه حسى ولا حسك مهما أذكينا من الذهن وشحذنا من الاحساس .

لست أعنى بالأديب هذا الذى يشمر فى اختلاق الأخيلة لم تنتظر لنفسه ، وفى تلفيق الصور ما تجلت على حسه . إنما أعنى بالأديب ذلك الذى اتسع أفقه ، ونفذت إلى الأطواء بصيرته ، فهو يرى بعينه الباطنة مالا يرى غيره ، فاذا تعاظمك ما جلا عليك من غريب الصور ، وما سوى بين يديك من طريق الخيال ، فلا تظن أنه ملفق أو مزور أو مختلق ، بل إنه ليحدثك بما تتحدث به نفسه ، ويجلو عليك ما يرى هو وما يسمع وما يشعر فى غير زيادة ولا نقصان .

ولعلك قد أدركت من هذا أن ذلك الأديب النير الحساس لا يجدى الأدب ولا الناس إذا لم يكن متمكناً من ناحية البلاغة ،

حتى يستطيع أن يكون أميناً ودقيقاً ورائعاً فيما ينفضه عليك من صور البيان .

وبعد ، فان مهم الأديب فى الشرق جليل الخطر ، بعيد الأثر ، مهمه الأول أن يوجه حسه إلى الشرق ، وأن يحرر عاطفته كلها للشرق ، فقد استدرج الغرب إليه حس أدباء الشرق وعواطفهم جميعاً ، أستغفر الله ، بل لقد سطا بها سطواً ، وانتزعها من بيئتها انتزاعاً .

اللهم إن أعظم أدبائنا الشرقيين قدراً ، وأجلهم خطراً ، لا يكادون يطرحون النظر إلا على الغرب ، ولا يكادون يتصورون الأشياء إلا بذهن الغرب ، ولا يكادون يصورون ما يجدون إلا على أسلوب الغرب بل لا تكاد أعرافهم تلين وتنفع ! إلا لما يقبل عليهم من ناحية الغرب . لقد استهوتهم حضارة الغرب ، وفتنهم جمال الغرب ، وملك فكر الغرب عليهم كل مذهب ، فلم تبق فيهم فضلة لتقليب النظر فى هذا الشرق ، ولا لتصفح وجهه ، والتدسس إلى ما تحت السطوح مما كثرت القرارات وأجنت الأطواء !

ولعل عذرهم كان فى أنهم نشأوا فى لغات ميتة ، وآداب ميتة ، وحضارات ميته ، وأفكار ميتة ، وجو كله موت لا تترقرق فيه نسمة من نسمات الحياة ! وما ظنك بمن أحس الاختناق لفساد الجو ، أفلا تراه يجرى لالتماس الهواء الطلق ، يتفرج به ، ويملأ منه رئتيه كلتيهما ليرد به على نفسه ما مضى عنها من عناصر الحياة . وكذلك صنع أدباء الشرق ، وكانوا فيما صنعوا حق معذورين !

فى الحق إن الغرب قد استولى على أدبنا ، وأعنى أدبنا الحى أو أدبنا الذى يزعم لنفسه الحياة ، كما استولى على أرضنا ، وعلى علمنا وفننا ، وتجارتنا اوصناعتنا وكل سبب من أسباب الحضارة فى هذا العالم . لقد استولى الغرب على كل شئ عندنا ، حتى على الأدب ، وأصبحنا فى جميع وسائلنا أشبه بالمكارين يسعون سعيهم لحساب أصحاب الأموال .

ولقد يتعاظمك ويشيع فيك العجب ما زعمت من أن الغرب قد استولى على أدبنا فيما استولى ، ولقد يكون أهم الداعيات على إنكارك ما ترى كل يوم لكتابنا المجلين من لفظ عربى رشيق ، فى نظم عربى أنيق ، وما تجد من منازع بلاغات تطاول أزكى بلاغات العربية فى أزهى العصور ، فليس الأدب حلاوة لفظ ، وتلاحم نسج وإشراق ديباجة فحسب ، بل إنه قبل ذلك لوضاءة نفس ودقة شعور ، ورهافة إحساس ، ونفوذ نظر ، وتهيؤ فطرى لبراعة التصور ، ثم قدرة قادرة على براعة التصوير . وفى هذا المظهر الأخير إنما يحتاج إلى براعة النظم وصحة البيان .

وأرجو بعد هذا أن تحدثنى بعيشك ، كيف يكون أدبنا شرقياً ، وكيف يعد أدباؤنا أدباء شرقيين ، وهم متغيرون لبيئتهم ، منكرون كل الانكار لما يحيط بهم ، لا حظ للشرق ، ولا لطبيعة الشرق ، ولا لشئ من أسباب الشرق فيما يتصورون وفيما يصورون ؟

وبعد ، فللشرق أرضه وسماؤه ، وله هواؤه ، وله جباله ووديانه ،

وأنهاره وخلجانه ، ونباته وحيوانه ، وله سهله ووعره ، ومعموره وقفره ، وله صحاريه ، وناهيك بصحاريه وما ألهمت من الشعر فى قديم الزمان ! وللشرق عاداته وأخلاقه ، وله أفكاره وأذواقه . . .

للشرق جماله وفتنته وسحره ، وله جلاله ورهبته ، وهذا تاريخه الضخم ، لقد احتشد بعوامل القوة والعظمة ، كما سال بآثار الفلسفة والعلم والفن جميعاً . ولقد أزل لنا هذا التاريخ من مجالى عظمة الشرق ما يحير الألباب ، سواء منه ما طاول السحاب ، وما دسا فى التراب !

ولعمرى ، أليس فى هذا كله ما يبعث العاطفة ويستجيش الحسن ، ويلين أبدع الصور تتراءى فى أبدع البيان ؟

لقد كان الشرق مهبط الشعر كما كان مهبط الوحى وفيه رق بيان الأرض كما تنزل بيان السماء .

ولقد كان لأجلاء أهل البيان عذرهم الذى أسلفت فيما عذرهم الآن ، وقد انبعثت اللغة ، وحىّ الأدب ، وذكا الشعور ، ورهف الحس ، وراح منا خلق يعالجون ما يعالج أدباء الغرب من تحليل الأشياء ، والنفوذ إلى الأطواء ، واستظهار الطريف البديع من مختلف الصور فى شتى مظاهر الحياة .

مالنا ، وقد بلغنا هذا القدر ، ولو بفضل ترويناً من أدب الغرب ، لا نوجه إحساسنا وعواطفنا إلى هذه البيئة التى نعيش فيها ، فنتصفحها ونمعن فى تصفحها ونتوسمها ونطيل فى توسمها ، فانها قمينة بأن توحى إلينا أبلغ مما نرجو من ابتهار ومن روعة وجمال !

عباقرة الفن

قبل أن نقص ما هيأناه لهذا المقال من القصص ، نعيد ما سبق لنا أن ذكرنا فى مثل هذا المقام من أن الكذبة الفنيين ليسوا جميعاً على غرار واحد ، ولا يلزمون موضوعاً مشتركا ، بل إن منهم لاخصائيين ، تجرد كل منهم فى مطلب ، وحبس سعيه وجده عليه لا يعدوه إلى غيره . أما رأيت الأطباء كيف يتخصصون ، هذا للأمراض الباطنية ، أو لأمراض المعدة منها ، أو لأمراض الصدر دون غيرها ، وهذا للأعصاب ، وهذا للجراحة ، وهذا للحنجرة والأنف ، وهذا للعيون الخ . . . وكذلك عباقرة الفن منهم من اختصت عبقريته بالحديث فى الطعام ، ومنهم من اختص بالبطولة والفروسية فى القتال والصدام . ومنهم من لا يعدل وله النساء عليه وغرامهن به أى غرام ، وهو يضن على الآلاف منهن بالنظرة ، ولا يبرح يقدم فى صدورهن نار الغيرة ، ويذيب كبودهن من شدة الوجد والحسرة . والمسكين وخمسة من سكرتيريه قد استهلك نهارهم وليلهم ، ففى الرسائل الغرامية يسطع أريجها ، ويتضوع فى الحى والأحياء المجاورة عبيرها ، حتى لو صبت أوعية أكبر « فابريقات » الروائح العطرية فى العالم ، ا فعلت فى الجو فعله ، ولا نشرت فى الأفق العريض مثل شذاها

وطيبها . وهذه الرسائل كلها قد جادها الشغف والولوع ، بالعارض الهتان من سخين الدموع ، حتى إذا فرغ المسكين المرهق بالحاح ربات الحجال ، المضنى بمطاردة جميع ملكات الجمال ، تراه قد أرخى جفنه ، ورمى بنظرة ساحرة تسلك أعصى الكبود وتذيب الحجر الجلمود !

وهناك إخصائيون فى غير هذا أو ذاك . على أن هذا لا ينفى أن هناك من عباقرة الفن من لم يلتزموا موضوعاً ، ولم يتخصصوا فى أمر ، فهم كبعض أطباء الريف المصرى ، يعالجون كل مرض ، ويطببون كل علة ، فمن رمدين ، إلى التهاب جلد ، إلى شق دمل ، إلى تجبير عظم ، إلى توليد حامل ، إلى انسداد أنف ، إلى تمدد كبد ، إلى التهاب صدر ، إلى وجع بطن ! فهؤلاء الفنانون العموميون (إن صح هذا التعبير الشائع) يضربون فى كل مجال ، ويأتون فى كل مقام بأبدع المقال . فهم أغنى الناس إذا ذكر الغنى ، وهم أشجعهم إذا دار الحديث فى الشجاعة ، وهم الأجزل مائدة ، والأشهى طعاماً إذا مال القول إلى الطعام والدسم ، وما يحدث الكظة ويدعو إلى البشم ، وهم أشغل الناس لقلوب النساء إذا جرى ذكر الهوى ، وما تفعل الفرقة والنوى ، وكيف تصنع بالعاشقات تباريح الهوى . فاذا جاء حديث أولياء الأمور وكبار الحكام فخذ ما شئت من تهافتهم عليه ، وتباريهم فى الزلفى إليهم ، واستنارتهم برأيه فى المهمات ، واتباعهم لنصحه فى الأحداث الملمات وهكذا . . .

والعجيب فى أمر هؤلاء جميعاً أنك تجدهم حاضرى الذهن ، حافلى الخاطر ، مستيقظى الذاكرة ، لا يند عنهم كبير ولا صغير ،

ولا تنشز عليهم شاردة ولا واردة ، ولا يغيب عن ذاكرتهم شئ مما وقع لهم فى الماضى الطويل ، مهما دق أمره ، وهان قدره ، فما يكاد أحدهم يسمع فى المجلس الكلمة يهتف فيها هاتف بتقدم أحد فى باب من هذه الأبواب ، إلا انبرى من فوره يشيد بما له هو من السبق والتقدم ، ويستشهد على هذا بالقصص المسبوكة المحبوكة ، يرويها متدفقاً غير متحبس ولا متوقف ولا متلجلج ولا متتعتع ، ولا مستعين متنحنح ولا بتعسل ، كأنما يصدر حديثه عن المؤنس (موسيقى القرب) لشدة اتصاله ، وعدم الشعور بانقطاعه ولو مدة جرم النفس !

وكان لى صديق رحمة الله عليه ، يتملح بهذا الكذب ، وما برح من نشأته يوالى هذا ويدأب عليه ، حتى صار له عادة وجبلة ، وكثيراً ما سمعت أنه إذا لم يكذب لا يستريح عامة يومه ! على أن كذبه كان حلواً عذباً يشعر من فوره بأنه كذب .

كنت أتمشى معه فى صدر إحدى الليالى وقت الغلس ، والجو أدنى إلى الظلمة ، وكان وقتئذ طالباً فى إحدى المدارس العليا ، إذا نصب عليه رجل لا أدرى ولا يدرى هو من أين طلع ولا من أين هبط . بادره بطلب دين عليه . وقبل أن يتم الرجل مسئلته ، عاجله صاحبى مقسما على أنه ليس معه إلا الريال مسحة الجزمة ، فانصرف الرجل عنا وهو يضرب كفاً بكف ! يا لطيف ! . . .

واشترى ذات يوم قميصاً وأرانيه ، وجعل يدلنى على جودة قماشه وحسن تفصيله ، فقلت له : بكم اشتريته ؟ قال : بجنيه مصرى ! ولكننى رأيت مكتوباً على عنقه : P.T. 50 ، فقلت له : يا أخى

إن الثمن خمسون قرشاً . فأجاب فوراً : بل هى خمسون نصف فرنك .

وسافر فى بعض السنين إلى أوربا ليقضى أشهر الصيف وسلخ أكثر المدة فى انجلترا ، ثم عاد سالماً ، وجعل يروى ما وقع له من طرائف الحوادث ، وهى كثيرة جداً تثقل العد والحساب ، وكان أطرفها حقاً أن إحدى نجوم السينما فى لندن (وسمى ممثلة زائعة الشهرة بالجمال والفن معاً) أحبته وكلفت به كلفاً شديداً ، فكانت تقصر عليه كل أوقات فراغها ، تصاحبه فى نزهاته ، وفى غشيانه لدور الملاهى ، وتمضى معه لشهود ما يجتمع لشهوده ، من المعاهد والمعابد والمكتبات ونحو ذلك ، حتى لقد تركت قصرها الفخم لتبيت معه فى نزله . فلما آذن الصيف بالادبار طالعها بنية السفر والقفول إلى بلاده ، فتعلقت به وجعلت تبكى وتستعبر ، وتنشج أشد النشيج وأوجعه ، وتضرع إليه أن يبقى ، على أن تعوضه مما يخسر من ترك عمله فى مصر عشرات الأضعاف ، وهو يتأبى ويتجنى ، حتى إذا يئست من مقامه ، صممت على ترك عملها فى انجلترا والشخوص إلى مصر ، رجلها مع رجله !

وما زال بها يدفعها عن هذه النية الخطيرة ، فلا تتقلقل ولا تتململ ، إلى أن خوفها نقض التزامها للشركة التى تعاقدت معها ، وما يلزمها من تعويضات جسيمة . ثم سكتت على أن تلحق به إلى مصر بمجرد انتهائها من عملها . وكذلك استطاع أن ينفلت من بين يديها . وكذلك خلا له وجه الطريق إلى مصر !

انتظروا يا معشر القراء ، فان الرواية لم تتم فصولا .

بعد قدومه ببضعة أشهر لقيته ذات يوم فقال : ألم أحدثك حديث

ممثلة السينما الانجليزية ؟ فجمعت ذاكرتى ثم قلت : بلى قال : لقد ذهبت ليلة أمس فى جماعة من صحبى إلى دار سينما (كذا) فاذا صاحبتنا تمثل فى إحدى الروايات المعروضة ، وما أن رأتنى حتى انفلتت من موقفها فى الرواية ، وأقبلت نحوى حتى ملأت وحدها وجه الشاشة وحجبت كل ما يليها ، وانحنت انحناءة بديعة وهى تبتسم ابتسامة أبدع . ثم جمعت أطراف بنانها ، ولثمتها لثمة طويلة ، ثم فرقتها مومئة إلى بها ، ما تبالى النظارة ولا أصحاب الدار ، ولا أولياء الشركة فى سبيل الغرام . أرأيت يا فلان إخلاصاً كهذا الاخلاص وغراماً كهذا الغرام ؟

فحلفت له بكل مؤثمة من الأيمان بأنه ما كان من يوم أرسل آدم وحواء إلى الأرض إلى اليوم ، ولا يكون من اليوم إلى ساعة ينفخ فى الصور إخلاص يدانى هذا الاخلاص ، ولا غرام يبلغ عشر هذا الغرام !

ولندخل الآن فى البطولات الاختصاصية (إذا صح هذا التعبير) ولنجعل حديثنا الأول منها فى البطولة العسكرية ، فهى الأشكل بحال العالم فى هذه الأيام :

فلان بك رحمة الله عليه ، انحدر من ناحيتيه من أصل تركى . أو تركى وشركسى . وكان أبوه الباشا ممن حكموا فى مصر ، واقتنوا الضياع ، وشيدوا القصور ، وتركوا لورثتهم فوق ذلك جلائل الأموال . وحصل صاحبنا من العلم فى أول نشأته مالا أظنه يزيد على ما تلقته المدارس الابتدائية ، اللهم إلا ما حصله من اللغة التركية ، فلقد كان يحذقها كدأب أمثاله من أولاد الذوات فى ذلك العهد ، بحكم بيئتهم وكثرة حديثهم بهذه اللغة مع آبائهم ، وأمهاتهم ، وجواريهم وأغواتهم .

وقضى أبوه ، وأزل له بالارث ما قضى الشرع من تلك الضياع والبيوت والجوهرات والدنانير . وكان ذلك شيئاً كثيراً[١] . وكان كلفاً شديد الكلف بالدولة التركية ، لا يرى جيشاً أقوى من جيشها ، ولا أسطولا أضخم من أسطولها (و إن كان محجوباً عن الأنظار الآن) ولا سياسة أحكم من سياستها ، أما الحديث فى «المابين» ورجال «المابين» والسلطان وما أدراك ما السلطان ، فذلك شئ لا تتطاول إلى وصفه الأقلام .

شغل هذا ذهن الرجل حتى استغرقه ، وملك عليه جميع حواسه ، واستهلكها استهلاكا ، فلا يحتويه مجلس فى داره أو فى دار غيره ، أو فى المقهى ، أو فى قطار السكة الحديد ، إلا تحدث فى هذا وأسرف فى وصف ما رأى من عظمة تركيا ، ودهاء ساستها ، وقوة جيشها ، وضخامة أسطولها أيضاً !

ثم بدا له فجمع نحو أربعين غلاماً أفرغ عليهم ثياباً عسكرية تركية ، ودعا برجل من أساتذة الموسيقى ، فقام على تعليمهم وتمرينهم فى فنون الموسيقى التركية ، وجاءهم بأحسن الآلات ، وزودهم بأكثر ما دون من « النوتات » وأقام لهم داراً واسعة فى إحدى ضياعه ، فاذا أقبل عيد جلوس السلطان أو عيد ميلاده أو غير ذلك من المناسبات ، دعا بالموسيقى إلى القاهرة . فجعلت تطوف عازفة بشوارعها الكبرى ، وهو يتقدمها وعليه الحلة العسكرية التركية . على أنه كان متواضعاً ، فلا يضع على كتفه إلا شارة أمير اللواء (ميرالاى)

---

(١) لقد أضاع الرجل كل هذا ، ولم يبق له ما يساوى درهما واحداً .

التى نالها بكل استحقاق فى أثناء خدمته فى الجيش العثمانى ، وما أبلى فى حروبه الكثيرة بعد تخرجه من المدرسة الحربية هناك ، متفوقاً على الأقران فى الامتحان !

وهنا أرجوك ، يا سيدى القارئ ، ألا تكون فضولياً فتسأل : متى كان سعادته فى القسطنطينية ومتى انتظم فى المدرسة الحربية ، ومتى غزا وقاتل إذ هو لم يغب عن عيون أهل مصر فى يوم من الأيام ؟ لا تكن ، بالله ، فضولياً ، فتوجه إلى نفسك أو إلى غيرك مثل هذه الأسئلة . وأنت ، على كل حال ، حر فى تقبل الحديث وفى رده ، ولاضير فى هذا الرد على أحد ، ولله در العامة إذ يقولون فى مثل هذا المقام : « البايرة على بيت أبوها ! »

وبعد ، فقد عرفت أن صاحبنا قائد عسكرى من أمهر قادة الجيش التركى ، وما عرض أحد بين يدى مجلسه لذكر موقعة حربية حديثة ، إلا هتف بما أبلى فيها وجاهد ، ونازل وجالد ، وما نصب للعدو من كمين ، وما أوقع بهم من الشمال ومن اليمين .

على أن من واجب الانصاف أن نقرر أن الرجل لم يكن قائداً عسكرياً برياً فحسب ، بل لقد كان فى بعض الأحيان قائداً بحرياً من أمهر أمراء البحر ، ولقد أذكر أنه ضمنا به مجلس فى قيام الحرب الكبرى الماضية ، وجرى ذكرى الغواصات ، وكيف يعصف «تربيدها» بالسفن عصفاً ؟ فقال : اسمعوا : لقد كنت أقود ذات يوم طراداً تركياً فى الدردنيل ، فرمته إحدى غواصات الحلفاء « بتربيد » فنسف وغرق من فيه فى الحال ، ولم يبق منه إلاأنا ونرجيلتى (الشيشة) يحملنا

لوح من الخشب ، ولبثنا على هذه الحال اثنتى عشرة ساعة ، حتى أنقذتنا سفينة عابرة ، وكانت الشيشة هى سلوتى فى هذه الساعة المهولة !

فقال له خبيث من الحاضرين : ألم تنطفئ الشيشة يافلان بك فى كل هذه المدة ؟ فأجاب من فوره : ما أنا كنت بكركر فيها !

ومن أروع عبقرياته التى لا تلحق أبداً ، والتى تعز على طول الزمان ، وتعصى ، أننا كنا فى بعض الأمسية نسمر فى دار قريب له ، وكان معه أكبر أولاده ، وكان ذلك فى أثناء حرب البلقان سنة ١٩١٣ على ما أذكر ، وجعل الحاضرون يهتفون بفضل رءوف بك قائد الطرادة حميدية ، ويشيدون بجرأته ومهارته ، وفعله الأفاعيل بطرادته فقال : ألا تعرفون أن رءوفاً هذا هو ابنى ؟ فلم يتداخلنا شك فى أنه يعنى أنه تلميذه ، تخرج عليه فى مدرسة البحرية ، فلعله كان أستاذاً فيها أيضاً . ومن يدرى ؟ فلما قلنا له فى ذلك ، قال : بل ابنى من صلبى لا تلميذى ، فقال ابنه ، وكانت سنه تبلغ نحو الثامنة عشر : وهل سبق لك يا أبى أن تزوجت غير « نينتى » ؟ فأجابه فى عنف وغضب بل هو ابنى من أمك . أخرس بقى واخرج من هنا . فتولى الفتى ساكتاً مبهوتاً !

وأظن أن هذا أيسر جزاء ، لمن لا يعرف شقيقه الأكبر !

رحمه الله ومن مات من رصفائه الأجلاء ، وبسط فى أعمار تلاميذهم من الأحياء ، حتى يبلغ الفن على ألسنتهم ما هو مقدور له من القوة والنماء .

تقاليد الفن فى مصر

وكانت مصر إلى عهد قريب حريصة شديدة الحرص على التقاليد ، فكانت ، من هذه الناحية ، أشبه بانجلترا ، إذا لم يكن أهلها أشد محافظة من الانجليز .

والتقاليد ، ولا ريب ، من مشخصات الأمة ، وعنصر من عناصر مقوماتها فى الحياة . على أننا جعلنا ، من أعقاب الحرب العظمى إلى الآن نهدمها بأيدينا هدماً ، وننسفها ، بكل ما يدخل فى طاقتنا ، نسفاً ، إما لمجرد المحاكاة والتقليد ، وإما لمحض الاغراب والإتيان الجديد ؛ ولو كان هذا الجديد الغريب شمجاً مليخاً ناشزاً على الأوراق !

وليس يتسع هذا المقال بالضرورة ، للحديث عن جميع تقاليدنا التى كنا نعتنقها إلى ذلك العهد القريب ، ولا عن أكثرها ، فذلك شئ يطول على الاحصاء ؛ ولهذا أجرد مقال اليوم للحديث عن واحد منها ، وأعنى به الغناء .

وقبل أن أخوض فى لجة الموضوع ، أنبه إلى أن مصر من أكثر الأمم ، إن لم تكن أكثرها جميعاً ، تلويناً للتغنى والترنيم ، فهى تتغنى بقراءة القرآن الكريم ، وبالأذان للصلاة ، وما يتقدم أذان

الفجر من أهازيج السحر ، وكذلك تتغنى بالمولد النبوى الشريف ، وتتغنى بالانشاد وفى حلق الأذكار . وأنت خبير بأن غناءها الرسمى هو التخت ، وللعامة الغناء البلدى أو المحلاوى ، يوقعه موقعوه على صوت المزمار البلدى المتخذ من القصب الفارسى (الغاب) .

ولا تنس غناء الصهبة وهذا خاص بجماعات الحشاشين ، يوقعونه فى مقدمات الأعراس ؛ وقد زاد العصر الحاضر على كل هذا المنولوج وما إليه .

أما الموسيقى الآلية ، فعندنا منها النحاسية المعروفة ، والطبل البلدى ، ولا زال معروفاً أيضاً ، والنقارية أو النقرزان ، وكانوا ينقرون عليه فوق ظهور الجمال ، بين يدى موكب العروس . ولا يزالون يضربون به فى ذيل المحمل الشريف . وقد زادنا العصر الحديث الموسيقى الوترية (الأركسترا) .

وقد تجاوزت ألواناً غير يسيرة من الموسيقى ، لأن شأنها غير كبير .

وبعد ، فلست أدعى العلم بتقاليد كل لون من هذه الألوان ، ولا بما كان يأخذ به أصحابه أنفسهم ، ويلتزمونه ولا يعدونه فى كبير من شأنهم ولا صغير . ولكننى أعرف شيئاً من آداب بعض هذه الفنون منها ما شهدته بنفسى ، ومنها ما أرويه عن الثقات الصادقين . ومن هذا وهذا ما عفى عليه الزمان ، ومنها مالا يزال قائماً إلى الآن .

فمن آداب تلاوة القرآن الكريم ، أو من التقاليد المرعية فى ترتيله ، إذا صح هذا التعبير ، أن قارئاً له قدر ووزن لا يمكن أن يبدأ ترتيله إلا جارياً فى نغمة البياتى حتى إذا قضى فيها وقتاً طويلا

أو قصيراً ، ثنى عنان التنغيم إلى غيرهما ، فلبث فيها ما شاء أن يلبث ، ثم أقبل على غيرها . وهكذا ما يزال يتقلب فى فنون النغم كلما بدا له أو كلما توسم فى إحداها الاستراحة وشدة التطريب . وقد يعود فى أثناء القراءة إلى نغمة البياتى فيصيب منها أيضاً ما شاء أن يصيب . وكيفما كان الأمر ، فانه حين يؤذن الوقت بالانتهاء لا بد له من أن يختم بهذه النغمة ، مهما يجشمه التحول إليها من النغم البعيد وكثيراً ما يكون هذا التحول سريعاً ، وداعياً إلى الاعجاب !

فمتقدمو القراء فى مصر لا يبدأون قراءتهم إلا من البياتى ، وبه دائماً يختمون . وكذلك تسمع القرآن عن طريق الراديو من المشايخ العظام ، محمد رفعت ، وعلى محمود ، وعبد الفتاح الشعشاعى ، ومحمد الصيفى ، وطه الفشنى ، وغيرهم من مشاهير المرتلين .

على أننى لا أدرى من أين جاء مصر هذا التقليد ، ولا متى كان مهبطه من الزمان القريب أو البعيد ! ولعل ذلك يرجع إلى أن هذا البياتى هو نغمة البلد الأصيلة ، أو هو من آصل النغم التى تتقلب فيها حناجر المصريين . ففى الحق أن هذه النغمة ، فوق سعة آفاقها ، وتقبلها لكثرة التصرف والتلوين ، فان المصرى يجد من الاستراحة إليها والأنس بها ، ما لا يجد لكثير . أو لعله يرجع إلى هدوء فى طبيعتها ، يلين للحناجر قبل أن تصقل وتجلى ، ثم يتلطف لها بعد ما نهكها الجهد الشديد .

هذا ما كان ومالا يزال قائماً من أدب ترتيل القرآن الكريم

عند كبار المرتلين . أما أهازيج السحر التى تتقدم أذان الفجر ، وهى أناظيم فيها استغفار ، وفيها تشفع بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وفيها توسل بآل بيته ، تسليمات الله عليهم ، ويدعوها العامة الأوّلة فهذه كان لها فى القاهرة تقليد جميل .

ولقد تعرف أن القاهرة كانت إلى عهد غير بعيد لا تشغل إلا رقعة ضيقة من الأرض ؛ وكانت المساجد والزوايا تتمتع فيها بنسبة كبيرة من عدد المبانى ، فانى اضطربت رفعت لك المساجد الأثرية الجميلة ، والزوايا اللطيفة المتواضعة التى لا يكاد يخلو منها زقاق من الأزقة أو درب من الدروب .

وقد حدثنى الثقات الصادقون من مشيخة القارئين ، أن جميع مؤذنى المساجد فى القاهرة كانوا إذا ظهروا المآذن للهتاف بالأولى أو الأوّلة وقفوا وقد أرهفوا آذانهم ، وعلقوا أنفاسهم فى انتظار الأمر الذى يصدر إليهم عن مئذنة الشيخ صالح أبى حديد بالنغمة التى يجرون فيها الأهازيج لليلتهم . فاذا جلجل مؤذن الشيخ صالح بنغمة الرصد مثلا ، أسرع مؤذنو المساجد حوله بالصياح بها ، وأخذ إخذهم مجاوروهم ومن تقع للأسماع أصواتهم ، وهكذا فلا تمضى دقائق إلا والقاهرة كلها تجلجل بنغمة الرصد . و إذا بدأ بالبياتى ، أو بالحجاز ، أو بالسيكاه الخ . . . فهكذا وما شاء الله كان !

وهذا إذا دل من ناحية على القصد إلى ضبط المؤذنين لأصواتهم ، وتحكمهم فى نبراتهم ، وعدم تأثرهم بالأنغام الأخرى ، و إلا اضطروا إلى الخطأ ، ودفعوا برغمهم إلى النشوذ (النشاز) — إذا دل هذا

على هذا فانه فى الموقف نفسه دليل على أن أهل مصر ، أو سكان القاهرة على الأقل ، كانوا أصحاب فن ، وأهل ذوق ، وعشاق تطريب !

وإذا ذكرنا أن مسجد الشيخ صالح أبى حديد ، حديث ، لأن الذى تقدم باقامته هو ساكن الجنات الخديو اسماعيل ، وقد أدرك الشيخ فى الحياة ، وكان له فى صلاحه وولايته اعتقاد كبير — إذا ذكرنا هذا رجح الظن بأن هذه العادة أو هذه الزعامة تحولت إلى هذا المسجد من مسجد آخر عتيق .

وقبل أن أعرض لما أعرف من أدب الانشاء على الذكر ، أرى من الخير الكثير أن أنبه إلى أن المنشدين الذين يجرون من الصنعة على عرق ، لا يمكن أن يفسحوا فى حناجرهم إلا على ذكر السادة الليثية ، نسبة إلى الإمام الليث بن سعد المصرى ، رضى الله عنه ؛ وذلك لأن أهل هذه الطريقة أصحاب فن موسيقى بقدر كبير ، ففى طرائقهم بالهتاف باسم الله تعالى « لا إله إلا الله ! الله الله ! » ، ما يمكن للمنشد المفتن من أن يلقى أهازيجه ، موشحة كانت أو دوراً أو مقطوعة شعرية أو مواليّاً ، غير متعثر ولا متحير ، بل لقد يكون ذكر الذاكرين لاسم الله تعالى ، على أساليب هذه الطريقة ، خير ، يعينه على الإنشاد ، ويهديه فى سبيله السبيل .

وإن أنس لا أنسى السيد على الركبى ، رحمة الله عليه ، وكان قائد الذكر الليثى ، أو ضابط الايقاع ، فى تعبير هذه الأيام ، وقد

أدركته شيخاً تقدمت به السنون ، مرسل اللحية البيضاء ، وقسماته تنبئ عن طيبة قلب ، ولطف نفس . فاذا جلس أعلام المنشدين لشأنهم فى صدر المجلس ، جعل يدير أساليب التنغيم بالذكر تنغيما فنياً يهيئ لأولئك المنشدين أداء مهمتهم على أدق القواعد وأحسن الوجوه . ولقد يصرفهم هو فى فنون النغم ، بتوجيه الذاكرين إلى هذه الناحية أو هذه الناحية ، مسرعاً مرة ومتمهلا أخرى ، ضابطاً الوحدة بنقرة بخاتمه الفضى على حق سعوطه النحاسى . فكان بحق أكفأ « مايسترو » رأته العيون فى هذه البلاد .

والأدب ، أو التقليد الذى أحصيه لهؤلاء القوم ، أنه إذا جلست الجماعة للانشاد ثم فرغوا مما استفتحوا به مجتمعين ، جعل كل منهم يتغنى فردا مستغيثاً بالنبى صلى الله عليه وسلم وآل بيته ، تسليمات الله عليهم ، ثم عاد إلى التغنى ببيت أو بيتين من الغزل الرقيق ؛ والذى أسوق له القول ، هو أن أول من يبدأ بالانشاد يجب أن يكون أعلى الحاضرين سناً ، ولو كان أنكرهم صوتاً ، ثم يليه من يكبر سائرهم ، وهكذا . وقد كان يجئ المرحوم الشيخ يوسف المنيلاوى ، فى بعض الأحيان ، آخر المتغنين ، وهو غير مدافع ملك المنشدين !

فن الحزن

لأول مرة فى حياتى أدس قلمى بين قلمين يتحاوران ويتنازعان فى قضية من قضايا الدنيا أو الدين ، وحين كنت قاضياً لم يكن يحرج صدرى بقضية قدر حرجه بقضية يقتحم فيها على المتخاصمين ثالث ، فتتشعب به وجوه الخلاف ، ويطول أمد النزاع ، ويحتاز صدراً كبيراً من هم القاضى فى البحث والتحرى عما إذا كان هذا الخصم الثالث جاداً فى دعواه ، جارياً على عرق من الحق فى مطلبه ، أو هو متواطئ مع أحد الخصمين ليدفع يده عن بعض حقه ، أو ليدفعها عن حقه كله ؟ ولقد بان لى بعد امتحانى بمنصب القضاء بزمن يسير أن أكثر قضايا المحاكم الشرعية التى يقتحمها هؤلاء الخصوم ، هى قائمة على التواطؤ مع أحد الطرفين ، كيداً وعنتاً ، وأذى للطرف الآخر بغير حق ولا سبب مشروع ! على أن ذلك لا يعفى القاضى من البحث والتحرى وشدة التدقيق ، فلعل هذا الخصم الثالث جاد ، ولعله صاحب الحق دون المتنازعين جميعاً !

ولقد كان من أثر هذا فى نفسى أن أكره إليها الدخول بين متجادلين ، ولو فى شأن عام ، ولو فى قضايا العلوم والفنون والآداب ، فيما يقع عليه الخلاف بين الباحثين والكتاب . ولكنى رأيت أن

حجتى ، فى هذه المرة ، واضحة ، وأن سلطانى فى الأمر مبين ، بحيث لا يستطيع أحد المتنازعين أن ينكره أو يكابر فيه ، ويعتريه بشئ من الشك كثير أو قليل ، إذاً فمن الاثم أن أسكت وخاصة إذا كان النزاع إنما يتعلق بالشأن العام ، وعلى الأخص إذا لم يكن بينى وبين أحد الطرفين نزاع ولا خصام !

ولقد كتب صديقى الأستاذ المحقق أحمد أمين فى « الثقافة » مقالا ممتعاً ، يدعو فيه إلى استغلال فن السرور . ومما جاء فيه :

« مع الأسف ألاحظ أن كمية السرور فى الشرق قليلة ، كما لاحظت من قبل أن كمية الحب فى مصر والشرق قليلة . وليست تنقصنا الوسائل ، فجونا جميل ، وخيراتنا كثيرة ، وتكاليف الحياة هينة ، ووسائل العيش يسيرة ، ومصايب الشرق من الحرب أقل منها فى الغرب ؛ ومع هذا كله لا تزال كمية السرور فى الشرق أقل .

« أكبر سبب لذلك فى نظرى أن الحياة فن ، والسرور كسائر شؤون الحياة فن ؛ فمن عرف كيف ينتفع بالفن استغله واستفاد منه وحظى به ، ومن لم يعرفه لم يعرف أن يستغله وشقى به . »

وسرعان ما انبرى له صديقى العظيم الدكتور طه حسين بك ، فاثنى على الفكرة ، بادى الرأى ، ثم راح يشكك فى إمكان تحقيقها ، ثم ما لبث أن أطلق العنان لمداعباته العذبة الفخمة ، التى تسحّ فى الوقت نفسه فناً وأدباً . وجعل يتساءل عن الجماعة التى ينبغى أن تضطلع بتنظيم « فن السرور » ، وهل تكون من بين علماء

النفس ، أو من بين علماء الاجتماع ؟ وبعد أن دوخ الفكرة بشدة الترجيح بين هاتين الفئتين ، انطلق يحيرها بين « جهات الاختصاص » . إذا صدق هذا التعبير الديوانى ، فاذا هى قد ضلت المسالك جميعاً ، فلن تجد إلى مثابتها السبيل !

وأخيراً ، وأخيراً جداً ، رأى الدكتور طه بك أن يعدل بالحديث إلى ما هو أرفق وأقوم ، وأجدى وأنفع ، وأيسر كلفة ، وآكد تحقيقاً ، قال حفظه الله :

« ومن المحقق أنى لم أكد أفرغ من قراءة مقال الأستاذ أحمد أمين وأتخيل الآفاق البعيدة التى تمتد أمام اقتراحه أو أمام فكرته ، حتى أخذنى الحسد ، ورغبت فى ألا يستأثر من دونى بإنشاء فن السرور ، وأبيت إلا أن أكون مثله صاحب فكرة خطيرة ، وداعياً إلى إنشاء فن خطير . فأمليت هذا المقال لأدعو به إلى إنشاء فن الحزن ، وأنا أبرع من الأستاذ أحمد أمين وأمهر فى التصور . والفن الذى أريد إنشاءه لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان ، ولا إلى تحديد اختصاص ولا إلى نشر مقالات . وإنما يحتاج إلى شئ واحد يسير جداً ، هو أن تنظر فى الحياة المصرية ، ثم تعود إلى نفسك لتفكر فيما رأيت . وأنا ضامن لك بأنك ستجد فى هذا النظر وفى هذا التفكير ، مصادر حزن لا تنقضى ، وألم لا يزول .

« وإذا كان السرور خيراً لأنه يرفه على النفس ، ويحبب إليها الناس ، فقد يكون الحزن خيراً أيضاً ، لأنه يدعو إلى العمل ويدفع إلى محاولة الاصلاح » اهـ .

وبعد ، فلست أعرض لما اقترح الأستاذ أحمد أمين من إنشاء فن السرور ، ولا أمتدح الفكرة ولا أهجنها ، وعلى ذلك فليس بينى وبينه أى نزاع ، وقد كفيت المؤونة من هذه الناحية ، والحمد لله ، بقيت الناحية الأخرى ، أعنى فكرة الدكتور طه بك حسين ، وهى التى تدعو أو يدعو هو بها إلى إنشاء فن الحزن . فهى التى نكثر عليها الحديث ، والله المستعان.

وفى رأيى أن صديقى الدكتور طه قد غلط مرتين لا مرة واحدة . غلط بدعوته أولا إلى إنشاء فن الحزن ؛ وغلط بزعمه ثانياً أن إنشاء هذا الفن لا يكلف مشقة ولا جهداً ، ولا يحتاج إلى تأليف لجان الخ . . .

ولا أدرى كيف غاب عن صديقى أن فن الحزن فن قديم ، ولعله من أقدم الفنون . ومالنا نسافر إلى التاريخ البعيد ، فنتقرى الأخبار من نقوش الآثار ، وحسبى أن يعلم الدكتور أكثر مما أعلم أن الحزن كان فى صدر الاسلام فناً له خطر غير قليل . وأظن أن أحداً لا ينازعنى فى أن المراد بالحزن فى هذا المقام إثارته وإذكاؤه ، لأن أحداً لا يرتجل الحزن ارتجالا ، ولا يستحدث الشجن استحداثاً .

أعود فأقول إن الدكتور أعلم منى بأن « الحزن » على هذا المعنى ، كان فى صدر الاسلام فناً له خطر ، والدكتور أعلم منى بأن ابن سريج ، وأن الغريض كانا كلاهما نائحين ، قبل أن يكونا مغنيين . وهما من نعلم ، جلالة فن ، وجودة صنعة ، وبراعة أداء . وابن سريج والغريض بعد إذا غنيا وذهب لهما فى الغناء صيت وذكر ، لم يكن أحد منهما

ولا من أضرابهما ليخرج من تلحين الأصوات ، لتنوح بها النائحات ، فى جلى الحادثات .

وهذه كتب الأدب العربى بأخبار النياحات . فلندع إذاً هذا الحديث المعاد .

أما مصر ، فلها فى فن الحزن عرق عريق ، وخاصة فى العصر الحديث ، ولا يزال هذا الفن قائماً إلى الآن ، وإن جعل يقبل على الدثور ، مع الأسف العظيم ، ما دمنا نرانا بحاجة إلى إنشاء فنون الأحزان !

لا يزال فى مصر إلى الآن الندابات[1] ، ولا يزال فيها النائحات ، أو بالتعبير الشائع المعددات[2] أعاذنا الله وأعاذ القراء جميعاً من الحاجة إلى هؤلياء وإلى هؤلياء .

أما الندابات فجماعة من النساء يلقين ترانيمهن على نقر الدفوف فى قوة وعنف ، إذ النساء من أهل الميت يثبن على هذا النقر وثباً ، ويوقعن على هذا النبر ، لا ضرباً على أوتار العود ، بل لطماً على الخدود ، حتى يفرى أديمها ، وتهرى لحومها .

وأما النائحات المعددات فلا دفوف فى أيديهم ، ولا يصوتن بالعديد إلا فرادى . وكلما انتهين إلى موقف عج النساء جميعاً بالصياح ، وبكين فاستعبرن ، سواء فى ذلك أهل الميت ومن لا شأن لهن به من

---

(١) الندابات : ندب الميت : بكاه ، أو عدد محاسنه ، والاسم منه الندبة بضم النون .

(٢) عدد الميت : بتشديد الدال الأولى ، عد مناقبه ووصفها .

المعزيات ، ويظل هذا ثلاثة أيام من وفاة الميت ، وكل يوم خميس ، ثم تختم هذه النياحات بيوم الأربعين .

ولقد فاتنى أن أقول لك إن المعددات منهن المحترفات ومنهن الهاويات . وإن جماعات الهاويات ليفعلن هذا احتساباً ، أو مجاملة لأهل الميت ، أو مصانعة لعواطفهن إذا كان الدهر قد امتحنهن أيضاً فى كريم . أما الندابات فلا يكن إلا محترفات .

ولكى تعرف مبلغ فن الحزن فى مصر ، والاسراف فى إذكاء عاطفة الأسى والشجن ، أنك كنت إذا سعيت صباح يوم الخميس فى أى حى من أحياء العاصمة ، رأيت الجماعات من النساء عليهن السواد ، وقد ضربن بالخمر السود على رءوسهن وعوارضهن ، وفى أيديهن المناديل السود ، وهن يمشين على غير هدى ، حتى تصادفهن مناحة ، فينزلقن إليها ، ما يعرفن الميت أو الميتة ، ولا لهن عهد بأحد من أهلهما أبداً . وذلك كله انتهازاً للفرصة السعيدة فى البكاء الحار ، وسفح الدمع السخين .

ولقد تجاوز فن الحزن المصرى نطاق التبكى على الموتى إلى سائر مواجع النساء ، حتى لترى كثيرات ممن يطلبن المناحات ، إنما يطلبنها ليعولن ويطرحن أثقالا من الدموع على ما لا سبب له إلى الموت ولا إلى الأموات . فما تكاد النائحة تؤذن بفترة الاستراحة **entr'acte** بعد الفصل ، حتى تقبل عليها النساء من كل جانب ، فيلقين فى حجرها بالدراهم ، ويدعوها العامة « النقوط » . هذه تسألها أن تقول فيمن هجرها زوجها ، وهذه فيمن اتخذ عليها الضرة ، وهذه فيمن

مال بخت بنتها بزواجها من المضار غير الكفء ، أو بكيد حماتها وكثرة إيذائها ، وتلك فى خيبة سعى ولدها ، وأخرى فى سرقة حليها ، وما ادخرت من المال فى الدهر الأطول لليوم الأسود الخ . . .

وعند النائحة المعددة الكفء ما يزكى نار الأسى على كل هذا ، ويستدر الدمع الغزير ، فاذا لم يكن حاضرها شىء منه ارتجلته ارتجالا ، حيث تصيح صاحبة الشأن صياحاً متداركا ، أو تبكى وتنشج حتى تسكن عاطفتها وترضى !

والآن ، والآن فقط ، لقد تفطنت إلى أننى ظلمت صديقى الجليل القدر الدكتور طه حسين ، فى ما لعلى قد عزوت إليه ، من قريب أو من بعيد ، تجاهله قيام فن للحزن متين القواعد ، ثابت الأصول ، مفصل الفصول . فالدكتور طه بك أجل من أن يتجاهل شيئاً ليعاز صاحبه فى الحوار !

وأكبر الظن أن الدكتور ، على علمه الواسع بفن الحزن القديم ، وعلمه الضيق بفن الحزن القائم فى مصر إلى الآن ، لم ير شيئاً منهما قادراً على أن يؤدى مطالب العصر الحديث ، وكذلك أسقطهما من الحساب . لأن العصر الحديث عصر الجماعات والشركات والقوميات ، لا عصر الفرديات التى لا تتجاوز أقطار الأشخاص . هو العصر الذى ينبغى أن تندب فيه المرافق العامة وتبكى المنافع القومية . وهذا حق لا ريب فيه ، وهذا هو الأشبه بتفكير أمثال الصديق العظيم .

بقى أن الدكتور ، مع هذا تراه يتهاون فى الحزن ، ذاهباً إلى

أنه يكفى أن ينظر المرء فى الحياة المصرية ، ثم يعود إلى نفسه ليفكر فيما رأى ، حتى يجد فى هذا النظر وهذا التفكير مصادر حزن لا تنقضى وألم لا يزول .

لا يا سيدى الدكتور ، فليس الأمر بهذا الموضع من اليسر اليسير ، فكلنا ينظر فى الحياة المصرية ، وكلنا يعود إلى نفسه ، فيفكر فيما رأى . ومع هذا فلم يشق أحد منا حنجرته بصيحة ، ولا صك له خداً ، ولا تبادر له دمع غزير ولا رقيق !

إذاً لم يبق لنا بد من قيام فن للحزن قوى محكم ، عظيم الخطر ، بليغ الأثر ، ما دامت المصالح العامة فى مصر لا تستقيم قناتها إلا بثوران الأحزان وغليان الأشجان .

وإذا كان الفن القائم لا يواتى مطالب العصر ولا يحسن الترجمة عن حاجاته ، فلنعالج تحويله ، فى رفق أو فى عنف حتى يستطيع أن يقضى الحاجة ، ويبلغ الطلبة ، وينيل الأرب ، وذلك باطلاق أصوات النياحة فى الأسباب العامة ، بدل إرسالها فى الشؤون الخاصة ؛ ولنوع الندبة والتعديد فى ثكل الولد ، وهجر الزوج ، واتخاذ الضرة ، وسوء بخت البنت فى زواجها ، وشقوة الولد ، وضياع السبد واللبد ، الخ . . .

ونصوغ الأناظيم فى انحطاط مستوى التعليم ، وتدهور الأخلاق ، وتعطل الشبان من حملة عليا الشهادات ، وإهمال الانتفاع بمساقط مياه الخزان والاعراض عن الجد فى استغلال الثروة المعدنية ، ومشكلة القطن ، والغلاء المصطنع ، وأزمة الزواج بين الشباب ، وإيثار المحسوبيات على الكفايات . ولا بأس بفرض أنشودة للموظفين

المنسيين ، فى زوايا المصالح والدواوين الخ . . . ، مما لو طرى الناظمون نسجه ، ورققوا لفظه ، وجود الملحنون لحنه ، وأجروه فى نغم بائس حزين كالصبا والرمل مثلا ، ثم أحسن النائحات أو النائحون ترتيله وتوقيعه ، لأحزن وأبكى ، وأشجن وأشجى ، وهيج الزفرة ، واستدر العبرة !

وكذلك ترقى سريعاً مرافق البلاد ، وتزول عنها أسباب الضعف والفساد !

وأرجو ألا تكون شخصية اللجنة التى يعهد إليها بهذا الاصلاح العظيم أو جهة الاختصاص ، مما يكف عن مباشرته أو يعوق تحقيقه .

ولعل من الخير فى هذا الباب ، أن يعجل بانشاء كرسى لفن الحزن الحديث فى كلية الآداب .

الموسيقى المصرية

قديم وجديد

من بضعة أسابيع سمعت من الراديو حديثاً لصديقي المحقق الأستاذ أحمد أمين ، أذاعته علينا محطة لندن .

وقد تناول الأستاذ فى هذا الحديث وفى حديث قبله قديم الأدب وجديده ، وعرض فى الأخير عرضاً يسيراً للموسيقى ، خلص فيه إلى أنها تحتاج إلى نبى جديد ، كما أصبح الشعر يحتاج إلى نبى جديد .

وإذا كان الأستاذ المحاضر لم يطل الكلام فى الموسيقى ، ولم يجره على جهة التفصيل ، فلغير الموسيقى كان مساق الحديث .

وأرجو أن يأذن لى أن أتبسط بعض التبسط فى حديث الموسيقى ، وأن أتولى ما أجمل بشئ من التفصيل .

الموسيقى فى حاجة إلى نبى جديد ! نعم ، هى فى حاجة إلى نبى جديد ، لو أن الأنبياء يبعثون لتقويم الأذواق وهدايتها الصراط المستقيم !

الموسيقى فى أشد الحاجة إلى زعيم مصلح يهدى إلى الرشد ، أو إلى قائد يفتح بالسيف ما استغلق على جهد الكلام !

فى الحق ، لقد أضحت حالنا من هذه الناحية فى أشد الحاجة إلى الفتح المبين .

ولست أذهب بك ، يا سيدى القارئ ، فى التدليل إلى بعيد ؛ فلقد فتحت أخيراً إحدى كبريات الصحف فى مصر باباً تنشر فيه آراء الناس فى محطة الاذاعة المصرية ، ولو قد اطلعت على هذه الآراء فيما تذيعه المحطة من ألوان الموسيقى وفنون الغناء ، لتعاظمك الأمر وراعك ، وحير لبك ، وذهب بك منه العجب كل مذهب . وذلك بأن الكاتبين جميعاً ساخطون متبرمون متأففون . وليس عجباً أن يتوافق جمهور الناس على السخط والتبرم ، فان من الأشياء ما لا يعجب جميع الناس ، بل إن منها لما يعجب أحداً من الناس ، بل إن مناط العجب هو أن نصف هؤلاء الساخطين المتبرمين ، إنمايسلقون المحطة والقائمين عليها بأحدّ الأقلام ، لأنها تردد على أسماعهم الغناء البالى القديم ، ولا تصغى الوقت كله للمستحدث الجديد !

أما النصف الآخر فيسلق المحطة أيضاً بأحدّ الأقلام ، ويرميها بكل عاب وذام ، لأنها تصدع آذانهم ، وتفرق أذواقهم بأسماعهم هذا المستحدث الجديد ، ولا تتحرر وقت الغناء كله للعتيق القديم !

ولقد تفترق أذواق الناس ، ولقد تتغاير أحكامهم على الأشياء ، وخاصة فى هذه الفنون الجميلة ، التى يقصد بها إلى التطريب والتلذيذ ، لقد يقع ذلك ، وهو واقع فى كل زمان ومكان . ولكن اختلاف الآراء واختلاف الأحكام على ما يتنغم به من فنون الموسيقى الآن ، ليس له شبيه فى أى زمان ولا فى أى مكان !

ذلك بأن المجموع فى كل أمة مهما اختلفت فيه أذواق الأفراد وافترقت مذاهبهم فى ألوان الموسيقى ، فان هناك ذوقاً عاماً يجمع شملهم ويضم جمعهم ، فهم إذا افترقوا أو اختلفت مذاهبهم ، فاختلافهم إنما يكون فى حدود هذا الذوق العام . ومن هنا نجد الاختلاف فى هذا الباب يسيراً والافتراق رفيقاً ، كان يفضل هذا كذا على كذا ، ويستريح هذا إلى كذا أكثر مما يستريح إلى كذا ، أما أن ما ينشز على سمع هذا مما يشيع الطرب فى ذاك ويدخل عليه الأريحية وبالعكس ، كما هو الشأن فينا الآن ، فهذا كما زعمت لك مما لم يقع له شبيه فى أى زمان ولا فى أى مكان !

وإن شئت بعد هذا أن تثبت كل شئ فى موضعه ، وتجرى عليه حكمه الصحيح الصريح ، فقل فى غير تردد ولا خشية : إن الذوق الموسيقى العام قد فقد فقداً فى هذه الأيام . فاذا أبيت إلا رفقاً فى الحكم فقل إن الذوق العام الآن فى حال من الثورة والاضطراب ليس من اليسير أن ينتهى معها إلى قرار .

كان يغنى البلد فى أعقاب الجيل الماضى من أعلام المغنين المرحومين عبده الحمولى ، ويوسف المنيلاوى ، ومحمد عثمان ، ومحمد الشنتورى ، وعبد الحى حلمى ، وسلامة حجازى ، وغيرهم . وكان لكل من هؤلاء طريقته فى الغناء وأسلوبه ، ولكل منهم شيعته ومؤثروه على غيره . يلتمسون مجلس غنائه أنى كان ، ويطلبونه مهما جشمهم الأمر من الجهد والمشقة ، ويرددون تنغيمه إذا خلوا إلى أنفسهم أو إذا خلا الصحاب من أهل المراح إلى الصحاب . ومع هذا لم يزعم

أحد أن غناء غير من يؤثر ينشز على سمعه ، أو يخمش مزاجه ، أو يفرق ذوقه ، كما هو حادث الآن ؛ بل لقد كان يسمع جميع الناس من جميع هؤلاء ، فيستريحون إلى غنائهم ، وقد يذهب بهم الطرب كل مذهب . وذلك بأن اختلافهم إنما كان فى حدود هذا الذوق العام فهو لا يعدو إيثار فن على فن ، واستجادة مذهب أكثر من استجادة غيره . على أنه فى كل حال مستملح مستجيد . كانت تلاحين الملحنين قارة مطمئنة ، تجرى على قوانين مرسومة ، وتجول فى حدود معلمة مقسومة . وكانت الأذواق كذلك قارة مطمئنة لا حؤول فيها ولا اضطراب ؛ فلا يكاد غناء المغنى المجيد يقرع السمع ، حتى تراه قد سال من فوره فى النفس ، ونفذ إلى مجامع العاطفة ، فأشاع طربا ، وبعث أريحية ، أو حرك شجى وأثار شجناً .

وأرجو ألا تفهم من كلامى هذا أن الغناء فى ذلك العهد كان جامداً لا يتحرك ، واقفاً لا يتقدم ، عاتياً لا يلين لتلوين ولا تجديد . بل لقد كان مفتناً متلوناً متجدداً . ولكن فى تلك الحدود التى رسمها الذوق العام . ولهذا كان التجديد يجرى فى لباقة ورفق ، فلا ينشز على الأسماع ، ولا تأذى به الأذواق . وناهيك بما صنع عبده الحمولى فى هذا الباب . وما صنع جد كثير !

وكيفما كان الأمر ، فلقد كان بين ذلك الغناء وبين الذوق المصرى إلف ، وبينه وبين النفس ود ، حتى لكأنه لاحق بالفطرة ، موصول بالطبع !

الموسيقى الحديثة

والآن حق علينا أن نميل بالحديث إلى صفة الجديد ، وكيف جاءنا هذا الجديد ؟

لهذا الانقلاب العنيف فى الموسيقى المصرية سببان :

أحدهما طبيعى ، والأخر صناعى . أما الطبيعى فهو تلك الثورة التى زلزلت عندنا كل شئ ، فلم تدع شيئاً من العادات ، والتقاليد ، والأخلاق ، وآداب السلوك ، والأزياء ، والفن والأدب ، وغير ذلك من مظاهر حياتنا إلا رجته بقدر كبير . وجمهور الناس مهرول مغذ إلى تقليد الغربيين فى كل جليل ودقيق ، فكان من الطبيعى أن يقلدوهم فى موسيقاهم ، كما يقلدونهم فى غيرها من شؤون الحياة .

أما السبب الصناعى ، فقد انبعث فى هذا البلد شاب موسيقى جمع إلى العلم بالفن رهافة الحس ، ودقة الشعور والقدرة القادرة على الابتكار والتجديد . وأعنى به المرحوم الشيخ سيد درويش .

كان المرحوم سيد درويش يلمح النبرة تقع فى بعض التنغيم الأجنبى ، شرقياً كان أو غربياً ، فيدرك أنها مما لو سوى بعض التسوية لأمكن إدماجها فى موسيقانا ، ولكان لها حلاوة فى الآذان ، وطرب للنفوس . وعلى ذلك أدخل على موسيقانا كثيراً من التناغيم الأجنبية وطبعها فيها . وسرعان ما تقبلتها الأذواق فى غير قلق ولا نفور .

كذلك أراد رحمة الله عليه ، أن يترجم بالموسيقى عن بعض المحسوسات فتقدم ، وكان علاجه لما عالج من هذا فى غاية الرفق

والتواضع . وكذلك قدر له فيما أراغ النجاح . ويطوى الردّى سيد درويش ، ويطوف بالبلاد طائف ذلك الانقلاب العنيف ، ويأبى الملحنون والمغنون إلا الموسيقى أفرنجية لا يشوبها شئ مما ألفت الآذان من قديم الزمان . وعلى ذلك راحوا يحاكون الموسيقى الغربية التى يسمعونها هنا وهناك ؛ ولكن كيف يحاكونها ولا علم لأكثرهم الكثير بما تتكئ عليه هذه الموسيقى الأفرنجية من القواعد والأصول ؟

يحاكونها بأن يبدأوا بصياح مثل صياحهم ، ثم عدم الاذن للترانيم بأن تأخذ سمتها ، بل المبادرة إلى ليها عن وجهها حتى تصك الأسماع صكا ، وتطير الأمزجة تطييراً ، فاذا بلغت غاية الجهد من الاضطراب ذات اليمين وذات الشمال ، وبين فوق وتحت ، ووراء وقدام ، وصلت بها صرخة تحكى ما يختم الموسيقى الغربية من الأذناب والأذيال . وكذلك تظن جمهرة ملحنينا ومغنينا أنهم يجيئوننا بموسيقى غربية لا يلحقها شك ولا ارتياب ، وما شاء الله كان !

وبعد ، فأما تنكير النغم ، وأماليه عن وجهه ، وأما الصراخ فى أوله وفى آخره ، فذلك مما لا يعيى على أحد ، لأنه لا يحتاج إلى علم ، ولا صلة له بفن ، ولا علاقة له بذوق ، فاذا هو احتاج إلى شئ من فساد الذوق ، فذلك موفور والحمد لله !

ومن هنا كثر الملحنون فى بلادنا كثرة أصبحت تجهد العدد ، فلا تكاد تسمع مغنينا حدثاً أو مغنية ناشئة إلا قيل إن هذه الأغنية من تلحينها أو من تلحين ، وكذلك رخص التلحين وأصبح ميسوراً لكل من شاء !

وعلى هذا تفتحت آذان ، وكذلك استدرجت اسم الموسيقى الغربيـة أهواء . ولا أرى الغربيين ، إذ يكتب عليهم أن يسمعوها إلا أشد تأذياً بها منا نحن المصريين !

تلحين رخيص ، وموسيقى رخيصة ، وفن رخيص . أما التحزن والتفجع فى هذه التلاحين ، وأما التميع وشيوع التخنيث ، فذلك ما نسأل الله السلامة منه للرجولة فى هذه البلاد !

ولقد تقول للرجل من كبار الملحنين فى ذلك ، فيجيبك فى خجل عظيم : وماذا نصنع ، وهذه البضاعة هى الرائجة فى سوق الغناء فى هذه الأيام ؟ وكذلك جعل هؤلاء الملحنون أنفسهم يتبارون فى هذا التشويه ، يجنون به عامدين على الفن وعلى الأذواق معاً ما دام القوت يأتى من هذه السبيل !

ولكى تدرك مبلغ رخص هذه التلاحين وهوانها ، لاحظ أنك لا ترى شيئاً منها يعيش حتى إلى اليوم الثانى ، وكيف لما ولد ميتاً أن يعيش ؟

أما الذين لا يزال هواهم إلى القديم ، فهم فى برم دائم وملل لا يريم . فإن ما يسمعونه اليوم هو الذى سمعوه أمس ، وسمعوه من سنة خلت ، ومن عشر سنين مضت ؛ ومن شيوخهم من سمعه من ثلاثين وأربعين من السنين يتردد هذا الدهر الأطول على أسماعهم بنصه وفصه ، ولفظه وتلحينه ، وكل نبرة وتنغيمة فيه ، وكل ذرة للحلق على موقف من مواقفه ، وكل تكريشة تختم بها كل فاصلة

من فواصله ، اللهم إلا ما يدخله عليه المغنون من الخطأ والتشويه !

ليس هكذا ، أيها السادة ، يكون إحياء القديم . وليس بهذا التكرير الممل إلى حد الازعاج ترضون هوى أصحاب القديم إلى القديم.

المراد بالقديم يأيتها المطابع أو الأسطوانات ، هو الفن المصري القديم ، الفن السلس السهل الذى يتفجر رجولة ويسيل طرباً ، والذى يتحدث إلى كبد المصرى فى غير عسر ولا حاجة إلى ترجمان ، فيحرك فيه من ألوان العواطف ما شاء الله أن يتحرك ، ويثير فيه من الأريحية ما شاء الله أن يثور .

هذا الفن الذى لا يفتأ يتطلع إلى التجديد الرفيق ، لا ينشز على الآذان ، ولا تأذى به الأذواق . وناهيكم بصنعة عبده وعثمان والمسلوب وأضرابهم ، عليهم رحمة الله أجمعين .

وبعد ، فالحق أننا الآن فى حال من البلبلة واضطراب الأذواق هى فى أشد الحاجة إلى مبعوث للموسيقى جديد . فليت شعرى هل يطول بعثته على الزمان ؟

بلاغة التلحين

كنا ، وما برحنا ، نشكو من هذه التطرية التى لحقت الغناء المصرى فى السنين الأخيرة ، بل لا غرو علىّ إذا قلت : عن شيوع التخنيث فى هذا الغناء ، لا نستثنى على ذلك نظم المقطوعات الغنائية ، فى بعض الأحيان ، ولا تلحينها ، فى كثير من الأحيان ، ولا أساليب أدائها فى أكثر الأحيان !

تسمع المغنى وكأنك تستمع إلى أنين عليل أو جريح ، أو حشرجة محتضر ، إذا استثنيت الصرخة الأفرنجية الأخيرة التى لا بد من أن تختم بها الأصوات فى هذه الأيام ، ولعلها الصرخة الأخيرة التى تشبه من المحتضر إيماضته الخمود !

ذل ، وتوجع ، وتميع ، وتسايل ، وتزايل ، واسترخاء لا يليق بامرأة فضلا عن صدوره من الرجال !

ومن العجب العجيب ، أنك لا تجد أثراً مطلقاً لهذا التخنيث فى غناء مغنياتنا ، وأغنى مغنيات الطبقة الأولى ، على وجه خاص ، فان غناءهن تشيع فيه القوة والرجولة ، اللهم إلا ما يستكرهن عليه بعض السادة الملحنين ! أما التميع والتزايل ، فأكثر ما تجده الآن فى أغانى الرجال . ومن أعجب العجب أن يكون صوت المغنى ،

بطبيعته قوياً شديد الأسر ، فيأبى هو إلا أن يتكلف تطريته و إلانته ، بحبس جوهره فى الحلق ، وصوغ صوت له من سقف الحنك . ولايذهب عنك أن الأصوات مما يمكن أن يصنع ويصاغ . وكذلك يتهيأ للمغنى أن يلين ويسترخى ويسيل . وإننى أؤكد لك ، يا سيدى القارئ ، أن أكثر من تسمع الآن ، من هذا الضرب من المغنين ، إنما يتنغمون بأصوات مستعارة ، لا بالأصوات الطبيعية التى تجرى فى الحلوق !

وأرجوك ، ألا تعجل بلوم محطة الاذاعة ، ولا بلوم هؤلاء المغنين ؛ فهم إنما يواتون نزوة تعتلج فى الصدور فى هذه السنين ، مع الأسف الشديد ، ولست أكتمك أننى ، من بضعة أسابيع ، سمعت نشيداً حماسياً ، جعل رئيس الجماعة يتكسر فى إنشاده ، ويتزايل فى إلقائه ، ويلين من صوته ، ما أسعدته القدرة على التليين ، حتى لقد ظننت فى أول الأمر أن هذا النشيد « الحماسى » إنما يغنى لحث الجند على الفرار ، لا لحثهم على الإقدام ، لولا ما فطنت إليه أخيراً من أنه لا يصلح لهذا أيضاً ، لأنه يرخى الجوانب و يخذل الشوق ، وهيهات لمنخذل الساق الفرار ! وكل هذا إنما يتكلفه المغنى مطاوعة لذلك الطائف الكريم .

وبعد ، فاذا كان هذا سائغاً فيما خلا من الزمن ، وهو غير سائغ فى أمة من الأمم ، فى أى زمن من الأزمان ، فانه على كل حال غير سائغ فى هذا الوقت الذى نستنفر فيه الشباب لحمل السلاح . ليس سائغاً ألبتة فى هذا الوقت الذى ندعو فيه الأمة شيبها

وشبابها ، رجالها ونساءها وأطفالها إلى الحياة العسكرية التى لا تعرف ترفاً ولا ليناً ، حتى تستطيع أن تلقى الشدائد ، مهما يكن لونها ، بالصبر والقوة والعزم الحديد .

وأخيراً ، يظهر أن أولياء الغناء فى مصر ، تفطنوا إلى أن هذا ، ولكن فى الأناشيد الحماسية فحسب ، أمر سخيف مليخ . فماذا صنعوا ، يارعاك الله ، ليخرجوا أناشيد ترج النفوس رجاً ، وتستحمس الشباب أيما استحماس . ولا تذر فى البلاد كلها فتى ولا شاباً ، ولا كهلا ولا شيخاً إلا قذفت به إلى الميدان ، ليروى غلته إلى الضرب والطعان . ما يبالى أن يقع من الموت الزؤام ، أو أين يقع من الموت الزؤام !

أتدرى ماذا صنعوا فى سبيل إدراك هذا المطاب الجسام ؟ لقد شمروا عن سواعدهم ، وشدوا متونهم ، وقووا عزائمهم ، وحدوا أنيابهم أرأيت الليث وقد تهيأ للوثاب ، أو « آخرنبق لينباع » كما يقول أئمة اللغويين ، وأطلقوا الحناجر بأصوات ترعب سكان المريخ ، لو كان فى المريخ سكان !

وليت لى حظا من البلاغة يهئ لى أن أصف لك بعض هذه الأناشيد الحماسية ! ولكنى عاجز أبلغ العجز عن أن أفعل . وكل ما أستطيع أن أصورها به لنفسى أن أذكر أيام كنا أطفالا ، وكانت العجائز يسلين عنا بفنون الأحاديث (الحواديت) ، حتى إذا انتهين إلى « أم الغولة » ونهوضها لافتراس العابر المسكين فى جوف العلاة ، جوفن أصواتهن أشد التجويف ، وفخمن لفظهن أعظم التفخيم ، وقلن يحاكين زمزمتها ساعة قرمها وافتراسها : « هَمْ أكلك منين ؟ »

وأرجو أن أكون بهذه الصورة قد أجدت التعبير عن أكثر هذه الأناشيد .

وصدقونى ، يا سادتى القراء ، إذا قلت لكم إن بعض هذه الأناشيد ، قد ألقى ذات يوم وأنا جالس ، وولدى الصغير بين يدى ، وهو الآن فى طريقه إلى الثانية عشرة ، حتى إذا فرغ المنشدون من نشيدهم الحماسى أقبل على وقال : «يعنى يابابا متحمثناث» ، وفى سينه وشينه لثغة . فأجبته من فورى : « الحق علينا ياابنى اللى متحمسناش . يالله بنا نتوكل على الله ونتحمس ! »

ما هذا أيها الأخوان الملحنون ، وما هذا أيها الأخوان المنشدون ؟ ولله أبو الشاعر يقول :

أوردها سعد وسعد مشتمل ما هكذا تورد يا سعد الابل

وما هكذا يكون الاستحماس ، ولا استنفار الشباب للقتال ، بل أنه لا شبه بما كان يدخل به الذعر على قلوب الأطفال فى سالف الأجيال .

وبعد ، فليست البلاغة مقصورة على فن الكلام ، بل إن لكل فن جميل بلاغة ، فللتصوير بلاغة ، وللموسيقى كذلك بلاغة . وهكذا . فاذا خلا الفن من هذه البلاغة ، خرج سمجاً مؤذياً ، أو سخيفاً بارداً ، كما هو الشأن فى الكلام الفسل الركيك ، الضعيف التأليف ، سواء بسواء .

وأنت بعد ، خبير بأن البلاغة قوامها الذوق ورعاية المقام .

وهنا قد يقول قائل : إذا جاز لك أن تنكر من الملحنين تلك الأناشيد الحماسية التى يشيع فيها اللين والاسترخاء ، فكيف لك بأفكار هذه الأناشيد التى وصفتها بالقوة فيما تقدم من الكلام ؟

والواقع أن الأناشيد الحماسية كما تحتاج فى لفظها إلى الجزالة ، تحتاج فى نظمها إلى المتانة ، وتحتاج أخيراً فى تلحينها إلى القوة . نعم تحتاج إلى القوة القوية ، فذلك هو الأشبه بأيام البأس ، والدعوة إلى ملاقاة الأهوال . ولكن لعله ذهب عن ذلك القائل إن العنف لم يكن على الدوام دليلا على الشدة ، ولا كان الصراخ عنواناً لقوة الأقوياء ! بل لقد يدل هذا وهذا على الضعف والخور فى كثير من الأحيان . وإن من يظن أن المعنى الشديد لا يؤدى إلا باللفظ الصاخب العنيف ، وإن من يحسب أن الموسيقى الحماسية لا تصور إلا فى التلحين الصاخب العنيف ، لهو واقع فى خطأ عظيم ولأضرب لناشئة المتأدبين فى هذا الباب مثلا من أبلغ الأمثال : كلمة هادئة رقيقة وادعة ، قالها رجل هادئ رقيق وادع . ولعله لم يبرعه فى هذه الخلال أحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإذا صح أن هذا الرجل كان ممن شك السل صدورهم ، فقدر مبلغ حظ هذه الكلمة من الظرف والرقة واللين ، فليس أرق ولا ألين ولا أخف على الأذن من حديث مسلول ومع هذا لو تفطنت ، فانك واجد لهذه الكلمة من الترجمة عن القوة والسطوة والسلطان مالا يكاد يدانيها فى ذلك كلام .

وجه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، يزيد بن سفيان على جيش

إلى الشام ، وخرج يشيعه راجلا ، فتعاظم الأمر يزيد فقال : يا أمير المؤمنين ، إما أن تركب و إما أن أنزل . فقال له الصديق : ما أنا براكب وما أنت بنازل ! ثم أنشأ يقول : إن هى إلا خطى أحتسبها لله وفى الله الخ . . .

لعلك استشعرت ما وراء هذه الكلمة الرقيقة الوادعة من سطوة وسلطان ، فاذا تعاظمك ، مع هذا ، أنها خلت حتى من صيغة الأمر والنهى ، فاعلم أن من أسباب قوتها وبأسها إذا لم يكن السبب الوحيد فى قوتها وبأسها ، هو خلوها من ذاك ، وكذلك يخبر قائده إخباراً بأن إرادته قد مضت بما سيكون ، فليس له بتغيير الأمر يدان !

ونعود إلى القول بأن التدليل على القوة لا يحتاج ألبتة إلى عنف ، ولا إلى صراخ واصطخاب . فمن لنا بذلك الملحن البليغ الذى يصوغ هذه الأناشيد فى قوة تتنزه عن مثل هذا الصراخ الحقيق بتخويف الصبيان ؟

من لنا بذلك الملحن البليغ الذى يصوغ لنا هذه الأناشيد فى لحن قوى يشيع فيه الطرب ، وأقول الطرب ، لأنه شرط أساسى فى مثل هذه الأناشيد . فالطرب مما يثير الأريحية ويدعو إلى الاقدام .

ومما يحسن ذكره فى هذا المقام أن القوة والطرب ، كانا إلى وقت قريب ، هما الطابع المصرى لما يصاغ من التلاحين فى هذه البلاد ، كشأن التلاحين الشامية والتركية جميعاً !

وأخيراً فلست أشك فى وجود الملحنين القادرين على هذا ، ولكن يظهر أنه قد جرفهم هم الآخرين هذا التيار مع الأسف العظيم .

فى السياحة

أذاع حضرة صاحب العزة أحمد صديق بك مدير مصلحة السياحة فى مؤخرات الشهر الماضى حديثاً قيماً ، رمى فيه إلى حض المصريين على اتخاذ المصايف المصرية ، وإيثار بلادهم بالأموال الجليلة التى ينفقونها فى البلاد الأجنبية فى كل عام ، وقد قدر هذه الأموال بأربعة ملايين من الجنيهات !

وقد عرض فى حديثه لمنشأ هذه البدعة ، بدعة خروج المصريين إلى البلاد الأجنبية لسلخ ما يتهيأ لكل منهم سلخه من أيام الصيف ، وعلى وجه الخصوص فى أوربا ، ورد هذه البدعة التى استحالت عادة إلى أن مصر لما كانت داخلة فى ملك الدولة العثمانية ، كان من المتعين على الحكام وأصحاب الأخطار فى البلاد أن ينتجعوا ، الفينة بعد الفينة ، مثوى الخلافة للأغراض المختلفة . وإذ كان جو القسطنطينية لا يوائمهم فى الشتاء ، فكان من المعقول أن يحرروا فصل الصيف لهذه الهجرة ، فجو الآستانة فيه جميل ، وهواؤها عليل . وجرى من دون هؤلاء على سنة هؤلاء بحكم المحاكاة والتقليد . ثم تحولت دفة المهاجرين شيئاً فشيئاً إلى بلاد الغرب ، حتى بلغت عدتهم عشرات الألوف فى كل عام ، وأصبح ما ينفقونه يعد بالملايين ،

وما أحوج بلادنا إلى هذه الأموال ، وخاصة فى هذه السنين !

ولقد حمل الأستاذ صديق بك حملة صادقة على أولئك الذين يهجرون بلادهم فى مطلع كل صيف ، شادين الرحال إلى أوربا فى غير حاجة تدعوهم إلى ذلك من طلب علم أو استقصاء بحث ، أو تحريك تجارة ، أو إنماء صناعة ؛ أو غير ذلك مما يخرج الناس من ديارهم ، ويضرب بهم فى غيرها من بلاد الله .

وإننى أؤيد حضرته بكل ما أملك من يقين ، وأؤكد أننا إذا استثنينا طلاب العلوم والفنون وبعض الأساتذة والأطباء ، لا نصيب أكثر من واحد فى كل مائة من هؤلاء الذين يطلبون أوربا فى كل عام ، وهذا على أسخى تقدير . أقول لا نصيب أكثر من واحد فى المائة يضطره أى أمر من أمور الدنيا أو الآخرة إلى تلك البدعة التى تستهلك هذه الأموال فى كل عام .

أربعون ألف مصرى يطلب أكثرهم أوربا فى صيف كل عام .

إذاً فتعالوا نتحاسب ، ولنكن فى حسابنا حق صرحاء وحق صادقين .

كم مصرياً فى العام يمضون إلى أوربا ليستقصوا بحثاً يفتح فى العلم أو الفن فتحاً ، وينقض بعض القواعد المسلمة فيهما نقضاً ، ويطير هم العلماء فى شرق الأرض وغربها كل مطير ! العفو !

ثم كم مصرياً من هؤلاء والأربعين ألفاً يطلبون أوربا ليفتحوا بين يدى التجارة المصرية أسواق الغرب ، فلا تلبث حتى تغزوها غزواً ، وتدفع ما سواها من التجارات دفعاً ؟ العفو !

ثم كم مصرياً بين هؤلاء الأربعين ألفاً من يشخص إلى الغرب

لينقل عنه إلا بلاده أدق الصناعات وأفخمها بحيث لا تستغنى بصنع أيديها عما يرد إليها من الغرب والشرق فحسب ، بل لتغمر بهذه الصناعة الأسواق فى غيرها من البلدان ؟ العفو أيضاً !

ثم كم مصرياً فى أولئك الأربعين ألفاً من تعاصت علته على جمهرة الأطباء فى مصر ، وطنيين وأجانب ، حتى حلفت الطبيعة بكل مؤثمة من الأيمان ، أن هذه العلة لا برد لها إلا فى فيشى أو اكس ليبان ؟

حقاً ، لقد نجد بين هذه الجموع الكثيفة التى تتدفق على أوربا فى كل عام من تبعثه تجارته ، ومن تستدرجه الرغبة إلى تحسين صناعته، ومن قد أثقلته العلة حتى تحير فيها طب الأطباء فى هذه البلاد ، فلم يجدوا بداً من الإشارة على العليل بالشخوص إلى الغرب ، حيث الطبيب الاختصاصى العالمى ، أو حيث الينبوع الذى عقد الشفاء بمائه ، ونحو ذلك . ولكن قل لى بعيشك : كم عدة جميع هؤلاء وأولئك من النازحين إلى الغرب فى كل عام ؟ عشرة ! عشرون ! ثلاثون ! أربعون ! أى بحساب واحد فى الألف لا واحد فى المائة ، على ما قدرنا ، أسخياء ، فى بعض هذا المقال !

أستغفر الله ! لقد فاتنى أن أقدم السبب الرئيسى لهجرة هذا القدر الضخم من المصريين إلى الغرب فى كل عام . وهذا السبب تطالعنا به الصحف السيارة فى كل عام . وهل يقع لك عدد من جريدة فى مصر طوال أشهر الصيف إلا قرأت فيه : « يبحر (فلان) إلى أوربا

تبديلا للهواء ، أو ترويحاً ، للنفس من عناء الأعمال » . أو نحو ذلك مما يدخل فى باب الترفيه والاستجمام !

وليت شعرى هل تستحيل بلادنا فى الصيف فرناً تشوى فيه الوجوه شيًّا ، وتفرى الجنوب فرياً ؟ أليس فى بلادنا الطويلة جداً والتى يسلكها النيل من أولها لآخرها ؛ والتى تطل على بحرين لا بحر واحد — أليس فى هذه البلاد كلها متنفس فى الصيف ، ولا متفرج من وقدة حره ، ومنتبذ عن أذاه وضره ؟ وأخيراً ، أليس مصايفنا من وسائل التسلية واللهو ما يريح النفس ، ويهيئ الاستجمام ؟ بلى ! إن فيها هذا كله ، وفيها غيره من مطالب رواد الغرب فى كل عام!

إذاً فما سر هذا التجنى والبطر الجرئ على البلاد وعلى مصايف البلاد ؟

ودعنى أزعم لك ، أيها القاعد ، أن الكثرة الكثيرة من هؤلاء المهاجرين لا يطيب لهم العيش فى هذه الرحلات الغربية كما تتصور أنت ، وكما يصورون هم لك . بل إنى لأتقدم ، غير متزيد ولا غال ، فأزعم لك أن كثيراً منهم لا يجدون فيها إلا ضيقاً ورهقاً ، فان فى الغربة أولا لضيقاً ، وإن فى تغيير أسباب المعيشة لمجاءة لعنتاً ورهقاً . وناهيك بازدراء أطعمة لم تألفها ، والاضطراب فى بيئات لم تعرفها ، والتزام عادات لا عهد لك بها ، وأخذك النفس بأمور لم يسبق لك علاجها ولا التمرين فيها ، وكيف بالمرء مع هذا إذا كان لا يحذق لغة القوم الذين يعيش فيهم ويضطرب بينهم ؟

وهذا إلى الهم بترك الوطن والبعد عن الأهل والولد وطول شغل

النفس بإهمال العمل ، إذا كان المهاجر من أصحاب العمل ، وهذا وهذا إلى ما يجشم هذه الهجرة من ألوان النفقات ؛ وما تستخرج من جليل الأموال التى قد يستعان عليها بالاستدانة ، أو الانطواء فى سبيلها على الضيق والعسر فى سائر شهور العام !

ولقد يسقط الكثير من هؤلاء إلى باريس ، فباريس قبلة الكثرة من هؤلاء المهاجرين ، فيثوى فى أحد فنادقها ، لا يغادره إلا إلى مقهى ، أو ملعب من الملاعب ، أو مباءة من مباءات العبث ، ويظل مضطربه بين هذه المواطن الثلاثة أو الأربعة طول مدة الاقامة هناك ، حتى يأذن الله فى عودته ؛ ولقد يوالى الهجرة إلى باريس عشرين عاماً وهذا شأنه ، ما يرى من باريس غير ما رأى ، ولا يعرف عنها أكثر مما عرف . الفندق ، والمقهى ، والملعب ، وما عسى أن تنزلق إليه رجله من مباءات العبث . وليس وراء عبادان بلد !

وبعد ، فاذا طلبت حقيقة السبب فى هجرة كثرة هؤلاء المهاجرين إلى الغرب ، على ما فيها من كثرة النفقة ، وعظم المشقة ، واحتمال ما وصفت لك من فنون الضيق والعنت ، فهو لا يعدو الرغبة فى التكاثر والظهور بالأبهة والفخفخة وتقليد المترفين من أصحاب الثراء. فالشخوص إلى أوربا أصبح عند هؤلاء بمثابة الرتب وألقاب الشرف ، ولولا بقية من حياء لطبع هؤلاء على رقاع الزيارة :

فلان الفلانى
سافر إلى أوربا

على أن فى ترديد اسم أوربا كلما جلسوا إلى الناس ، ولما سافرت إلى أوربا ، وسنة ما كنا فى أوربا ، وبينا كنا فى باريس الخ . . . مما تعى به الطاقة ، ما يغنى فى التعريف عن ألف بطاقة وبطاقة !

على أن مما نحمد الله عليه أنه على تضاعف عدد الذين يخرجون عن البلاد وازدياد عدتهم سنة بعد سنة ، فقد قل ، ولو فى النسبة ، عدد الحكائين منهم .

وللحكائين من هؤلاء فى الجيل الماضى عما رأوا فى رحلاتهم إلى الآستانة ولبنان حديث يروق ويشوق . ولعلنا نطالع القراء بنماذج منه ، فهو حقيق بأن يسلى عنهم بعض التسلية ، و يرفه عليهم فى وقدة الصيف بعض الترفيه .

و إلى الملتقى إن شاء الله .

الحكاءون

١

رجوت فى غاية مقال « فى السياحة » أن ألم بحديث الحكائين ممن كانوا يطلبون البلاد الأجنبية إذا كان الصيف . ولعلك تذكر أنني زعمت فى ذلك المقال أن غريزة المحاكاة والتقليد كان لهما فى تلك البدعة الأثر البعيد .

كان الكبراء من رجال الحكم ومن على شاكلتهم يشدون الرحال إلى الآستانة فى مطالع الصيف وعلى رأسهم ولى الأمر نفسه . وجعلت العدوى تسرى حتى أصلب أهل الطبقة الوسطى فمن دونهم . فمن عز عليه السفر إلى الآستانة اكتفى بالشخوص إلى الشام . وكانت كلمة الشام تطلق فى مصر على ما ندعوه الآن سوريا ، ولبنان ، وفلسطين الخ . . .

وكيفما كانت الحال ، فان السائح إذا عاد إلى مصر ، جلس فى داره أياماً للهناء ، وربما سبق أهله فزينوا باطن الدار وظاهرها فرحاً بسلامة القدوم ، وترى الناس يقبلون عليه أفواجاً ، يبدون له فرحهم بعودته سالماً ، وغبطتهم له ، بظهر الغيب ، على ما رأى وما شهد . ولا يلبثهم هو حتى يسألوه عن شئ من ذلك ، بل إنه ليعاجلهم بالحديث الطويل . وكلما أقبل فوج من الناس أعاد الحديث

وكروه ، وهكذا حتى تنقضى أيام الهناء ، إذ يخرج للقاء الناس فلا يضمه بهم مجلس ، بل لا يكاد يلوح له اثنان يتحاوران فى شأن لهما حتى يفسح لنفسه بينهما مجلساً ، ثم طفق يتحدث فيما رأى فى رحلته وما شهد ، وما أكل وما شرب . ولقد تكون رحلته من يوم تحمله إلى يوم مهبطه مصر قد استهلكت ثلاثين يوماً فقط ، ولكنه مستهلك فى الحديث عنها ثلاثين عاماً !

ولقد ضاق بهذا جماعة من أهل الأدب والظرف ، وبرموا به برماً شديداً . وكان على رأسهم المرحومان السيد محمد المويلحى بك ، والسيد محمد البابلى بك ، وغيرهما ممن لا يزالون فى الحياة ، وصل الله فى أعمارهم ، وأسبغ عليهم العافية ؛ فقعد والجماعة الحكائين كل مرصد . وكلما تحركت فى مجالسهم شفتا حكاء ، راحوا يبوخونه ويتلقونه بالنكتة الكاوية من جميع أقطاره ، حتى يعصروه عصراً ، وما زالوا بجمهرة الحكائين كذلك حتى أزعجوهم عن هذه الخلة ، وعقدوا ألسنتهم عن الخوض فى هذا الحديث السمج المعاد ! فالفضل فى كف هذا البلاء عن المجالس لهم ، جزاهم الله خير الجزاء !

والعجيب أن الحكاء من هؤلاء سواء تحدث عن اصطنبول أو الشام فانه قل أن يلم فى حديثه الطويل العريض بالطبيعة، وما آثرت تلك البلاد من فتنة وجمال !

وقبل كل شئ ينبغى أن نفرق بين حكائى الشام وحكائى اصطنبول ، فالحديث عن كل منهما مختلف عن الآخر أشد الاختلاف . وسترى هذا من عرض الكلام .

الحكاءون

٢

اصطمبول — ١

وترى أنى خالفت الكاتبين إلى رسمها بالصاد لا بالسين ؛ وذلك لأجارى منطق الناس كافة ، لثقل النطق بالطاء بعد السين الساكنة . ولقد يكتبونها فى بعض الأحيان « اسلامبول » فاذا نسبوا إليها (فى الكتابة لا فى النطق) كتبوا « الاسلامبولى » ، على أنهم إذا تكلموا قالوا : « رأيت سى محمد الاصطمبولى » ، و سافر سى حسين الاصطمبللى » الخ . . .

ومن أسماء هذا البلد القصطنطينية ، والآستانة ، وفروق (وهذه لا أعرفها إلا من شعر شوقى بك عليه رحمة الله) ؛ ودار السعادة على ألسن العرب و «دَرِ سعادَتْ» على ألسن الترك والمتتركين . وحقيق بمثوى الخلافة الاسلامية أن يكون كل هذه الأسماء . ولا تنس مثوى الخلافة الاسلامية فى عهد العباسيين ، فلقد كان من أسمائها : بغداد ، بغداد، بغذاد ، بغداذ ، بغدان ، مدينة المنصور ، مدينة السلام الخ . . . ولقد قال المتقدمون : إن كثرة الأسماء دليل على شرف المسمى .

وبعد ، فلقد علمت أن كثيراً من المصريين كانوا يحجون فى مطالع الصيف من كل عام إلى دار الخلافة ، ثم يعودون إذا عادوا ، فيحكون، شأن رصفائهم من رواد بلاد الشام .

على أن الحديث ، كما قلت لك فى المقال السابق ، مختلف بين الفريقين ، جد الاختلاف ؛ فانك قل أن تسمع من رواد اصطمبول حديث « البقلاوة » ، أو « البلنج ضلمة » أو « الامام بيلدى » ، وأرجو أن تفخم اللام فى هذه بكل ما تستطيع من التفخيم .

إذاً لم تكن جمهرة أحاديث هؤلاء مما تتحلب له الشفاه ، ويتنزى على ذكره عصير المعد . بل لقد كان حديث « حكائيهم » فى السياسة العليا ، وفى شوكة السلطان ، أو الخليفة ، أو « الياديشاه» وما له من قصور ، تزخر بالعين الحور ، وماتخرج يلدز للمقربين من موائد تعد فى كل يوم بالآلاف ، تجمع كل واحدة منها عشرات الصحاف ، الخ ...

أما جنود السلطان وفيالقه ، وجيوشه وكتائبه ، فمما « لو رمى بواحدة منها مناكب الأرض لم تثبت على قدم ! »

وناهيك بما أصاب هؤلاء الرواد من متع دونها ما وصف به نعيم أهل الجنة . وناهيك بما وقفوا عليه من أسرار السياسة ، سياسة الباب العالى التى سيدين لها العالم ، وتحشر بين يديها دول الأرض فى قريب من الزمان !

وقبل أن أعرض عليك نماذج من أحاديث أولئك الحكائين ، أرى لزاماً أن أقرر أن عيش الحر فى تلك البلاد ، فى عهد السلطان عبد الحميد ، لم يكن إليه سبيل بحال من الأحوال . وبحسب المرء

أن يرفع بصره إلى قصر من القصور السلطانية ، أو يحرك لسانه بكلمة واحدة فى السياسة ، أو يذكر الجيش ، ولو بالخير ، أو ينطق باسم عبد الحميد يريد به أى إنسان كان يحسبه شئ من هذا ونحوه لتخطفه « الخفية »[١] خطف العقبان . وسرعان ما تلقى به فى مطبق[٢] يظل يتخلج فى ظلامه الأيام الطوال ، حتى يأذن الله بطلعة المستنطق[٣] فاذا قضى أياماً أخر بين السين والجيم وقف المسكين على مفترق الخطوط ، فاما إطلاق ، وهذا هو الفوز الأكبر ، وإما أمر بترك البلاد إذا لم يكن من أهلها ، وهذا هو الفوز نمرة ٢ ، وإما ترك له فى السجن ونسيان ، حتى يأذن الله بالفرج بعد عام أو أعوام ، وإما نفى فى بعض قواصى الولايات ، وإما إلقاء فى البسفور ، حيث يفرح له فى بطون الحيتان !

والعجب أن عثمانياً لم تطل خلافته كما طالت خلافة عبد الحميد . والأعجب أن استبداداً وعسفاً وتخريباً لم يقس فى تلك المملكة كما قسا الاستبداد والعسف والتخريب فى عهد عبد الحميد . ولم يخرج عنها من ولاياتها ولم يقتطع من أملاكه كما خرج واقتطع فى عهد عبد الحميد . وأعجب الأعجب ، بعد هذا كله أن جمهرة المصريين لم يحبوا أحداً

---

(١) البوليس السرى وكانوا يدعون رئيسهم « سرخفيت » ، ولما أعلنت الحرية فى سنة ١٩٠٨ مزق الأهلون فهيم باشا « السرخفيت » تمزيقاً ، وألقوا بلحمه مزعا إلى الكلاب .

(٢) السجن تحت الأرض .

(٣) عند الاتراك : المحقق

كما أحبوا عبد الحميد ، ولم يدينوا بالولاء الحاد لانسان كما دانوا لعبد الحميد ، ولولا بقية تمسكهم من دين لعبدوه مع الله ، أو لعبدوه من دون الله ، والعياذ بالله ، وأستغفر الله العظيم !

وذلك الحب المتمكن من النفوس ، والمتغلغل فى القلوب يرجع إلى أسباب لا محل لبسطها فى هذا المقال . وكيفما كان الأمر ، فان السلطان عبد الحميد لقد بلغ من نفوس المصريين على الخصوص ، موضع التقديس والتنزيه ، حتى إذا لاح فى خاطر المرء لائح من الافكار لبعض حكمه وتصريفه ، أسرع فرده واستعاذ بالله من الشيطان الرجيم !

ولم يكن أعوان السلطان على إدارة الشؤون وتصريف الأمور هم الوكلاء (الوزراء) ولا من دونهم ممن يشغلون عليا المناصب فى الدولة . بل لقد كان الرأى قسمة بين السيد أبى الهدى الصيادى (من مشايخ الطرق الصوفية) ، والشيخ ظافر (شرحه) وعزت باشا العابد . ولا أدرى ماذا كان منصبه ، ولا تنس نفوذ الباش مصاحب (الباش أغا) أو كبير الخصيان فى قصر السلطان . أما آخر من يتحدث على أى أمر من الأمور ، أو يرجع إلى رأيه فى شأن من الشؤون فهو صاحب الفخامة الصدر الأعظم . وكان يتقدم بحكم البروتوكول على خديوى مصر فى تلك الأيام . ولهذا ظل المرحوم خليل رفعت باشا صدراً أعظم فى أكثر عهد السلطان عبد الحميد ، لأنه لم ينطق فى الشؤون العامة بكلمة واحدة !

وعلى الجملة ، فلقد أثمر هذا النظام كل ثمراته من إشاعة الدس

والكيد ، والسعاية والوقيعة ، والبطش والتنكيل ، و إهلاك أصحاب الكفايات أو إبعادهم ، وتقريب الجواسيس (١) ، و إطلاق أيديهم فى أرزاق الناس وأعمارهم . وأضحت الرشوة هى السبيل إلى نيل الحقوق و إلى غصب الحقوق على السواء . وتبع ذلك ما ينبغى أن يتبعه من جذب العقول ، وفقر الجيوب ، وتقلص الأفكار ، وضمور الحريات ؛ وأسرع الفساد إلى جميع المرافق ، ولحق الخراب عامة البلاد ، ولم يبق عامراً فى الدولة كلها إلا « الجيب الهمايونى » الذى تعصر له الرعية عصراً كل صباح ومساء ، فى ضرائب لا يتناولها الحصر ولا يدركها الاحصاء !

ولقد جرى الولاة فى ولاياتهم على هذه الأساليب ، وكذلك المتصرفون فى متصرفياتهم ، والسناجق فى سناجقهم ، وسائر العمال فى أعمالهم . وكيف لهم بالعيش إذا كانت وظائفهم وأرزاق من قبلهم من الجند تحبس عنهم الأشهر بل السنين ؟

وولى هذا ما يجب أن يليه من ضعف الدولة ووهنها ، وعجزها عن حماية أرضها ، وتمكين سلطانها فى ملكها ، فجعلت ولايتها تنسلخ منها واحدة فى إثر واحدة ، حتى بلغت عدة الولايات التى خرجت عن حكمها فى عهد السلطان عبد الحميد وحده قرابة الثلاثين !

ومع هذا وهذا وذلك يأبى الحكاءون إلا أن يشيدوا فى المجالس

---

(١) قدم السيد جمال الدين الأفغانى من الآستانة ، فقيل له كيف رأيت ؟ قال : رأيت نصف القوم جاسوساً على النصف الآخر .

بما أصابوا فى دار السعادة من المتاع وما تقلبت فيه أعطافهم من النعيم ، وما شهدوا من مجد الدولة وسلطانها ، وما اطلعوا عليه من أسباب قوتها وبأسها ، وما انتهى إلى علمهم من أسرار سياستها التى تعيى الأفكار وتعز على الأفهام ، وإن كانت ثمراتها الضخام ستجنى بعد أعوام أو بعد أيام !

ولقد استهلكت هذه المقدمات التى لا بد منها القدر المقسوم لهذا المقال ، فلنرجئ عرض نماذج الحكائين الاصطمبليين إلى يوم آخر إن شاء الله .

الحكاءون

٣

اصطمبول — ٢

كان بائع غرابيل يجول فى الطريق هاتفاً بغرابيله ، فدعا به رجل واستنزله حمله ، وسأله أن يحل وثاقه ، وينثر الغرابيل بين يديه نثراً ، ففعل الرجل ، وجعل « الزبون » يعجمها واحداً بعد واحد ، ويطيل النظر فى تفقدها ، ويكثر من جسها وغمزها ، حتى إذا أتى عليها جميعاً ، عاد إلى تفقدها وجسها وامتحانها ؛ وما زال يفعل ذلك ويكرره حتى استهلك فيه الساعات الطوال ، والرجل ينظر إليه فى غيظ وحنق ، لما أضاع من وقته وامتهن من سلعته ؛ حتى إذا انتهى اختياره إلى أصلبها خشباً ، وأجودها جلداً ، وألحمها نسجاً ، وأحكمها شداً ، قال له : بكم هذا الغربال يا شيخ ؟ فرأى الرجل أن يكافئ كل هذا العناء بالاغلاء فى الثمن ، فقال : بخمسة وعشرين قرشاً ! فقال له فى دعة وفتور : بثلاثة قروش تعريفة ! فثار ثائر الرجل ، وضرب الأرض باطار الغربال ، فوثب حتى صك ناصيته ، فأعاد الضربة بأشد مما ضرب فصك الغربال ناصيته بأشد مما صك ؛ وما برح الغيظ

يفعل به هذا ، والسابلة يجتمعون حوله من كل مذهب ليطالعوا هذا المشهد العجب ، حتى شدخ الغربال رأسه ، وأسال دمه ، فصاح فيهم : أيها الناس ! أمنتظرون أنتم حتى يقتلنى هذا الغربال ؟

ولا أكتمكم ، يا معشر القراء ، أن هذا القلم كثيراً ما ينشز علىّ ويجمع ، وتستصعب على سياسته وضبط عنانه . ولقد أسوقه فى طريق فيخالفنى إلى غيره . ولقد أرسم للمقال نهجاً محدوداً ، فيأبى إلا تعدى الحد والعدول إلى نهج آخر حتى ينتهى فى بعض الأحيان إلى الغاية التى يبغيها هو ، لا الغاية التى أطلبها أنا ؛ ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

ومن هذا البلاء الذى امتحنت به من هذا القلم الجامح المتمرد ، أننى بدأت مقال الحكائين على أن يجرى كله لحال أو قصر فى فنون من التسلية والتندر ، فى هذا الحر وهذه الحرب ، خيبة الله عليهما جميعاً ، وإن كنت لا أتزيد ولا أعدو الصدق أبداً . فاذا هو يتنظر لى بشبح عبد الحميد ، وحكم عبد الحميد ، وحكايات من كانوا ينتابون الآستانة فى عهد عبد الحميد ثم إذا هو يمعن فى هذا الطريق إمعاناً لم يدخل لى يوم بدأت الحديث فى تقدير ولا تصوير !

والآن كيف الرجوع إلى النهج الذى بدأنا بسلوكه ، وكان ، بحمد الله ، بين الحدود واضح الأعلام ؟

كيف لنا بهذا وقد التوت السبل ، وغشت السياسة وجه الطريق بما هو أحد من الحسك ومن شوك القتاد ؟

أفترانا تستعدى على جماح هذا القلم جمهرة القراء ، كما استعدى النظارة على غرباله صاحب الغرابيل ؟

أريد مفاكهة وتندراً ، ويأبى علىّ القلم إلا خوضاً فى ظلمات عبد الحميد ، وما كان يعانى من ظلمه رواد الأستانة من المصريين وغير المصريين ؟

اللهم إنه ليس من الرأى التصدى لكبحه وهو فى حمى ثورته ، بل الرأى كل الرأى فى مجاراته وإلانة قياده ، وإظهار المطاوعة له ، حتى تفطر حدته ، ويطامن من جماحه ؛ وحينئذ يتهيأ صرف عنانه إلى وضح الطريق . وكذلك نمضى فى المقال على اسم الله العلى العظيم .

ولقد حدثتك فى المقال السابق عن بعض ما جرى من المحن على دولة الخلافة باستبداد عبد الحميد ، وظلم عبد الحميد ، حتى لقد انسلخ عنها فى ذلك العهد الأشأم قرابة ثلاثين ولاية ، وإن شئت قلت ثلاثين مملكة :

وقلت لك إن المصريين لم يحبوا أحداً كما أحبوا عبد الحميد ، ولم يدينوا بالولاء لأحد كما دانوا لعبد الحميد ، حتى لقد خالط حبه اللحم ولصق بالعظم ، وجرى فى أعراقهم مجرى الدم . فلم تجر بسوء حكمه على الاسلام محنة ، إلا جعلوها موضع منة ، ولا دب إلى جسم الدولة بظلمه فساد إلا أحالوه على صلاح ؛ فاذا غم عليهم الأمر ولم يهدهم إلى الرأى طول التعسف فى التأويل والتعليل ، أحالوا الأمر إلى الحكم التى تعلو على أفهام العباد !

وإن من الانصاف أن نقرر أن أشد الناس كانوا استحماساً فى هذا الباب هم سلالة الترك المتمصرين . وكان زعيم هؤلاء جميعاً

شيخاً واسع الغنى يسكن فى بعض أطراف القاهرة ، ولا أسميه ولا أعين مسكنه ، لكيلا أدل عليه . رحمه الله وغفر لنا وله .

كان هذا الرجل أو هذا الزعيم العظيم ، حين أدركناه ، فى حدود السبعين . وكانت داره الواسعة مثابة القصاد ونجعة الرواد . يؤمها فى كل ليلة جماعات الظماء إلى أخبار الباب العالى ، وما عسى أن يكون قد أجد لدولة الاسلام من مفاخر ضخام !

فاذا كان عيد الجلوس السلطانى رصعت الدار بمصابيح تخطف الأبصار ، ووشيت بأذكى الورود وأنضر الأزهار ، وصدحت الموسيقات بأحلى الأنغام ، وقرب للفقراء أشهى الطعام من لحوم الأنعام ، ووقف البك بالباب يستقبل جماعات المهنئين الداعين لجلالة الخليفة بالبقاء على السنين حتى يربى عمره على المئين ، وغنى فى الليل أعلام المغنين ، ونثرت بدر الدراهم على جماهير المحتشدين ، من المعوزين وغير المعوزين !

وقلت إنه يقف بالباب فى تلقى الهناء من الوافدين ، وإنه ليكافئ هناءهم بالشكر والدعاء ، كما يصنع أى امرئ فى أسباب مسراته الخاصة وأمزاحه العائلية . وذلك لما يشعر به ، أو ما يريد أن يشعره الناس من أن له سهماً ، ولو ضئيلا ، من شؤون السلطان أو من شؤون الدولة ، يهئ له تقبل الهناء ، والأثابة عليه بالشكر والدعاء . وكيف لا وقد كثر كل حبه وولائه وإخلاصه على الياديشاه ، وهو عند الباب العالى مطلع الرأى ومتنزل السر ، على الرغم من بعد الديار ، وشط المزار !

ولا تظن أن هذا الرجل كان فى هذا الباب فذاً منقطع النظير

فى فتح داره لجماعات الاصطمباليين ، فلقد كان نظائره كثيرين . وإنما أفردناه بالذكر لأنه كان أكبرهم سناً ، وأبعدهم شهرة ، وأوسعهم غنى ، وأقدرهم على الوصف وتفخيم التصوير .

وبعد ، فما يكاد يخيم الفسق حتى تحتشد دار صاحبنا ودور أمثاله بالوافدين للاستخبار ، والاطلاع على ما أجد الباب العالى من جلائل الآثار !

واعلم أولا أن كل شئ يجرى على الدولة لا بد وأن يكون برأى السلطان وتدبيره ، ودهائه وجبروت حيلته ولو بدا لك فى هذا الأمر كارثة ، ورأيت منه مصيبة واقعة وبلية لاحقة . وهل بعد قوة السلطان قوة ، أو وراء دهائه دهاء ؟

ولعمرى ، ما جاءت البشرى بانسلاخ ولاية من تلك الولايات الثلاثين ، أو وقعت على الدولة بلية من إحدى الدول الغربية ، كما احتلت الجنود الفرنسية بعض جماركها أو تذعن لبعض المطالب ، ما حدث شئ من ذلك ونحوه ، إلا قال قائلهم : « دى سياسة افندم » ! فيزر صاحبه على إحدى عينيه ويهز رأسه ويقول : « دى سياسة كبير » فيصيح الثالث : « أمال أفندم — لازم يا ديشاه هو اللى عاوز كده . إذا كان هو مش عاوز ما كانش يحصل . إيش عرفنا إحنا ؟ دى سياسة فوق عقول ! »

وسرعان ما تشرق وجوه الجماعة ، ويتطارح الهناء وتتصافح الأيدى ، وتتضام الصدور إلى الصدور ، وتبسط الخدود لتحيات الثغور !

والآن وقد هدأت ثورة هذا القلم ، بما ناله من الجهد والتعب ، نستطيع بحمد الله ، أن نصرف عنانه إلى حيث نشاء ، فهلم إذاً إلى معاودة الحديث فى الحكائين والله المستعان : وإذا كنت سأقتصر على إيراد حكاية واحدة ، فلعلك واجد فيها أفخم وأضخم ، وأبلغ وأعظم ، من كل ما انبث وانبسط ، وشاع وذاع ، وملأ الطباق ، وسطع فى الآفاق ، على جميع ألسن الحكائين ، من يوم عبد الحميد إلى يوم الدين .

احتشد الجمع ، على العادة ، فى دار صاحبنا ، وجعلوا يتقاولون فى أمر الدولة ، وعظمة الدولة ، وقوة جيوش الدولة ، وسياسة عبد الحميد ، وشدة دهائه ، وبعيد مراميه الخ . . .

وبدا لبعض الحاضرين ، وكان مصرياً ، أن يسأل سؤالا ، فخاف وجبن . والسؤال لا غنى عنه ، ولا مفر من العلم بالجواب عليه ، فمط المسكين إلى الزعيم عنقه ، وقال : « ولكن بس ، بس ! » أما باقى الكلام فكان يضطرب فى حنجرته اضطراباً « لا يرتقى صدراً عنها ولايرد . » فقال له : « بس ماذا ؟ مالك لا تتكلم ؟ » فأعرض الرجل جفنيه ، وحد عزمه وقال ، وكان صوته هجس هاتف يجئ من وراء الأفق : « بس مسئلة الدونتمة[1] ، يعنى أن الدولة ليست معتنية بالدونتمة ! » وسرعان ما استلقى الزعيم على ظهره مقهقهاً وهو يقول فى نبرات مليئة بالتهكم والاستهزاء : «نعم ! معك الحق .

---

(١) الأسطول وكذلك يدعوه الترك والمتركون .

إن الدولة لاتعنى بأمر الدوننمة.» ثم اعتدل، وألبس وجهه ثوب الجد، وجعل يدير طرفه فى الحاضرين ، وتراه يتلفت ذات اليمين وذات الشمال ، ويرفع بصره إلى فوق وإلى تحت ، وإلى قدام وإلى وراء . ثم قال : « فيكم من يكتم السر ؟ » فأجابوا جميعاً فى نفس واحد : « فى بير » !

« إذن فاسمعوا : لقد زرت المابين ذات يوم ، وأبديت لفخامة الصدر الأعظم مثل هذه الملاحظة ، فأظهر الموافقة لى ، والندامة على تقصير الدولة فى أمر الدوننمة ، وغمز لى بعينه غمزة خفيت على جميع حاضرى المجلس . فلما هم الجميع بالانصراف ، ضغط على يدى واستبقانى . حتى إذا خلا له وجهى ، ولم يبق معنا أحد قال لى : « إذا انتصف الليل فامض إلى شارع كذا ، فاذا بلغت الموضع الفلانى فخذ على يمينك فى أول شارع ، ثم خذ على يسارك فى ثالث حارة ، ثم عد ثلاث حارات وادخل فى الرابعة ، وستلقى زقاقاً على يسارك ، فاسلكه حتى تنتهى إلى خربة على يمينك . وستجد على مدخل هذه الخربة رجلا شحاذاً رث الثياب ، مقنع الوجه ، فافعل ما يأمرك !

« ومضيت فى الميعاد وإذا الشحاذ فى الانتظار ، فما أن رآنى حتى أجال طرفه فى الأرض والسماء . ولما أمن عيون الأنس والجن ، ودابة الأرض ، وحدق الطير فى أوكارها ، أسرع إلى زاوية فى الخربة ، وظل يفحص عن الأرض إلى أن انكشف له غطاء من الحديد فرفعه ، ودفعه إلى ما دونه ، وتدلى ورائى . وأعاد الغطاء فوقه . وتدلينا فى سلم عددت له ١٢٧ درجة . ثم انتهينا إلى دهليز طويل ، سلكنا

منه إلى دهليز آخر أعرض وأطول ، وما زلنا ننعطف من دهليز إلى آخر ، حتى أفضت بنا خاتمة السعى إلى فضاء يزيد على التسعين ألف فدان ، وقد ازدحم « بالورش والترسخانات » العظيمة الهائلة التى لا نظير لها فى جميع الدنيا ، وإذا خلق من الناس لا يحصيهم إلا خالقهم .

« ويكشف الشحاذ النقاب عن وجهه فإذا هو صاحب الفخامة خليل رفعت باشا الصدر الأعظم بنفسه ! وإذا فى هذا العالم ثلاثون مليوناً من الصناع معهم نساؤهم وأولادهم (يولدوا أو يستولدوا) لا يرى أحد منهم صفحة السماء أبداً . وكلما أتموا بناء مدرعة ،أو نسافة أو (فرديت) ، أو خطاف (دردبور[1]) من شباك البحر (لا من شاف ، ولا من سمع) . حتى يأتى اليوم المعلوم ، وحينئذ تخرج الدونتمة للقضاء على أساطيل الدول جميعاً !

الله أكبر ! الله أكبر ! ما شاء الله ! ما شاء الله ! نصر الله السلطان ! آمين آمين !

وسلام على فلان بك فى الحكائين ورحمة الله عليهم أجمعين .

---

(١) دردب : كلمة عامية تقابل فى الفصحى : أزلق .

مع ذبابة

قال لى صاحبى فى مستهل حديثه ، ولقد رويت لقراء « الثقافة » أحاديث عن صاحبى هذا ، ولكننى لم أقل لهم من هو؟ ولا ما صفته ؟ ولم أكشف لهم عن أية خلة فيه ، ولم أشر إلى أى شئ يعطى القارئ ولو فكرة ضئيلة عنه ، حتى يحل أحاديثه من نفسه فى الزاوية التى تكافئها من التقدير . وفى الحق أننى ، فى هذا ، معذور ، فالرجل صديقى من عهد طويل ، وما نكاد نفترق إلا على نية لقاء . فليس من اليسير أن أهتف من صفته بما عسى أن يكره ، وكيفما كان الأمر ، فاننى أكتفى فى تقديمه اليوم ، بأنه رجل حاد الذكاء وحاد المزاج ، مرهف الحس ، دقيق الملاحظة ، سريع الخاطر ، حاضر الحكم على كل ما يسنح له من الأشياء ؛ وكثيراً ما يكون حكمه نقداً لاذعاً تدفعه ثورة النفس . وأنه بهذه الخلال ليشقى الشقاء كله ، ويتعب صاحبه التعب أجمعه !

يغضبه ويثير أتفه شئ يلحظه من الناس مما لا يبعث انتباهى ولا انتباهك ، ولو كان هذا الشئ مما لا يعنيه ولا يتصل به بأى حال . فاذا رأى مثلا بائعاً من هؤلاء الباعة الجوالين يحلف لمساومه بأنه باعه بأقل مما اشترى ، ثار ثائره ، وجعل يرغى ويزبد ، ويرثى

لحال الزمان من لؤم أبناء الزمان ! وإذا أصاب ثلاثة يقفون فى غير حاجة ، على الطوار (الرصيف) فيعوقون السابلة ، وقد يلجئون بعضهم إلى التدلى فى الشارع ، ليمضوا لطياتهم ، فيتعرضون بذلك لتلك الفواتك العابرة التى أصبح لا ينقطع لها فى طرق القاهرة مرد ؛ رأيته يقف بهم فيلومهم ويبكتهم ، ويضرب لهم أبلغ الأمثال على سوء عملهم ، وقلة ذوقهم ، وفداحة جنايتهم فى وقفتهم السمجة ، على من لا جناية لهم من الناس ، غير مبال بما يلقى من مثل أولئك الأرذال !

على أنه ، مع هذا ، طيب القلب ، صافى النفس ، لا يحتاج فى رده إلى الرضاء إلا إلى أيسر قدر من الاعتذار ، مهما يقع على شخصه هو من أسباب الاعنات والاغضاب ، وإن ليلة واحدة لكنيلة بأن تغسل صدره من كل ما أجن لامرئ من الحقد والاضطغان !

هذا صاحبى ، وبحسبك اليوم معرفة هذا القدر من خلاله . فلنمض فى حديثه على اسم الله .

زارنى ذات يوم من أيام هذا الأسبوع ، فكان أول ما لحظته منه اطمئنان الوجه ، ووداعة النفس ، ورفق الحديث ؛ وهذه أشياء عهدى بها منه أقل من القليل .

وسألته عن حاله ، كما يسأل الصديق عن حال الصديق . فقال بعد أن حمد الله وأثنى على جليل فضله : لقد خضت عشية أمس ساعات ثقالا جداً ، لقد غاظتنى وأبرمتنى ، وفرقت نفسى ، وأطارت لبى ، حتى جازت بى أقصى حدود الصبر ، وعصفت بكل ما يقدر للمرء

من الاحتمال ، فقلت له : « شنشنة أعرفها من أخزم » ، ولكن قل لى: كيف كان ذاك ؟

قال : استويت للعشاء ، وكنت شديد الجوع ، وبى من الشهوة للطعام مالا أجده فى أكثر الأيام ، وطعامى كما تعلم ، قل وكثر ، إنما يوضع بين يدى جملة لأصيب من أى ألوانه أشاء فى أية لحظة أشاء . وما كدت أسمى الله وأحور يدى إلى الصحفة بأول لقمة ، حتى رأيت ذباباً قد هوى إلى مهوى أصابعى من الصحفة ، نذيته ، فعاد لتوها إلى موضعه ، وجعل يلغ كما كان يلغ ، فعدت إلى زجره ، فعاد كذلك . فأدرت الصحفة لأصيب مما لم يصب ، فسرعان ما دنب إلى حيث أرسل يدى ، وأقبل من فوره على شأنه ، ما دفع إلا رجع ، ولا زجر إلا عاد ؛ فلم يسعنى إلا أن أرفع هذه الصحفة الملوثة الموبوءة ، وأنحيها بعيداً وأقرب غيرها ، وعوضى على الله . على أنه لم يعفها ولم يعفنى ؛ فلقد هبط منها مهبطه من أختها ، نأدرت الطبق كذلك ، فدار معه حتى استقر منه فى منحدر يدى . وكان الغيظ قد بلغ فى قصارى قصاراه ، نأهويت بكفى عليه لأقتله وأخلص من لؤمه وأذاه ، فتكسر الطبق شظايا ، وتناثر الطعام على الخوان ، وأصاب وجهى وثوبى منه رشاش ، أما الذباب فلم يكفه الافلات من هذه الضربة الساحقة ، بل لقد راح يمرع فى هذا الذى تطاير على الخوان ! فقمت عن المائدة وأنا أحلف بكل مؤثمة من الأيمان ألا أذوق فى لياتى أى طعام !

أويت إلى فراشى ، أرجو بهجعة خفيفة أن أستريح ولو من بعض

ما أجد . ولكن كيف لى بالنوم وقد قيل : « لا نوم لجائع » . ولو دار الأمر على الجوع وحده لهان الخطب ، فان وراء الجوع نار الغيظ وثورة الغضب ، وهذان وحدهما زعيمان بنفى المنام الليالى الطوال.

وأفكر ، وفيم لعمرى أفكر إلا فى الذباب ، ولؤم الذباب ، وتهافت الذباب ، وأذى الذباب ، وخطر الذباب ، وما يجلبه الذباب من علل وأسقام ، وأرزاء جسام !

وجعلت فى مطرحى ، أسائل نفسى ، وقبل كل شئ أنبهك ياصديقى إلى ما تعلم من أننى عظيم الايمان بالله تعالى ، وثيق الاعتقاد بظهر الغيب فى بالغ حكمته فى كل جليل ودقيق من خلقه .

رحت أسائل نفسى : ترى ما حكمة الله الحكيم فى بث هذا الذباب ، وهو على ما ترى لا يحمل إلا قذراً ، ولا يولى إلا أذى وضرراً ؟ ولكم يهدم ، بفرط تهافته ، الأعصاب ، ويشيع مالا يحصى من العلل والأوصاب ، ويبلغ وحده مالا تبلغ الحروب من أسباب الدمار والخراب ، ومع هذا لم يظهر العلم له أية ثمرة ولو دقت ، ولم يجل طول الزمان له منصفة ولو هانت . بل إنه لشر كله ، وأذى مستمر فى أوله وآخره ، وبلاء عظيم فى ظاهره وباطنه . لا يدع الانسان فى لحظة من نهار ، فى اطمئنان ولا قرار . وكلما زاده عن وجهه أو يده ، أو عن طعامه أو شرابه ، عاد من فوره ، فأثبت رجله حيث كانت ، ما تنحرف قيد ١/١٠٠ من الشعرة ، لا من وراء ولا من قدام ، ولا ذات اليمين ولا ذات الشمال . بحيث لو استعان المرء بأدق الآلات الهندسية والفلكية ما بلغ هذا المدى فى تحرير المكان . ولقد يبلغ

من شدة تهافته أن يقع فى الطعام أو الشراب ، فاذا ترك وشأنه مات من الاختناق ؛ بل إنه ، على حدة حسه ، ليقع فى فنجان القهوة ، وهى لم تزل تتنفس بالحر الشديد من البخار . وما أرى أنه خرج من هذه المنية الشنيعة بشئ إلا أنه أغثى نفسك ونغص عليك مزاجك !

وبعد ، فأنت خبير بما يحمل هذا الطائر اللئيم من ملايين المكروبات ، لا تفتأ تفرخ أشد العلل وأفتك الأوباء فى حين تعيى السلامة منه ، ويعجز الأمن من أذاه . فاذا زعمت أن من الفواتك ما يقتله ، فذلك بقدر ما تظل الأبواب والنوافذ محكمة الأغلاق ، حيث يغمر الغرفة ظلام ، ويدعو التنفس فى جوها إلى الاختناق حتى إذا فتحت النوافذ والأبواب لتجديد الهواء دخل من الذبان أكثر مما خرج ، وتطاير منها فى الغرفة أعظم مما هلك !

اللهم إن هذا بعض ما ابتلى الناس من الذباب من قديم الزمان أو من أول الزمان . فترى أيكشف العلم فيه مزية ، ويقع منه على منفعة تكافئ هذا القدر الهائل من الضرّ والفساد ؟

وجعل الذهن ، برغمى ، يدور فى هذا ملتمساً موطن الحكمة فى هذا الخلق الضار الشديد ، وكلما طلبت التفرج بالفكر فى شئ آخر ، رأيت الأمر يتعاصى علىّ ، فقد استغرق حديث الذباب كل تفكير ، وملك على الذهن جميع مذاهب التصور والتقدير !

وفيما أنا من ذلك ، إذ قرع مسمعى طنين ذباب ، ولكنه أشبه ما يكون ، فى عنفه وقوته ، بهمهمة فهد أو بزئير أسد . فحولت وجهى وأرسلت بصرى ، فاذا ذباب فى جرم الغراب ، ثم لم يرعنى إلا أن

جعل ينتفخ وينتفش حتى صار مثل الديك الرومى ، ثم ما زال ينتفخ وينتفش حتى صار فى حجم النعامة ، لولا أن جسمه كله كاس بالريش لا يعرى منه شئ ، ولولا أن رأسه موصول بما بين كتفيه لا يفصل بينهما عنق . فاذا حرك رأسه فمن أعلى إلى أسفل ثم من أسفل إلى أعلى ، كأنما وصل بين رأسه وكتفه بمفصلة ، ولولا أنه مزود فى مقدم صدره بخراطيم على حين ليست للنعامة خراطيم .

ويقبل هذا الذباب الضخم علىّ وهو يرفع رأسه ويخفضه ، فتداخلنى من الذعر ما أزاغ البصر ، وكاد يخلع شعبة من شعب القلب . فبادرنى بقوله فى لسان عربى صحيح : لن تراع ! لن تراع ! فان الشيطان إذا كان قد أزلق فكرك إلى هذا فانه ما زالت تعصمك قوة إيمانك . فقلت : الحمد لله رب العالمين . قال : فلو عملت بقول الله فى كتابه الكريم . « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله إنه سميع عليم ! » فقلت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم . قال : والآن فاسمع يا هذا : ما أشد ذهابكم ، يا بنى آدم ، بأنفسكم وافتتانكم بعقولكم ، وتتايهكم بهذا القدر الضئيل الذى تعلمون من ظاهر الحياة الدنيا «وما أوتيتم من العلم إلا قليلا .»

تتساءل يا هذا فى حكمة الله ، جل مجده ، فى خلق الذباب وبثه ، وتنكر ما يلون للناس من الأذى فى صحتهم وفى حياتهم ، وقد ذهب عنك أيها الأبله ، أن هذا الذى تنكر من فعل الذبان ، هو بعض حكمة الحكيم فى خلق الذبان . فلقد تعلم أنه لولا شيوع الأمراض والعلل ، لما مات أكثر من يموت من الناس فى كل

يوم وفى كل ساعة ، وإذاً لاطردت الزيادة فى عدتكم ، يا بنى آدم ، حتى تضيق بكم مساحة الأرض ، ويعجز بطنها وسائمتها عن مواتاتكم بما يكفى لبعض طعامكم وكسوتكم . فلا مفر لكم من التناحر والتقاتل فى التماس أسباب العيش ، حتى ليقتل الوالد ولده ، وتأكل الأم طفلها ، طوعاً لغريزة استبقاء الحياة . وكذلك لا يلبث العالم كله أن تسوده الفوضى وهى أهم عوامل الفناء . فالموت إذاً أيها الأبله ، هو أبلغ أسباب الحياة ! (١)

ثم إذا كنتم تنكرون ، أيها الأغفال ، ما ينشر الذباب فيكم من أسباب الأمراض والعلل ، وتتمنون على الحياة لو تعيشون الدهر فى صحة وعافية ، فمن أين ، لعمرى تعيش هذه الجيوش الجرارة من الأطباء والممرضين ، والممرضات ، وخدم العيادات والمستشفيات ، والصيدليين وعمال الصيدليات ، وأصحاب مصانع الأدوية والعاملين فيها ، ومنتجى المواد الأولية للعقاقير الطبية ، ومن وراء كل هؤلاء ممن يعولونهم ، ويعودون بهذا السعى على شملهم !

ثم لا تنس العاملين فى أسباب الموت من « الحانوتية » واللحادين (التربية) وباعة الأكفان ، وسواق عربات الموت ، وغير أولئك

---

(١) رحم الله المتنبى إذ يقول :

سبقنا إلى الدنيا فلو عاش أهلها
منعنا بها من جيئة وذهوب
تملكها الآتى تملك سالب
وفارقها الماضى فراق سليب

ممن لا يصيبون الأرزاق والأقوات إلا بفضل الموت والأموات !

وسكت برهة ، ثم قال : أفآمنت الآن أن ذباباً واحداً أجدى على العالم ، وأعود بالخير على نظامه منك ومن عشرة من أمثالك ؟

فقلت : آمنت بالله .

ثم لم يرعنى إلا أن أرى هذا الخلق الكبير ، جعل يصغر ويضمر ، حتى عاد ذباباً فى جرم سائر الذباب ، ثم طار فوقع على رميق عينى ، وجعل يفحصه برجله فحصاً غير رقيق . وما كدت أتهيأ للقيام ، حتى أدركت أننى كنت فى أحكم الأحلام !

وفرغ صاحبى من حديثه ، فقلت له : إذاً فقد آمنت بأنك فى هذه الحياة ، لا تساوى ذباباً ؟ قال : ولا عشر ذباب . وكذلك يكفينى الله شرور الغرور والافتتان ، وهما أشد مهالك الانسان .

فقلت : رحم الله امرأ عرف قدر نفسه .

عواطف

لم أعثر فى معجمات ، ولا فيما وقع لى من تعبيرات المتقدمين ، أنهم كانوا يطلقون كلمة « عاطفة — عواطف » على ما يطلقها عليه أهل هذا العصر الحديث ، وأعنى هذا الاطلاق العريض . فأصل العطف على وجه عام ، الالتفات . ومنه عطف إليه : مال ، وعطف الشئ : أماله وحناه . وتعطف عليه ، رق له و بره . وعطفت الناقة على ولدها : حنت ودر لبنها . ومن هذا المعنى ، فيما أظن ، جعلت هذه اللفظة تتسع فى إطلاقها حتى أصبحت تدل على نوازع النفس وأهواء القلب جميعاً . وكذلك تتطور الألفاظ مع اطراد الزمان ، حتى تكاد تلابس ، فى كل عصر ، معنى جديداً .

و إذا كانت لفظة « العواطف » تدل اليوم أكثر ما تدل على خوالج القلوب ولواعج الكبود من هوى وصبابة ، ووله لاحق ، وغمز على الحشا من عشق وتبريح غرام — فان هذه العواطف كثيراً ما يكون لها مثوى آخر غير القلوب وغير الكبود !

نعم ، لقد يكون لها مثوى آخر ، و إن كانت جمهرة الناس لم تأبه له ولم تلتفت إليه ، على أن من هذه العواطف ما هو أشد وأعنف ، ومنها ما هو أطغى وأجرف ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون !

لقد يروعك مرأى عاشق أدنفه الحب ، و برحت به الصبابة ، وقد هجره المحبوب قلى أو تجنباً ، فبات المسكين يساهر النجم ، ولايغمض جفنه عن تصفح وجه البدر ، لعله يصيب فيه بعض الغناء عن وجه الحبيب . ولعمرى ما هو بمغن عنه شيئاً ، و إلا فما هذه الأنفاس الحرى كأنما يتفرج بها من الحشا سعير بركان !

تشهد هذا المشهد ، فيخيل إليك أن هذا العاشق المسكين لا يرى الوردة وقد تخرجت من كمها ، والنرجسة وقد ضنت على ثدى أمها ، والنسيم وقد تلطف ، والجدول فى الروض ، وقد تعطف ، والأرج وقد شاع فى الجو وتردد . والهزار وقد شدا على الأيك وتغرد — اللهم إنه لا يشهد شيئاً من ذلك إلا ذكر به الحبيب . بل إنه ليرى هذا كله من بهاء الحبيب . ولولا أنه أعار الطبيعة كلها بعض جماله ما سطع فيها بدر ، ولا تأرج زهر ، ولا ضحكت الورود على الأغصان ، ولا صدحت الفواخت على الأفنان . كلا ! بل لشاه كل جميل ، ولاستحال دبوراً هذا النسيم العليل ! بل إنه لا يرى الحياة كلها إلا جحيما لا يطاق فيه العذاب ، ولا يرجى ، على الدهر ، منه ثواب .

لقد يروعك الأمر ، إذ تشهد هذه العواطف ، ويتعاظمك . وسرعان ما ترثى للقلب وترثى للكبد ، أو سرعان ما تغبط القلب والكبد ، إذ استأثرا من دون سائر الجوارح بجولان هذه العواطف التى تشقى المرء كل هذا الشقاء ، وتسعده أحياناً بجميع ذلك الهناء !

و إنى أؤكد أن من ظن هذا فقد ضل ضلالا بعيداً !

ولقد أسلفت عليك أن هناك ألواناً من العواطف تثوى إلى غير

الكبود وغير القلوب ، وأن منها ما هو أشد وأعنف ، ومنها ما هو أطغى على المرء وأجرف . وإنى ملم اليوم منها بثلاث فحسب : أولها عواطف البطن ، وثانيتها عواطف الغرام بالدرجة ، وهذه مقصورة علينا نحن معشر الموظفين الحكوميين دون سائر العالمين . أما ثالثتها فحب الشهرة وذهاب الصيت .

ولعلك تظن بى القصد إلى المزاح حين أزعم لك أن للبطن والدرجة والشهرة عواطف تجيش وتترقرق . بل إنى لأزيد أنها قد تبلغ من بعض الناس ما لم يبلغ غرام قيس بن الملوح بليلاه ، ولا هيام قيس ابن ذريح فى لبناه !

وأرجو ألا تظن أن هذا العاشق المهجور الذى طوى ليله وهو يساهر النجم ، ويتصفح صفحة البدر ، يذكر به الحبيب ، ويتمنى عليه اللقاء القريب ، بأشد حرقة ، ولا أعظم لوعة من هذا الذى يتشهى الأكلة الشهية ، ويتمنى الوجبة الجنية . وإنه ليتمثل صينية البطاطس ، وقد ديفت بالطماطم والبصل ، ورصعت بالثوم ترصيعاً . أما ما جللت به من مزع اللحم السمين ، فجدير أن يزدرد بالشمال وباليمين !

ولا تنس هذا الطاجن الذى حشى رزاً معالجاً بالزبد ، وقد دفن الحمام السمين فيه دفناً ، وظل فى الفرن الهادئ ساعات ، حتى نضجت قشرته ، واحمرت بشرته !

وأما صفحة الكنافة فما أروع دلالها ، وأحلى وصالها ، خصوصاً إذا فاضت سمناً وسكراً ، وحشيت زبيباً وفستقاً وصنوبراً ، وغشى وجهها

بالقشدة الخالصة . وما شاء الله ! وسبحان من أحسن وتفضل ، والشكر لمن أنعم وتطول .

اللهم إن هذا العاشق الصب ليقضى ليله الأطول فى تمثل هذا وتمنيه ، وله من شدة اللوعة زفير ، أحمى من نار السعير .

ولقد يعمد فى هيامه إلى باب الحاتى وكبرى المطاعم ، فيجد مايسطع من ريح القتار ، أزكى مما تجد أنت من النسيم جاز بالروضة المعطار !

أفليس هذا وأمثاله محبين عاشقين ، بل محبين والهين ، لا يفتأون يشكون لوعة البطون ، كما يشكو غيرهم لوعة الكبود ؟

أما حب الدرجة وما أدراك ما الدرجة ! الله أكبر ! هل سمعت بالسيل الجارف لا يصده حد ، ولا يثبت بين يديه سد ؟ وهل سمعت بالريح الصرصر العاتية ، تدمدم رائحة أو غادية ، فتمتلخ فى مغارسها الأشجار ، وتقتلع من مبانيها الأحجار ، وتأتى على كل قائم بالخراب والدمار !

هو كل شغل القلب ، أستغفر الله ! بل إنه لحب قد استولى على كل نوازع النفس ، وملك جميع أقطار الحس ، حتى لقد تقول للصب المتيم ، لقد اشتد البرد يا فلان فى هذه الأيام ، فيجيبك من فوره : يشاع أن « لجنة الترقيات » ستعقد فى صدر هذا الأسبوع المقبل !

ولقد تقول لمتيم آخر : ما أهول هذه الحرب وما أروع فظائعها . فلا يكون جوابه إلا : أيجوز أن يرقى فلان إلى الدرجة الرابعة ولما يمض عليه أكثر من خمس سنين فى الخامسة ، فى حين أننى سلخت فيها ثمانياً ؟

ولقد تقول لأحد هؤلاء المتيمين الواهين على الدرجة إن فلاناً

رجل فكه خاضر البديهة ، حسن الحديث . فيكون رده : لقد رقى إلى الدرجة الثالثة فى العام الماضى . وهكذا ! . . .

وماله لاتكون الدرجة كل شغله ، وماله لا يجعل فى الدرجة حديثه أجمعه . أليست الدرجة هى عينه التى بها ينظر ، وأذنه التى بها يسمع ، ورجله التى بها يسعى ، ويده التى يعالج بها ما تعالج أيدى الناس ؟

ولقد يكون العاشق المدنف من أصحاب القلم ، أو من المنتحلين لصناعة القلم ، فلا يستحى ، إذا لاح له شبح الدرجات ، من أن يكتب للناس : هل أدلكم على أكبر أديب وأعلم عالم؟ إنه والله للوزير القائم . ولقد عقدت إمارة البيان فأضحى ولا يتعلق بغباره فيها إنس ولا جان . وأما من يليه فى هذه الأمارة ، فهو ، ولا ريب ، سعادة وكيل الوزارة ! وهكذا كلما انصرف وزير ووكيل ، وخلفهما وزير ووكيل ، ولو تصرم الجيل بعد الجيل !

ولعمرى ، لو قد ذكر الله تعالى أحد هؤلاء بعض ذكره للدرجة ، لرقى فى الآخرة درجة الصديقين ، وتبوأ مجلسه معهم فى أعلى عليين !

وأما غرام الشهرة فشأنه أعجب وأغرب . وإن فى هؤلاء المتيمين بالشهرة وذهاب الصيت لمن يرجو أن تعيد الحكومة شنق المجرمين فى الميادين العامة ، حتى إذا عدم الوسيلة إلى بعد الصيت ، وسيرورة الذكر ادعى على نفسه جرماً لم يقترفه ، وقتلا عمداً لم يجترحه ، ليحظى بالشنق على أعين الآلاف المؤلفة من الرجال والنساء والأطفال.

ولهذا غرام الشهرة مذاهب وفنون لا يتسع للتصرف فيها هذا المقال . ولعل من أبدع وأروع ما قد رأينا فى الماضى القريب ، أن

خلقاً من الخلق مغرمون متيمون بأن يشتهروا بالعلم والأدب ، فى حين ليست لهم وسيلة إلى شهرة فى العلم والأدب ، ولا ينعتهم أحد بعلم ولا أدب . إذاً فليزجوا إلى الصحف المقال بعد المقال لا يضمن شيئاً إلا تزكية أنفسهم ، والاشادة بفضلهم ، والهتاف بتفردهم بالأدب والبيان ، و براعتهم فى هذا كل إنسان !

على أنه أيضاً لم تظهر لهم شهرة ، ولم يسر لهم ذكر ، ولم ينعتهم بشئ منه أحد . إذاً فكيف الحيلة، يا ناس ، فى إطفاء هذه اللوعة، و إيراد هذا الغرام ؟

لم يبق من سبيل إلى هواه إلا أن يهدم كل من يظن أنهم بسابقتهم وموضعهم من أهل الفضل والأدب ، يحولون بينه وبين مناه ، حتى يصبح و إياهم بدرجة سواء .

ولكن أنى له ذلك كذلك ، وليست له ساق يقوم عليها لهدم ولا لبناء ؟

يا سبحان الله ! وهل لا بد للتطاول من قدم وساق ؟ اللهم إن له فى النباتات المتسلقة كاللوف واللبلاب لمثلا جليلا ، و إذاً فليتسلق على كل مرتفع عال من الناس . فاذا عدم الهدم ، لخذلان يده ، لم يعدم أن يؤذن بعلمه وفضله ؛ وأدبه وبيانه ، من هذا المرتفع السابق !

أصدقت يا سيدى القارئ ، أن هناك عواطف ليس جماعها القلوب ولا الكبود ، وأن هناك غراماً غير ما يعهد الناس من الغرام له سعير أحمى من كل سعير وضرام ألذع من كل ضرام ؟

على ابراهيم فى المرآة

لا شك أن المعروف عن جماعات الأطباء أنهم أهل إيثار وطيب نفس بالتضحية ، بالغة ما بلغت ، فى سبيل الواجب . ولكننى أراهم اليوم قد ظهروا بأشد مظاهر الأثرة وحب الذات . فلقد أبوا إلا أن يستأثروا دون سائر الناس بالدعوة إلى تكريم الدكتور على باشا ابراهيم!

اللهم إن الطب من مزايا الدكتور على ابراهيم حقاً ، ولكنه ليس جميع مزاياه . فاذا كان للأطباء أن يحتفلوا به فى يوم من الستين فان من حق العلماء الموسرين من الثقافة الثمينة الغالية أن يحتفلوا به أيضاً ، كذلك من حق نقده الفنون الجميلة أن يفرض لهم نصيب جليل فى الاحتفال بزعيم الناقدين . ولا تنسوا الدعاة إلى الاصلاح الاجتماعى ، واخوانهم المضطلعين باثارة النشاط الاقتصادى ، فان هؤلاء وهؤلاء ينبغى أن يخصوا بحظ من هذا التكريم كبير . وكذلك القول فى العاملين على إشاعة البر والنجدة ، والاسراع إلى معونة الضعفاء العافين .

ولا ريب فى أن ممن ظلموا بهذه الأثرة ظلماً بيناً أصحاب البداءة من أولاد النكتة النافذة ؛ فما كان ينبغى أن يحرموا كذلك الاشتراك فى تكريم هذا الأستاذ العظيم !

وكيفما كان الأمر ، فانه إذا كان حضرات الأطباء قد أبوا إلا حباً للذات ، واستئثاراً بالدعوة إلى إقامة هذا الاحتفال ، فان الأعياد السبعينية والثمانينية وما يليها قادمة إن شاء الله ، وحينئذ تستطيع هذه الطوائف المحرومة المظلومة أن ترد لحضراتهم الجميل !

وبعد ، فلا ريب فى أن من ترامت إلى علمه عبقريات الدكتور على ابراهيم ، وآثاره الضخام فى الجراحة ، على وجه خاص ، ولم يكن قد رأى شخصه ، أو طالع اسمه ، لا يمكن أن يتصوره إلا عملاقاً ضخم الجسم فارع الطول ، لايحيط النظر بمساحته جملة ، ولكنه إنما يدركها بالتقسيط ولكن الله قادر على كل شئ ، قد أودع كل هذه الصروح الشمخرة من العبقريات فى هذا الجسم اللطيف الدقيق :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وما شاء الله كان !

سيداتى ، سادتى :

لا تنتظروا منى أن أبسط القول فى مواهب الدكتور على باشا ابراهيم ، فقد كفانى المؤونة فى هذا حضرات الخطباء والشعراء الكرام . ولكننى أذكر حادثة واحدة تدل على مبلغ دقة هذا الرجل العظيم ، وحرصه الغريب على أداء الواجب على وجهه ، دون أن يفلته منه مقدار خردلة واحدة :

ذلكم بأنا من بضع سنين كنا فى الإسكندرية . وفى ذات عشية تواعدنا على اللقاء فى الساعة السادسة من صباح اليوم التالى لنسافر

معاً إلى القاهرة على طريق الصحراء ، ليدرك امتحان كلية الطب وفى الوقت متسع كبير .

وسرنا ، على اسم الله ، فى سيارته طبعاً . وفى صحبتنا نجلاه الدكتوران العزيزان . وهنا لا أحد من ايراد هامش يسير من هوامش هذه الرحلة . وذلك أنه اعترضنا فى جهة الدخيلة منعرج كان يعالج بالرصف لأن أرضه قد هشت وأعلن مجتازوه بوجوب تخفف السيارات من راكبيها ، إلا أن يكون واحداً مثلا ، حتى لا تسيخ عجلاتها فى الرمال . ونظر بعضنا إلى بعض وتهيأنا للنزول . ولكن الأسطى عبده كان ، على ما يظهر ، قد سبق إلى زنة الحمل ، فمضى قدماً ولم يرعنا إلا أن يجوز بنا الرمل ، ولم تكد العجلات ترسم فيها أثراً !

ولقد حمدت الله على أننى كنت معهم . ولولا هذا لاستحالت السيارة بالوناً وطلبوا القاهرة بطريق الجو الذى يفزع الدكتور من ذكر اسمه ، كما أن لى الشرف بأن أشاطره الفزع من هذا الاسم الكريم !

بلغنا بسلامة الله محطة شل ، فأفطرنا وأخذنا قسطاً من الراحة ، ثم استأنفنا السير واندفعت السيارة فى طريقها ، حتى إذا صرنا على نحو ثلاثين كيلو متراً من مينا هاوس فوجئنا بما لم يدخل قط فى الحسبان . فلقد وقفت السيارة فجأة، وأومأ الأسطى عبده إلى دخان يتنفس به خزان الماء دليلا على أن المروحة قد تعطلت . فجعل الماء يغلى فيه غلياناً ، وتدلى فكشف الغطاء ، فاذا السير قد انقطع ،

فشمر للعلاج بوصله وسرعان ما استحال الدكتوران حسن وعلى ، ممرضين يسعفان الدكتور عبده بمطالبه فى إجراء هذه العملية . هذا يناوله المخراز ، وهذا يثقف له السلك المثنى . ثم واصلت السيارة سيرها حتى إذا قطعت كيلومتراً أو بعضه توقفت ثانياً ، فوصلوا السير من جديد ، ثم مضينا بضع مئات من الأمتار . ثم توقفت إذ لم يبق فى السير فضل لوصل ولا التئام ، فجاءوا بحبل من تلك الحبال التى شدت بها سلال الفاكهة ، وأقاموه مقام السير . ولكن لم تمض السيارة طويلا حتى استرخى الحبل ، وفتر عن إدارة المروحة . وتدلينا كلنا أيضاً لمعالجة الأرض والتماس الحيل .

وقف الدكتور ووقفت بجانبه ، وإذا كان لى أن ألاحظ فى هذه الوقفة شيئاً ، فذلكم أنى على طول عشرتى للدكتور على باشا ابراهيم ، فانى لم أره قط فى حالة عصبية كالحال التى كان فيها ذلك اليوم ، بل أنى لم أكد أراه فى حالة عصبية مطلقاً .

ساكت لا ينبس بكلمة واحدة ، وإن كانت شفتاه دائمتى الاختلاج إذ يده لا تفتأ تخرج الساعة من جيبه ثم تسرع إلى ردها إليه ، ثم تخرجها ثم تدسها . وكذلك ظلت هذه الحركة الميكانيكية السريعة بغير توقف ولا لبث ولا فتور .

على أنى شككت فى أن يكون هذا النظر الشارد كان يفضى إلى صاحبه بموضع العقرب من الساعات بل الدقائق ، وأذن الله وانطلقت بنا السيارة بفضل بعض الحيل الميكانيكية التى أحمد الله على أنى لا أعرف فيها شيئاً !

سيداتى ، سادتى :

إلى تلك الساعة ، كنت أعتقد أن الدكتور على باشا ابراهيم ذاهب ليشرف على شأن الامتحان فى كلية الطب ، ويتفقد النظام ، حتى أقنعنى ذلك الموقف بأنه إنما كان ذاهباً لأداء الامتحان ، وأن أخشى ما كان يخشاه أن يفوته الميعاد المقسوم لحضور الطلاب ، فلا يؤذن له بالدخول، فتفوت عليه سنة كاملة، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وانحدرنا إلى شارع الهرم ، حيث سيارات الأجرة لا يحصيها العدد ، ولا يقوى عليها العداد، ولكن الكيادة التى أبت إلا أن تحرُنَ فى جوف الصحراء ، أبت كذلك إلا أن تجمع فى الطريق العامر المأهول حتى كاد السائق لا يستطيع لعنانها ضبطاً !

إذاً لقد ضمن صاحبنا أن يصل إلى طلبته فى الميعاد بل قبل الميعاد . ولكن لقد غشى الجميع وجوم شديد ، وثنوا رقابهم حتى توسدت الذقون الصدور !

وهنا لاح لخاطرى شبح مرعب مهول : فصاحبى قادم على امتحان شاق عسير ، وكيف له بحسن الاجابة وهو على هذه الحال من ضيق الصدر ، وتكدر النفس ، وتفرق الفكر ؟ وبأى وجه تلقى مصر الأمم إذا رسب ، لا قدر الله ، على باشا ابراهيم فى الامتحان ، وعلى الخصوص إذا لم يكن له ملحق يتعوض به ما فات ؟

إذاً ، فلا بد لهذه الحال من إسعاف ، أو من إنقاذ الموقف كما يقولون !

ويعيننى الله على أن أرفع رأسى ، وأنادى بقوة لم تعهد لمثلى :

يا باشا . فرفع رأسه ورفع ولداه رأسيهما وقال فى فتور: ماذا ؟ فقلت له فى حدة المغيظ المحنق : أؤكد لك أننى لا أعود إلى ركوب سيارتك هذه إلا إذا جئتنى بشهادة حسن السير . . . والسلوك !

وسرى عنه ، وطابت نفسه ، وجعل يضحك أو يتضاحك ، إلى أن افترقنا . . .

ولا أدرى إذا كان نجح فى ذلك الامتحان أو لم ينجح ، على أن مما يطمئننى على نجاح صديقى أننى أرى جمهرة الأطباء العظام ، وعصارة أهل الفضل وأرباب الأخطار فى البلاد يحتفلون اليوم ببلوغه الستين .

ومما يزيدنى اطمئناناً أن الاحتفال معقود فى صميم الجامعة المصرية لا بجوار كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية !

سيداتى ، سادتى :

إن الله الذى حبا مصر بهذا النيل ، ووهبها هذا الجو الصافى الجميل ، وأطلع شمسها على الدوام آلقة وضية ، وجعل أرضها على طول الزمان ، منجبة سخية — لقد حباها كذلك بالدكتور على ابراهيم.

وإذا كان الدكتور على باشا ابراهيم إنساناً كسائر الناس فانه إنسان مخلد خلود هذه النعم الظاهرة . فهو مخلد فى آثاره ، مخلد فى بنيه وتلاميذه ، ثم فى أبنائهم وتلاميذهم . وهكذا إن شاء الله ، إلى يوم الدين ، وتبارك الله أحسن الخالقين !

ألقيت فى الاحتفال بالعيد الستينى .

أحب أولادى وأكرههم

١ — أحبهم

تدعونى « الهلال » إلى أن أنشئ فى هذا الموضوع مقالا ، كأن لى فى أمر الولد شأناً غير شأن الآباء جميعاً ، إذ شأنى فيه شأن الناس جميعاً ، اللهم إلا أن تكون قد تفضلت فنصبتنى نائباً عن كل والد فى الأرض ، من يوم كان الانسان إلى يوم يخلو وجه الأرض من هذا الانسان!

إذا كان الأمر هكذا ، فاننى باسم من تشرفت بالنيابة عنهم أقول إننى أحب أولادى أشد الحب ، وأعطف عليهم أبلغ العطف ، وأجد لهم من الرقة والرحمة والحنان مالا أجد لأحد فى العالمين . أحبهم لأننى أحب نفسى ، وهم بعض نفسى ، بل إنهم عندى لخير ما فى نفسى . هم عصارة قلبى وحشاشة نفس كبدى ، وأجمل ما يترقرق فى صدرى من منى وآمال ، وأبهج ما يطوف برأسى من حلم وخيال ، وقد تجسد كل أولئك أناسىّ تغدو على الأرض وتروح !

وإننى لأرى أولادى إذا حضروا ، وأذكرهم إذا غابوا ، فأجد من اللذة والسعادة والمتاع ، مالا تعد له كل ما فى هذه الدنيا من لذة وسعادة ومتاع !

أحبهم لأننى أحب نفسى ، وأتمنى لو يكتب لها الخلود فى هذه

الدنيا ، وإذ كان الموت حقيقة لا مناص منها أبداً ، فأولادى هم واصلو حياتى ، ومطيلو أجلى ، ومادّو ذكرى ، والمثبتون ، على الزمان ، لاسمى .

أحبهم لأنهم أول من يعيننى فى ضعفى ، ويسرع إلى الاستجابة لى فى شدتى ، ويرفه عنى فى شيخوختى ، ويواسينى فى علتى ، ويتلقى فى العزاء إذا هم القضاء بين الزفرة والبكاء .

أحبهم لأن اسمى ، من يوم أموت ، لا يرد على خاطر أحدهم ، أو يجرى بسمعه على أى لسان ، إلا بادر فسأل الله لى الرحمة وإسكانى أعلى الجنان .

وولد لى ولد ، وكان عندنا بواب أربت سنه على المائة ، فلما لقينى، وقد انتهى إليه الخبر كانت دعوته لى : « الله يبقيه حتى يحل عقدة كفنك ! » ووالله ما دعى لى بدعوة كانت أبرد على كبدى ، ولا أحلى موقعاً فى نفسى من هذه الدعوة . ويا ليتها قد أجيبت ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

ولقد قال بعض السابقين إن القرآن الكريم على كثرة ما أوصى الولد بالوالدين ، وأمره بشدة البر بهما ، والعطف عليهما ، والطاعة لهما ، لم يوص الوالد بشئ من هذا للولد ولا مرة واحدة ، وذلك بأن الوالد غير محتاج إلى هذه الوصية أبداً، فالانسان يحب ولده كما يحب نفسه ، بل لقد يؤثره فى أكثر الأحيان ، على نفسه .

قال زيد بن على بن الحسين لابنه يحي رضى الله عنهم : إن الله لم يرضك لى فأوصاك بى ، ورضينى لك فلم يوصنى بك .

الوالد يسعى فى الحياة ويجهد ويكد ، ليستريح الولد ويسعد وينعم . وإذا ألمت بالولد وعكة ، استحالت فى قلب الوالد علة . وإذا ضربته العلة ، مات أبوه كل يوم عشرين موتة ، ضارعاً إلى الله فى صدق وإخلاص أن يحول ما بولده إليه إذا لم يكن من الفدية مناص !

ولقد أرى الصغير صحيحاً معافى ، ما به أثر لجهد أو وعك ، ولكن نفسى لا تستريح إلا إذا أكثرت من حبه ، وعد نبضات عرقه . ولقد يخرج إلى الطريق لبعض شأنه ، فيمثل لى الشيطان اللئيم مكروهاً أصابه ، فأحس قلبي يتمشى فى صدرى .

وأخيراً ، فاننا معشر الناس ، مهما تصف نفوسنا ، وتطب قلوبنا ، ونترك من خلة الأثرة فينا ، ونرض أخلاقنا على وصاة الدين بأن نحب لاخواننا ما نحب لأنفسنا — إننا مهما نبلغ هذه المنزلة الرفيعة من الفضائل ، لا نستطيع أن نحب لغيرنا أكثر مما نحب لأنفسنا ، اللهم إلا أن يكون الولد . ومما يحسن أن يذكر فى هذا المقام أنه مما جاء فى القرآن الكريم ترغيباً فى الايمان وتحبيباً فيه إلى القلوب ، قول الله جل مجده :

« والَّذِينَ آمَنوا واتَّبَعتْهم ذرِّيَّتُهُم بإيمانٍ ألحقْنا بِهِمْ ذرِّيَّتَهُم ، وما أَلَتْنَاهُم (١) مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شيْءٍ . » (٢)

---

(١) التاهم : انقصناهم . (٢) سورة الطور .

وقال تعالى ذكره فى الحض على التقوى والتخويف من معصية الله ، والتحذير من مجانبة العدل والصواب :

« ولْيَخْشَ الَّذينَ لوْ تَرَكوا منْ خلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافوا عَلَيْهِمْ ، فلْيَتَّقوا اللهَ وليَقولوا قوْلاً سَديداً . »(١)

وقد رأيت كيف أن الله تعالى فى الآيتين الكريمتين قد رغب بمحبة الولد وأرهب ، وبغض بالخوف عليهم وحبب .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ريح الولد من ريح الجنة » . وقال لأحد ابنى بنته : « إنكم لتجبنون ، وإنكم لتبخلون ، وإنكم لمن ريحان الله » . وورد أنه حين جاءته البشرى بمولد فاطمة رضى الله عنها قال : « ريحانة أشمها ورزقها على الله » .

ودخل عمرو بن العاص على معاوية ، وبين يديه بنته عائشة ، فقال : « من هذه ؟ » فقال : « هذه تفاحة القلب . »

وقيل لبعضهم : « أى ولديك أحب إليك ؟ » فقال : « هما منى بمنزلة السمع والبصر ! »

وكان عبد الله بن عمر يذهب بولده سالم كل مذهب ، فلامه الناس فيه فقال :

يديروننى عن سالم وأديرهم وجلدة بين العين والأنف سالم

---

(١) المراد بالقول السديد هنا هو ما ذهب إليه بعض المفسرين : مخالفة العدل والصواب . سورة النساء .

ومن أحسن ما قال الشعراء فى حب الولد ، قول أعرابى وهو يرقص ولده :

أحبــه حب الشحيح ماله قد كان ذاق الفقر ثم ناله
إذا يريد بذله بداله

وقول أعرابية :

يا حبــذا ريح الولــد ريح الخزامى بالبلد[1]

وقول أعشى سليم :

نفسى فداؤك من وافــد إذا ما البيوت لبسن الجديدا
كفيت الذى كنت أرجى لــه فصرت أباً لى وصرت الوليدا

وهذه الأبيات المنسوبة إلى حطان بن المعلى :

لولا بنيات كزغب القطا[2] حططن من بعض إلى بعض
لكان لى مضطرب واسـع فى الأرض ذات الطول والعرض
وإنمـا أولادنا بيننـا أكبادنا تمشى على الأرض
لو هبت الريح على بعضهم لامتنعت عينى من الغمض

---

(١) الخزامى بضم الخاء وفتح الميم : نبت زهرة من أطيب الازهار .
(٢) الزغب بضم الزاى وإسكان الغين ، جمع : أزغب وهو فرخ القطا . والقطا جمع قطاة طائر فى حجم الحمام .

وقول بعضهم :

لقد زاد الحياة إلىّ حباً بناتى إنهن من الضعاف
مخافة أن يرين البؤس بعدى وأن يشربن رنقاً[١] بعد صاف
وأن يعرين إن كسى الجوارى فتنبو العين عن كرم عجاف[٢]

وأخيراً قول أعرابى يرثى ابنته :

يا شفقة النفس إن النفس والهة حرى عليك ودمع العين منسجم
قد كنت أخشى عليها أن تقدمنى إلى الحمام فيبدى وجهها العدم[٣]
فالآن نمت فلا هم يؤرقنى تهدء العيون إذا ما أودت الحرم

وبعد ، فهذا ما يملك قلبى من الترجمة عن بعض حب الولد ، وإن مما يتدسى من العواطف فى أطواء الجنان مالا يستطيع أن يبلغه القلم أو اللسان ! وذلك غير ما استعنت به من أقوال صدر من أعلام البيان ، وعلى رأسهم سيد الأنام . عليه الصلاة والسلام .

ب — أكرههم

نعم ! وأكرههم بقدر ما أحبهم . أكرههم لأنهم لو لم يكونوا ما جهدت هذا الجهد فى السعى عليهم ، ولا تعنيت هذا العناء فى

---

(١) الرنق الماء الكدر .
(٢) كرم : كريمات وصفا بالمصدر للمبالغة . عجاف : مهزولات .
(٣) يريد تعرضها من الفاقة لسؤال الناس .

تربيتهم والترفيه عنهم ، بلى لبقى لى فضل أتمتع به فى الحياة وأنعم .

أكرههم لأنهم لا يجزون ، من العطف علىّ والرقة لى ، ولو بنسبة واحد فى المائة من عطفى عليهم ورقتى لهم .

أكرههم لأننى إن استنظرتهم لم يصبروا ، وإذا واتيتهم لم يشكروا.

أكرههم لأنهم قد يدفعوننى إلى سوء الخلق، والتحيف من المروءة. وحسبى فى هذا قول النبى صلى الله عليه وسلم : « إن الولد مبخلة مجبنة . »

أكرههم لما يحز من الآلام فى قلبى كلما شكا أحدهم أو ألمت به علة ، فكيف بما هو أكثر من ذلك مما يطير اللب ، ويخلع شعب القلب ، والعياذ بالله !

أكرههم لكثرة ما ألهب الذهن بطول التفكير فى حاضرهم ، وما يغرى القلب من الاشفاق عليهم فى مستقبلهم .

أكرههم لأنهم كثيراً ما يتعذرون على نصحى ، ويخالفوننى إلى بعض ما أنهاهم عنه ، مما يؤذيهم ولا يجديهم ، ويضرهم ولا ينفعهم . ويبادوننى بالغيظ والحقد إذا قمت لتأديبهم وبسط العقوبة الحق عليهم .

وبعد ، نأرجو إذا حققت النظر فيما قلت ، أن تستيقن أننى لا أكره ولدى كل هذا الكره ، إلا لأننى أحبهم كل هذا الحب .

الشحاذون المودرن

قيل ، والعهدة على الراوى ، إن مركباً اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، فجعلت تتقاذفه الأمواج ، وهو يتمايل ذات اليمين وذات الشمال ، ويغترف من ماء اللج ما يثقله ، حتى لم يشك السفر فى أنه ، لا محالة ، غارق بهم . فراحوا يعجون بالدعاء إلى الله تعالى ، ويسألونه النجاة من هذا الهلاك . وكان أشدهم اجتهاداً فى الدعاء ، والضراعة والابتهال ، رجل يقول فى ابتهاله : يارب ، ماذا عسى لو هلكت أن يكون مصير زوجتى وأولادى السبعة ، وليس فيهم من يتكسب ، ولا من بلغ سن التكسب ؟ ثم ماذا عسى أن يكون مصير أختى المطلقة وولديها الصغيرين ؟ ثم من ذا الذى يعول أختى الأرملة وأولادها الأربعة ، وأنا أحمل الجميع ، لأنه ليس فيهم من يستطيع أن يعود على الشمل ولو بدرهم واحد ؟

أنا لاتعنينى الحياة ، ولكن كيف الحيلة بعد موتى ، فى كل هؤلاء ؟

وما برح يرفع الصوت بهذه الضراعات حتى كاد يشغل سائر السفر بشأنه عن شأنهم ، وحتى كادت تذوب كبودهم من الرقة لحال عياله ، وسائر من يعول من آله . ويشاء الله أن تهدأ الريح ، ويسكن الموج ، ويسكن وجه الماء ، وتبلغ السفينة الشاطئ بسلام .

وما كادت قدم هذا الرجل تطأ الأرض حتى صاح : « والله العظيم، ما كانت لى قط زوجة ولا ولد ؛ ولا لى أخت أرملة ولا مطلقة ، وما علت أحداً فى الحياة غير نفسى » ، وخيبة الله على الجاهل الأحمق المأفون !

ولقد سبق لى من بضع سنين أن أجريت كلاما فى الرديو ، فى الشحاذين التقليديين ، واستنظرت السامعين الحديث فى الشحاذين المحدثين (المودرن) .

وإذ كانت عدة هؤلاء تزداد فى هذه الأيام بنسبة هائلة ، وأساليبهم فى الكذبة تتنوع وتتلون ، فقد حق علينا أن نلم بحديثهم فى مقال .

على أننا قبل أن ندخل فى هذا ، نرى من الخير أيضاً أن نطوف ببعض القول فى الشحاذين التقليديين ، وقد كادوا ينقرضون ويخلو وجه المدن الكبيرة منهم ، حتى يخلو على الناشئ ، على وجه خاص ، صورتين واضحتين للعهدين ، يستطيع بهما المقارنة بين الفنين : القديم والحديث ؛ وليقدروا مبلغ التطور العظيم فى أسلوب الشحاذة . هذا التطور الذى أصبح يكافئ ، بحق ، سائر نهضاتنا العظام !

كان الشحاذون ، ولا زالت منهم بقية قليلة ، يعتمدون فى المسئلة على إلحاح الجوع ، والعجز عن السعى والعود على الشمل ، بألوان من الأمراض والأسقام ، والنقص فى الخلقة ، والآفات المقعدة للمرء عن السعى والحركة فى أسباب الرزق ، فكان دعاؤهم فى الطرق ، وعلى أبواب الأضرحة ، وفى الجبانات فى الجمع والمواسم من نحو :

اللقم تمنع النقم ! هنيئاً لك يا فاعل الخير ! عشا الغلابة عليك يارب ! سيد كريم أو ست كريمة تحنّ على العاجز يا محسنين ! الخ . . .

ولا جدال فى أن دعوى الجوع والعجز عن الرفق بالبدن فى سبيل الرزق ، تحتاج إلى اصطناع ما يثبتها من بلى الثوب وبلى الجسم . وقد تعصب العينان لوشك ذهاب البصر بالرمد ، وقد يظهر النقص فى الخلقة بفقد الذراع الأيمن ، أو فقد أحد الساقين ، أو فقدهما جميعاً ، فلا يسع الشحاذ المسكين إلا أن يزحف على الأرض زحفاً . فاذا لم يكن المولى جلت قدرته قد من عليه بهذه النعمة ، أو تلك ، مضى إلى رجل إخصائى كان مثواه فى بولاق ، وكانوا يدعونه الربيط فاذا كتب لك ، أو كتب عليك أن تجوز بدكانه فى الصباح الباكر ، رأيت خلقاً مزدحمين ببابه ، هذا يطلبه ليربط ساقه ربط العرج ، أو ساقية ربطة الكساح ، وهذا ليثنى ذراعه حتى لا يشك رائيه فى أنه قد فقد الذراع . وهذا ليشد له بعض جسده ويرخى منه بعضاً ، فهو ومن ضربه الفالج وأبطل نصفه بمنظر سواء . وهكذا !

وأنت خبير بأنه إذا كانت الأسقام والعلل والنقص الطارئ على الخلقة هى رأس مال هؤلاء القوم ، ووسيلتهم إلى الرزق ، بل إلى الجمع والادخار ، وإحراز الغنى ، وإدراك اليسار ، قدرت مبلغ تحاسدهم على العلل والآفات . حتى لتسمع من بعضهم إذا غبط آخر : « اللى بلاه يبلينا يا سيدى ! » وتسمع من غيره وقد أخذته الموجدة على غيره : « بيتكبر على إيه ، هو ما حدش انشل إلا هوه ؟ آدر ربنا يحرمه من الشلل فى طرفة عين ، ويشمت فيه العدو ! »

هذا ، بالاختصار كان سبيل الشحاذين القدامى ، أو الشحاذين التقليديين ، وتلك كانت وسيلتهم فى فنهم ، وسعيهم فى الرزق وجمع المال . أما الآن ، وفى عصر النهضة ، فمن النادر جداً أن تسمع مثل : اللقم تمنع النقم الخ . . . ، أو تسمع : رغيف عيش وصحن طبيخ ! أو تسمع : عشا العاجز عليك يا رب . . . ومن النادر جداً أن تسمع مثل هذا أو ذلك . فاذا قدر لك أن تسمعه ففى الأزقة والدروب التى لا تسلكها عين البوليس ، ولا تقع الأصوات منها لسمعه ، وإلا لكان ، لا سمح الله ، فى الملجأ الكافل المثوى والمأكل والملبس متسع للجميع !

وإذا كان شحاذو الأمس لا يظهرون إلا فى بلى الثوب وبلى الجسم ، فشحاذو اليوم لا يظهرون إلا فى نضارة الشباب ، وبضاضة الأهاب ، وأناقة الثياب ، هم « ذوات » قد انحدرت النعمة عنهم . أو أنهم ما برحوا يتقلبون فى النعمة ، ولكن كرثهم من الطوارئ العاجلة ما أحوجهم إلى المعونة العاجلة . وأمثال هؤلاء لا يسألون رغيفاً ولا « صحن طبيخ » حاشا لله ! إنما يسألون نقوداً ، ونقوداً قد تكون فى بعض الأحيان كثيرة . وماذا لعمرى يجدى الرغيف على من هبط القاهرة من الاسكندرية مثلا، واستل الطرارون (النشالون) كيس نقوده . وماذا يغنى صحن الطبيخ من مات عنده ميت لا يجد ما يجهزه به ويحمله إلى مرقده فى مقبره ؟ وماذا ينفع هذا أو هذا فى إكمال قسط المدرسة وقد حل، وأوشكت إدارتها أن تطرد الولد طرداً ، وتدعه عن طلب العلم دعاً ؟ ثم ماذا يفيد هذا أو هذا فى معونة

مدرسة تعلم اليتامى وأبناء الفقراء بالمجان ، ما تقتضيهم على التعليم والطعام قرشاً؟ وهكذا ! . . .

وهؤلاء لا يلقون الناس ، بالضرورة ، فى الثوب الخلق ، ولا بالوجه الشائه ، ولا بالجلد المتقيح ، بل إنه كلما عظمت أناقتهم ، وجمل سمتهم ، ونضر خلقهم ، كانوا أدنى إلى الصدق فى المسئلة ، وأدر لعطف المسئول ، ولا يذهب عنك أنه قد ورد فى الأثر : « أعطوا السائل ولو جاء على فرس » .

وهؤلاء كذلك لا يتسكعون فى الأزقة ، ولا يزحفون فى الدروب ، لأن سكانها لا يجودون إلا باللقمة ، ولا يخرجون للكشكول السائل إلا فضالة الطعام . وذلك عهد قد مضى ، بحمد الله ، وانقضى ؛ بل لا تراهم إلا منخطرين فى أغلى الشوارع وأحفلها بعلية الناس .

وكثرة هؤلاء لا يتعبون أنفسهم فى طلب الزبائن والاختلاف إليهم فى دورهم ، بل إنهم ليرتصدون لهم فى المقاهى أوعلى لقم الطريق ، حتى إذا جاز الزبون بهم دعوه كما تدعوا بائع التفاح ، أو الخيار ، أو بائع الفجل ، أو غيرهم من هؤلاء الباعة المترفقين بأبدانهم السريحة سواء بسواء !

ومن هؤلاء من يعترضك فى الطريق ، ولا يستحى من أن يقول لك : « والله أنت ابن حلال لقد قضيت أكثر من ثلاثة أشهر فى البحث عنك ، وهأنذا قد أصبتك ، والحمد لله! » ثم يفضى إليك بالمسئلة . وثلاثة أشهر وهو يبحث عنك ولا يصيبك ، حتى أذنت المصادفة وحدها باللقاء ! ولا والله ما زاد على أن جعلك متشرداً ليس لك عمل ولا لك

محل إقامة . أو أنك فار من وجه العدالة ، أو أنك هارب من اللومان والعياذ بالله !

ولقد يقع أن يعتريك أحد هؤلاء الشحاذين «المودرن» فى دارك ، أو فى مثوى عملك ، أو فى المقهى ، إذا كنت ممن يثوون إلى المقاهى ، وقد بسط يده وفيها حفنة من الدراهم ، ويباديك بأن ما فى يده هو أقصى ما فى جهده من قسط المدرسة ، وأنت أبر وأكرم من أن تدع الولد يطرد من المدرسة ويحرم نعمة العلم فى شئ يسير لا يضرك ولا يتحيف مما أفاء الله عليك من النعم !

ومن أظرف ما سمعت ، والعهدة على الراوى ، أن هذا الشحاذ الغيران على تعليم ولده وتثقيفه قد لا تكون فى يده هذه المصيدة ، وأعنى بها المائة والخمسين قرشاً ، والمائة والسبعين التى تقتنص باقى القسط فيستعيرها من بعض رصفائه ، كما كان فساد أولاد البلد يستعرن من الجارة الغربال والمعجن (ماجور العجين) على أن يرد إلى أصحابه بعد قضاء الحاجة منه !

ولقد حدثنى من لا أشك فى خبره ، أنه كان ذات يوم ساعياً مجداً فى الطريق ، فلحمه رجل من هؤلاء يعرفه فركض خلفه حتى أدركه ، وحلف له بكل محرجة من الايمان أنه قد مضى عليه وزوجه وأولاده الخمسة ستة أيام ما ذاق أحد منهم لقمة واحدة ، فقطب صاحبى وجهه واصطنع الجد ، وقال فى حدة وعنف : اسمع يا هذا ! إننى إذا أطعمتك وأهلك وولدك أكون أكبر مجرم فى العالم . فقال له الرجل : وكيف ذلك ؟ قال : أنت تعلم أننى لن أعولكم أبد الدهر ، وكل ما يسعنى

هو أن أمدكم بثمن وجبة أو وجبتين . قال الرجل : ولسنا نطمع فى أكثر من هذا . فقال صاحبى : أبعد أن عانيتم فى طريق الموت جوعاً ما عانيتم ، حتى لم يبق بينكم وبينه إلا ساعات معدودة تبلغكم نهايتها الراحة الكبرى من هذه الحياة الأليمة ، أردكم إلى الحياة ثانياً لتعانوا فى طريق الموت ما عانيتم ، وتعاودوا هذه الآلام التى جازت بكم ؟ أفصدقت أننى إن فعلت أكون أكبر مجرم فى العالم !

ومن أعجب ما يذكر فى هذا الباب ، أنه فى إحدى العشايا من الأسبوع الماضى ، قد اعترضنى فى بعض الطريق رجل لا يخلو سمته من تجمل ، وثيابه من تأنق ، وحلف لى بكل مؤثمة من الايمان ، أنه قد احتسب ولده فى الصباح الباكر ، ولا يزال مسجى فى البيت لأنه لم يجد نفقة تجهيزه ودفنه . وأسرع ، تأكيداً لقوله ، فدس فى يدى ورقة ، فاذا هى ترخيص بدفن «فلان» ولم يرعنى إلا أن تاريخ هذا الترخيص يرجع إلى أكثر من ستة أشهر !

حقاً لقد راعنى وهالنى ، وكاد يذيب كبدى أن تظل جثة هذا الغلام المسكين رهن البيت هذه المدة الطويلة . ومن يدرى فعلها تظل كذلك مدة أطول ؟ وانطلقت لوجهى وأنا ألعن بلسانى وقلبى قسوة هذا الانسان ، حتى على الأموات ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

وبعد ، فاننى الآن أستطيع ، بدورى ، أن أحلف فى غير إثم

ولا حرج على أنه ما قدم قادم من الاسكندرية فاستل الطارون كيس نقوده ، ولا كان ولد فى المدرسة حل القسط من نفقات تعليمه ، ولا قامت مدرسة تعلم اليتامى وأبناء الفقراء بالمجان أو بغير المجان ، ولا كان هناك زوجة ولا خمسة أولاد جياع أو غير جياع ، ولا ولد فى الدار ميت ولا من الأحياء الخ . . . ؛ إن هى إلا شهوة التبطل والعيش ، و إصابة اللذائذ ، و إدخال المرح على النفس بفنون المكيفات وكل أولئك على حساب العاملين ، وقد يكون فيهم العليل المكدود ، وقد يكون فيهم من يعنيه و يرهقه السعى على الأهل والولد ، وقد يكون فيهم من يجهده المعروف بصلة المحتاج من ذوى القربى ، أو المسكين حقاً ، أو اليتيم المحروم !

فعليكم ، أيها العاملون أن تضاعفوا السعى ، مهما يجهدكم السعى ، وأن تقبضوا أيديكم عن الانفاق على الأهل والولد ، وألا تبسطوها للمحتاجين من ذوى القربى أو تمدوها بالمعروف لليتيم المحروم . و إن كل ما تجمعونه بالسعى والكد ، ينبغى أن تحفظوه فى أيديكم عامة نهاركم وصدراً من ليلكم ، حتى إذا أوقعت المصادفة على أحدكم عين شرخ من هؤلاء المتبطلين أسرع فدفعه إليه غير مأجور ولا مشكور !

الكذب الفنى

لا شك فى أن الكذب يعد من الرذائل فى كل زمان وفى كل مكان بل لا شك فى أنه من أخبث الرذائل جميعاً ، بل لا غرو على من يذهب إلى أنه أخبث الرذائل جميعاً .

ألست أسوق هذا الحديث درساً فى الأخلاق ، فأشرح مزايا الصدق ومحاسنه ، وأورد متابع الكذب ومآثمه ، فذلك أمر مفروغ منه من الأزمان الطوال .

و إنما أريد أن أتحدث فى هذا حديثاً يسيراً لعله يجدى فيما قصدت إليه بانشاء هذا المقال .

وبعد ، فأنت خبير بأن من يأخذ نفسه بفضيلة الصدق ويطبع عليها لسانه ، تراه ، يتأثم من مقارفة الكثير من الرذائل ، ويتحرج من إتيان ما يعيب الرجل المربىٰ : ذلك لأنه يخشى إن هو سئل ، الوقوع بين أمرين خيرهما شر ، وأحلاهما مر ، وهما التورط فى الكذب ، وقد علم أنه رذيلة الرذائل ، و إما الصدق الذى يكشف من أمره مالا يحب أن يصله الناس به ويعهدوه عليه .

أما من راض نفسه على الكذب ، وأسلم زمام لسانه لهذه الرذيلة ، فهذا ، ولا ريب ، من وطن نفسه على مقارفة ما يشاء من القابح ،

ومعاطاة كل ما يلذه من المآثم ، مستمداً الخلاص من الكذب ، وهو فى ظنه لا ينضب معينه ولا ينفد مدده ، غافلا عن أن جعل الكذب ، كما قيل ، قصير ، وأنه بحسب المرء أن تحصى عليه كذبة ، ثم كذبة ، ليتمثل دائماً للناس كذاباً لا يصدق أبداً ، ولو صدق ، ولا ينطق الحق مطلقاً وإن نطق !

وهذا من الجهة الفردية . أما من جهة المجموع ، فالأمر أجل وأخطر . وأرجو أن تستحضر فى ذهنك الآن قضية مسلمة سهلة واضحة وهى أن نظام الجماعات كله قائم على صحة النقل ، وفرض صحته ، سواء أكان المتحدث مترجماً عما فى نفسه أم راوياً عن غيره . على هذا يدور نظام الجماعات فى كل زمان وفى كل مكان ، إذ أن الأصل أن يصدق المتكم ، كما أن الأصل أن يصدق السامع ، وعلى هذا الأساس تجرى المعاملات بين الناس فى مختلف الأسباب . وكذلك ينتظم شأن الجماعة ، ويقوم التعاون بين الأفراد على الاضطلاع بأعباء الحياة ، بحيث تنتظم منها وحدة يكون الأفراد منها بمنزلة الأعضاء من جسم الانسان .

ولنقدر أن جماعة شاع فيها الكذب ، وقل فيها الصدق ومطابقة الاخبار للواقع ، فان مما يلزم هذا ويتبعه فوراً أن يسود التكذيب الجماعة ، فلا يصدق أحد أحداً أو لا يكاد يصدقه و يركن إليه قوله .

فلعمرى ، ماذا يكون شأن الجماعة فى هذه الحال ؟ وكيف ينهض الناس بالأعمال المشتركة ، وكيف يتم التعاون بين الأفراد ، والحياة الاجتماعية ، كما تعرف ، إنما هى تعامل وتبادل وتقارض . ومدار

هذا كله الثقة العامة ، فاذا فقدت هذه الثقة ، والعياذ بالله ، انهدم كيان الجماعة ، وأصبح بنيانها الشاهق ، أنقاضاً على أنقاض !

هذا والكذب على قبحه قد يساغ فى بعض المواطن إذا دعت إليه ضرورة . والضرورات ، كما قالوا ، تبيح المحظورات . وشأنه فى هذا شأن غيره ، فان الضرر الكثير لا يخلو من نفع قليل ، والشر الكبير لا يخلو من خير صغير . بل لقد يكون الكذب محموداً فى بعض الأحيان .

ومن المواضع التى يسوغ فيها الكذب ، الكذب على الصغير ، إذا لم يكن من ذلك بد لتسكين ثورة نفسه ، والترفيه عنه ، وإدخال السرور عليه . ومن تلك المواضع الكذب للاصلاح بين الزوجين أو بين الصديقين ، على ألا ينجم عن ذلك ضر .

ومن المواضع التى يحمد فيها الكذب ، بل التى ينبغى فيها اتخاذه وتعمده والالحاح فيه ، الكذب فى مكايد الحروب وخدعها ، فان الصدق فى هذا ، حيث يستغله العدو ويسلك منه إلى الظفر ، مما يلحق بالخيانة والاجرام . على أن من الناس من لا يأذنون لألسنتهم بالكذب مهما يكن الأمر ، ولقد يعوذون ، فى مثل هذه المقامات بالتوريات . وقد قيل : فى المعاريض مندوحة .

وعلى الجملة ، فاننا نستطيع أن نشبه الكذب بالسم ، فانه إذا كان فى طبيعته القتل والفتك ، فلقد ينتفع بقليله فى شفاء العلل وإبراء الأسقام فى بعض الأحوال !

وبعد ، فانما يجر الناس إلى الكذب أسباب شتى ، كما تختلف صور

الكذب نفسه باختلاف طبائع الكذابين . ومن أهم ما يدعو إلى الكذب ، وفى الصغار على وجه خاص ، الخوف والتخلص من المسئوليات . ومن أهم ما يدعو إليه فيمن ارتفعت بهم السن ، على وجه خاص أيضاً ، حب الظهور بألوان البطولات الزائفة لا ينفق فى سبيلها شئ من جهد أو مال ، أو استهداف لخطر ، أو تعرض لأذى من أى نوع كان ، وقد يدعو إلى ذلك حب التجمل للناس ، واستئلافهم والظهور بالاسراع إلى قضاء حوائجهم .

وكيفما كان الأمر ، فان الكذب كثيراً ما يضحى غريزة وجبلة ، يعمد إليه من ابتلى به فى غير ما رغبة ، ولا رهبة ، ويصطنعه فى غير ابتغاء منفعة أو دفع مضرة . بل لقد يعقل هذا وهو يعلم أنه يضره ولاينفعه . وإذا عرفت عرفت غلبة العادة التى تضعف بالطبع واتصلت بالغريزة ، عرفت أن مثل هذا مجبور ما له فى الأمر خيار ! وبعد ، فالحديث فى الكذب وقبحه ، والكذبة وإثمهم ، شئ يطول فى غير طائل ، وما للكذب المعتاد ، أعنى مجرد رواية غير الواقع،سقنا هذا الحديث ، وإنما سقناه لغرض آخر جليل ، يستحق أن يقابل به مطلع إبريل !

وأرجو أن تعلم أن من الكذب كذباً فنياً ، وإننى أعنى هذه الكلمة بكل ما تحمل من معنى ، بل إننى لأمضى إلى أبعد من هذا فأقرر أن هذا « الكذب الفنى » مما يمكن أن يضاف ، بحق ، إلى طائفة الفنون الجميلة ، ويوضع فى صفها ، وينظم فى سلكها ، إذ لا نجده يقصر عما يعطيك النحت أو التصوير أو الموسيقى من الأنس

واستراحة النفس ، وما تثير فيك ، فى بعض الأحيان من الطرب ، وما تبعث من الأريحية ، بل ما تذكى من حسك ، وتنفذ من فطنتك .

نعم ؛ هذا اللون من الكذب له فن جميل ، له كل ما للفنون الجميلة من رائع الأثر ، وبالغ الخطر ! هو فن جميل لا يجيده ولا يبرع فيه إلا من رزق الطبع وأوتى الموهبة ، فاذا تكلفه من لم يؤت ذلك خرج سمجاً بارداً ثقيلا كشأن سائر الفنون الجميلة فى هذا ، سواء بسواء .

وأول ما يبنى عليه هذا الفن أن الاختلاق والتزيد فيه لا يضر بشئ ولا يؤذى أحداً ، على أنه بالغ الغاية من الإعجاب والإطراف والاضحاك . ولعل من مميزاته الواضحة أنه لا يحاول قهرك على التسليم بأنه أمر واقع لا ريب فيه ، بل إنه ليعرض نفسه عليك عرضاً بسيطاً ، وقد يتكئ فى معرضه على يمين متجلجلة متخلخلة ، ولك فى النهاية حكمك فى الرد أو فى القبول .

وهذا الكذب الفنى ليس ابن اليوم ، ولا ابن الأمس القريب ، بل إنه قائم معروف ، وأصحابه المبرزون فيه معروفون كذلك من الزمان البعيد . ومن ذا الذى ينكر أباحية النميرى مثلا أو ينكر فنه العظيم . ومن ذا الذى يزعم أن صنعة هذا الرجل مما يستطيع أن يتكلفه من شاء من العالمين ؟

أليس من التحف الفنية الجميلة قوله يحدث عن نفسه : سنح لى ذات يوم غزال فرميته بسهم ، فتيا من الغزال فتيا من السهم وراءه ، فتياسر الغزال فتياسر السهم وراءه . وما زال ، فى عدوه ، يراوغ

السهم بالتيامن مرة وبالتياسر أخرى ؛ والسهم يلاحقه كذلك ، حتى أدركه ببعض الجبانات فصرعه !

ولا شك أن من القطع الفنية الرائعة ما حدث به هذا أبو حية قال : عن لى ظبى فرميته بسهم ، فانطلق الظبى وانطلق السهم وراءه ، ثم ذكرت بهذا الظبى حبيبة لى فعدوت وراء السهم حتى قبضت عليه قبل أن يبلغه !

وإذا كانت حكاية القزان والكرنبة أو السمكة لا يزال لها رونق فى بعض الأسمار ، فاعلم أن هذا المعنى مسبوق من العصر القديم . قال الأصمعى : قال الخليل بن سهل : أعلمت أن أطول رمح رستم كان سبعين ذراعاً من حديد مصمت[1] فى غلظ الراقود[2] فقلت ها هنا أعرابى له معرفة ، فاذهب بنا إليه نحدثه بهذا . فذهبت به إلى الأعرابى فحدثه . فقال الأعرابى : قد سمعت بذلك ، وبلغنا أن رستم هذا كان هو واسفنديار أتيا لقمان بن عاد بالبادية ، فوجداه نائماً ورأسه فى حجر أمه ، فقالت لهما : ما شأنكما ؟ فقالوا : بلغنا شدة هذا الرجل فأتيناه ، فانتبه فزعاً من كلامهما ، فنفخهما ، فألقاهما إلى أصبهان ، فقبرهما اليوم بها . فقال الخليل : قبحك الله ما أكذبك ! قال : يابن أخى ما بيننا من شئ إلا وهو دون الراقود !

---

(١) مصمت : لا جوف له . أو كما تقول العامة : صب .

(٢) الراقود : الدن الكبير (برميل) .

وما أبدع روائع النفاجين[١] ، ما روى أن عاملا فى روسيا فى مصنع لتقديد اللحم ، لقى فرنسياً يعمل فى بلاده فى مثل هذا المصنع . فجعل كل منهما يكاثر بمصنعه ، ويهتف بعظمته وقوة آلاته حتى قال الروسى: إن مصنعنا تساق إليه قطعان الخنازير من هذه الناحية ، فلا تلبث بضع ثوان حتى تخرج من الناحية الأخرى لحوماً مقددة مصففة فى العلب ، عليها اسم المصنع وشعاره !

فقال الفرنسى: وما هذا ؟ فان مصنعنا ليزيد على ذلك بأنه إذا خرج بعض العلب فاسداً ردت ثانياً فخرجت من الناحية الأولى خنزيراً حياً سوياً !

ومثل هذا ما قيل من أن فرنسياً أقبل على صاحبه الروسى ، وجعل يحدثه عن شدة البرد فى بلاده ، قال : خرجت فى يوم من أيام الشتاء إلى إحدى الغابات ، فاعترضنى أسد ، فأسرعته وتسلقت شجرة باسقة ، وجلست على رأسها ، وكان خنجرى قد سقط عند أصلها ، وظل الأسد رابضاً إلى جذع الشجرة فى ارتصادى وترقب افتراسى . ومن شدة الخوف قطر منى ماء ما لبث أن انعقد ، من عظم البرد ، قضيباً ثلجياً ، فتناولت به الخنجر وتدليت فشققت به صدر الأسد !

فقال له صاحبه الروسى: وما ذاك ؟ إن هذا ما يكون عندنا فى وقدة القيظ ! أما إذا كان الشتاء وخرج الناس فى الصباح الباكر

---

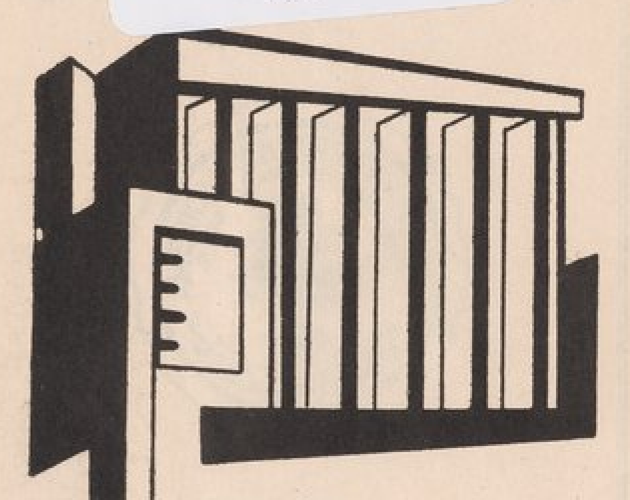
(١) النفاج (بتشديد الفاء) : المدعى المفتخر بما ليس عنده ، وهو من يعبر عنه العامة فى مصر بالمعار .

لطياتهم ، أقبل بعضهم على بعض بالتحيات المعتادة . ولكن الكلام ينعقد على شفاههم فلا يهجس منه حرف واحد ، فاذا طلعت الشمس وخفت حدة القر ، رأيت آفاق الجو كله تتصايح : « صباح الخير — أسعد الله صباحك — أرجو أن تكون بعافية — صحتى جيدة وأنت — إلى أين ؟ — الحمد لله — صاحبك التوفيق الخ . . . »

وبعد ، فلقد كنت أحب أن أتحدث عن عباقرة الفن الحديث ممن أدركناهم ، وممن لا يزالون قائمين فى الحياة ، وأعرض لخواص فنهم وأشهر ما جادوا فيه من الطرف ، لولا أن الكلام قد طال . فاذا كانت فى العمر فسحة فلعلنا موفقون إلى هذا فى إبريل المقبل إن شاء الله .

مطبعة الكتاب المصرى شركة مساهمة مصرية






RODOLPHE

